كتاب الهلال

الملكة والثوار في عربة

فتحي رضوان

الثمن ١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١٠٤ جماد أول ١٣٧٩ — نوفمبر ١٩٥٩

No. 104 — November 1959

مركز الادارة

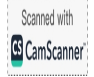
دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ — اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا — السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا — فى الامريكتين ٢/١ ٥ دولارات — فى سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

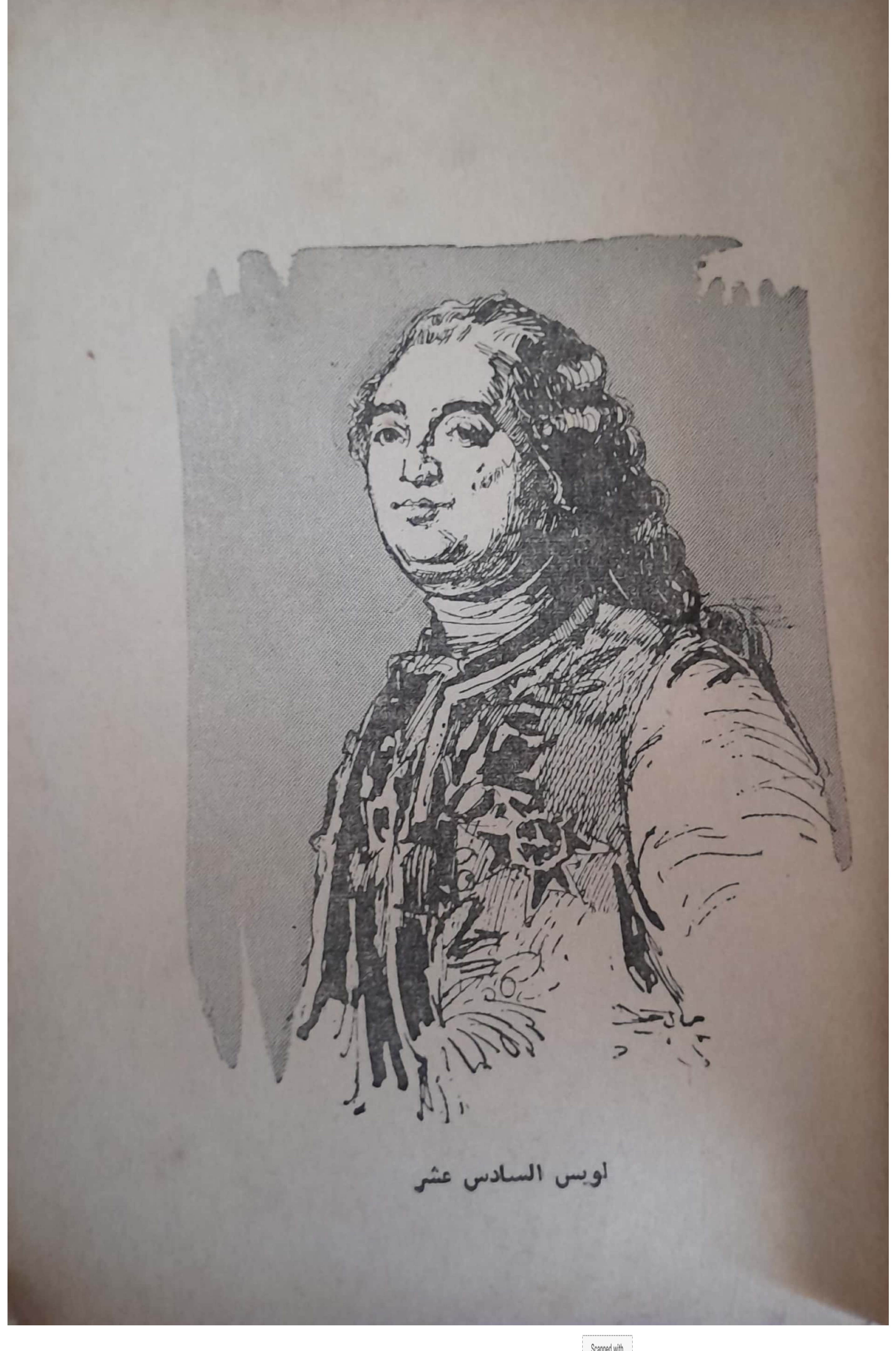


الملك والثوار

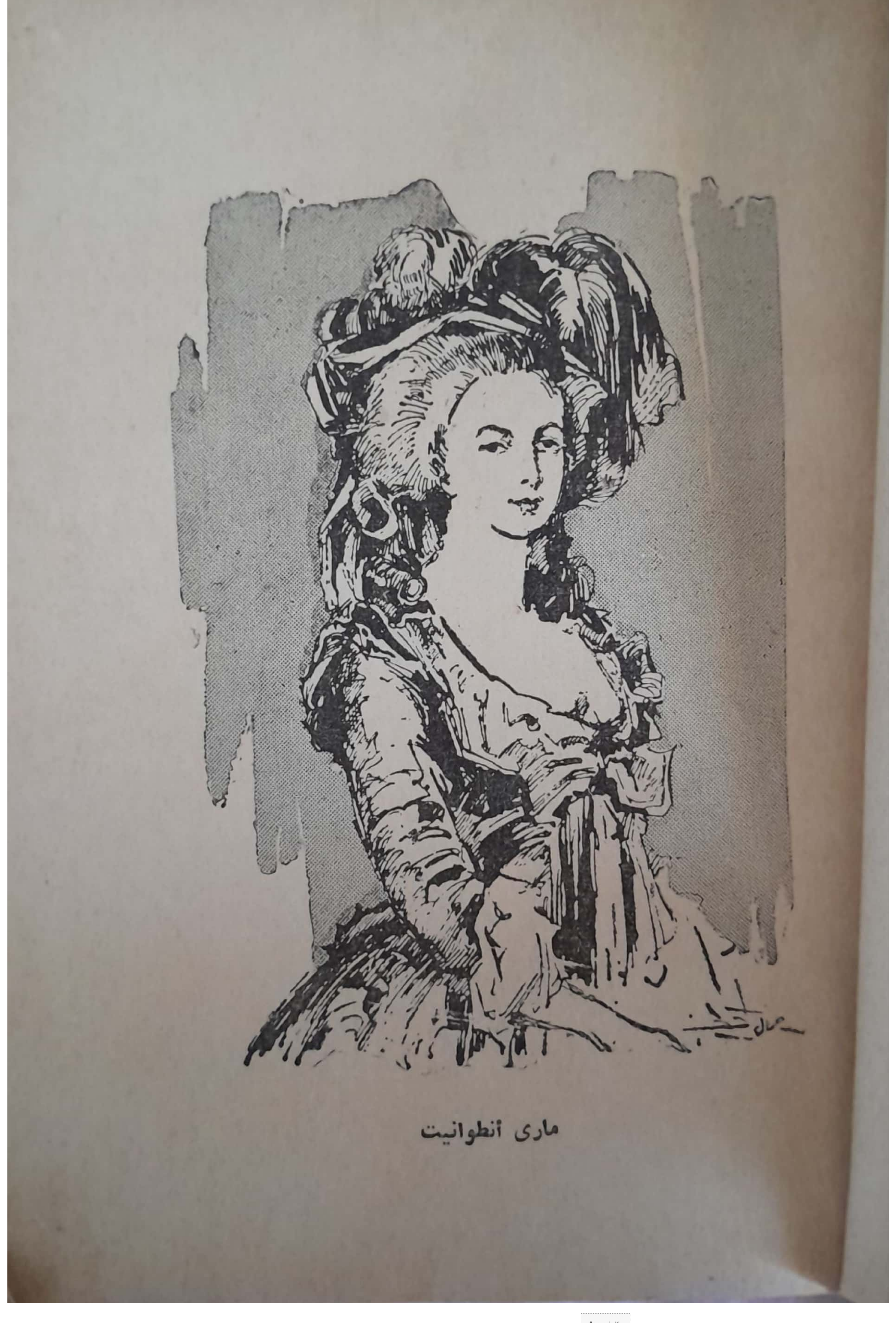
فى عربة

بقلم

فتحى رضوان



لويس السادس عشر



ماری أنطوانيت

الفصل الأول

نحن الآن فى شهر يونية من سنة ١٧٩١

واذا أردت الدقة ، فنحن فى الرابع والعشرين من ذلك الشهر من تلك السنة

ولكن المشهد الذى سنستفتح به قصتنا ، لا يجود به الزمان الا نادرا ، فلا شأن له بالساعات ، ولا بالايام ، ولا بالشهور والسنين . انه مشهد لا تدبره الطبيعة التى حولنا ، من شمس تقترب من كوكبنا ، فتجعل جونا صيفا ، وتبتعد فتجعله شتاء وتعتدل ، فلا تبعد كثيرا ، ولا تدنو دنوا كبيرا ، فيكون هذان الموسمان الجميلان : الربيع والخريف . انه مشهد لا شأن له كذلك بالكواكب والاقمار والنجوم ولا بالرياح والزوابع والعواصف ، الا أن تكون رياح وزوابع وعواصف النفوس ، التى فيها مثل نار الجحيم ، ومثل نسيم الصباح ، والتى تخرج من اعماقها زلازل وبراكين ، تطوى الناس ، ودور الناس ، كما لا تطويهم زلازل الارض وبراكينها

المشهد الذى نفتح اعيننا عليه فى هذه القصة ، بطلاه ملك وملكة ، وذووهما من النساء والاطفال ..

ولكن الملك هنا ، لا يبدو لنا فى حلل الملوك الزاهية ، ولا يخرج حاملا صولجانهم ، بل يظهر كفار مذعور ، وان كان جسمه فى حجم الفيل ٠ والحق أنه كان ضخما مترهـــلا ، طيبا طيبة الفيل ، ينظر فى الفضاء نظرات الفيل الطـــويلة العميقة التى يشوبها حزن ، لا تدرى سره

ولا أطيل عليك ، فالملك هو لويس السادس عشر الـــذى تعرفه ، لطول ما قرأت عنه من سير واخبار ، ومن فصـــول وكتب ٠ وهو فى هذا المشهد النادر ، فـــار من الملك ، ومن العرش ، ومن عاصمة الحكم الى قرية على حدود بـــلاده ، هى « فارن » ، ولكنه لسوء طالعه لم يحسن تدبير الفرار ، فألقى القبض عليه ، وجىء به الى عاصمة الملك التى فر منها والى البلاد التى حكمها ، ثم أراد أن ينجو بجلده من شعبها ٠٠

وكانت الى جواره فى المحنة كلها زوجته مارى انطوانيت هذه الفاتنة ، صغيرة الجسم ، رشيقة الخطوة ، حتى ساعة حم القضاء ، وطلب الجلاد رأسها ، وانتظر الناس موتها ، فقد قفزت على درجات المقصلة ، فى حركة خفيفة ، لا تكاد تلمحها العين ورأسها مرفوع ، وشفتاها مطبقتان ، ونظرت الى الجمهور الحاشد الضخم ، الذى آجتمع ليرى خاتمـــة سلطانها ومجدها وحياتها ، ثم أسلمت رأسها الى القطع ، وكانما تأتى عملا ملكيا

كانت ساحرة تفيض على من حولها ، وما حولها ، حياة دافقة ، وتلهم الشباب والشيوخ احساســـا بالحب ، حتى

ليحسبها كل من يدنو منها ، أنها تدعوه اليها ، وأنها منه أقرب من حبل الوريد ، فقد كان حسنها ولطفها يوهمان بأنها فى متناول كل من له يد ، وفى قلبه عاطفة ، وعلى شفتيه كلام

كانت الملكة متألقة برغم تعبها ، مستعدة أن تتكلم لولا صرامة الموقف ، ومرارة الخيبة ، والوحشة التى تفصلها عن الذين جمعتهم ظروف المسرحية بها فى عربة واحدة .. فقد كانت قمة الارستقراطية ، عدوة الثورة والتطور والشعب ، وكانوا قمة الديمقراطية والثورية والتطور .. كانوا ممثلى الشعب .. السيدان برناف وبثيون

كيف اجتمع هؤلاء ؟

لا تعجل .. !

انه اجتماع طريف حقا ، ولكنه لم يكن مقصوراً على هؤلاء وحدهم ، كانت هناك شقيقة الملك ، مدام اليزابث ، وكانت هناك وصيفة الملكة مدام « توريز » ثم كانت ابنة الملك وأخيرا كان هناك طفل صغير فى السادسة ، هو ولى العهد الذى كان أبوه يرجو أن يجلس من بعده على العرش ، وكانت أمه تنظر اليه كما ينظر من غرس شجرة ، وجلس الى جوارها ، يرقب نموها ، وينتظر ان تؤتى أكلها ، ليجنى منها الكثير

كان الملك ، زوجها ، بعيداعنها ، منذ اللحظة الاولى ، فقد كان يقابل التهابها ، وتدفقها، واقبالها على الحياة ، وفرحها بها ، وشغفها بمفاتنها ، بجمود وبرود وطيبة ، وثقل فى الحركة ، وتواضع فى الذوق ، وفى المطامع

ولعلها كانت تذكر فى تلك اللحظة ، كيف تركت بلادها فى النمسا ، وتركت أمها ماريا تريزا فى فيينا ، لتزف الى ولى عهد فرنسا . فقابلها رجلها فاترا ، مرتبكا ، خجولا واستقبلها لويس الخامس عشر جد ولى العهد وكان شيخا مفتوح الذراعين ، ضاحكا ، تتدفق الدعابات من فمه . ولما جلس ثلاثتهم فى العربة الملكية ، وكانت جلستها بين الشاب والشيخ ، كاد الشاب يسلم أجفانه للنوم ، ولم يضع الشيخ الفرصة ، فقد أخذ يداعبها ، ولم يبق الا القليل ، ليغازلها لولا أن الرحلة انتهت .. ومع ذلك فقد أحست فى اللمسات القليلة التى أتاحتها تلك الرحلة من الحدود الى العاصمة ، بحرارة يد الشيخ ، جد زوجها ، وبحرارة أنفاسه ، بقدر ما أحست ببرودة يد الشاب ، وبرودة أنفاسه

ما أعجب التاريخ !

انه حقا يعيد نفسه ولو أنه يتغير ويتبدل ولا يبقى أبدا على حال .. فهى الآن فى رحلة مشابهة ، ورحلة من الحدود أيضا ، ورحلة تلتصق كتفاها فيها بكتفى زوجها ، وهو أيضا كما كان منذ أكثر من عشرين عاما ، بعيدا عنها ، بروحه وعقله مع أنه لا فاصل بينهما من مادة

وقد كانت رحلتها الاولى حاسمة فى حياتها ، اذ نقلتها من حياة لاهموم فيها ولا أثقال ، الى حياة كلها تكاليف وأعباء . نقلتها من أمها وعشيرتها الى شعب يكرهها ويعدها أجنبية وعدوة ، ومسئولة عن فساد الامر فيه .. ولكنها

حينما جاءت الى فرنسا ، لم يكن شيء من هذا كله قد حدث ولم تكن الاستار قد رفعت ، والحجب عن بصيرتها قد انحسرت

ولكنها الآن عرفت كل شيء وخبرت كل الناس ، فذاقت لذائذ السلطان المسكرة ، ومتع السيادة المترعة ، وأمرت ، وحكمت ، وأقصت وأدنت ،ودان لها الناس بالطاعة ،وتمردوا على حكمها ، وأحبوها وكرهوها ، ونافقوها وأخلصوا لها وتآمروا معها ، وائتمروا بها ، فتعلمت بقدر ما تعذبت ، واحتملت من المهانات بقدر ما اتسع سلطانها وامتد نفوذها

لقد سبحت بخيالها وسرحت طويلا ٠٠ ولكن كان لابد من العودة الى الارض ، فقد كانت فى عربة ، وان كانت فاخرة ، الا أنها كانت ضيقة ، شاءت أو لم تشأ ٠٠ ولم تكن مع زوجها وابنها وشقيقة زوجها ووصيفتها وحدهم ٠٠ بل كان معهم ايضا السيدان بثيون وبرناف

أف لهما وللثورة التى يمثلانها ٠٠

ماذا تريد هذه الثورة ؟ وماذا يريد هذان الشابان اللذان ينظران اليها فى تعال وقرف كأنما ينظران الى حشرة ؟ ٠٠٠ وهى بدورها لاتكاد تقوى على كتمان الضحك على زيهما ، وجلافة أسلوبهما ، والارتباك الذى يحاولان اخفاءه عبثا ٠٠٠ انهما مرتبكان خجولان ، يريدان أن يقولا أن الملكة لا تهمهما حقا ، الملكة لا تهمهما ٠٠ !

قد تكون الملكة بتاجها وصولجانها ، لا تسبب ارتباكا لشابين .. ولكن مارى انطوانيت المرأة ، بهذا الظرف الذى أسبغته الطبيعة ثم صقلته الصناعة ، هل يمكن أن تمر على شاب ، دون أن تحرك فى بحر حياته دوائر من موجات الانفعال ؟ أشك ... أما الملكة المرأة ، فقد قطعت لنفسها ، فى همها وغمها ، فى أحزانها ومخاوفها بان ذلك مستحيل ... انه حكم الطبيعة القديم ، قضت به يوم خلقت حواء من ضلع آدم ، فاصبحت أقرب ما تكون اليه ، وأشهى ما تكون عنده

ولكن من قوانين الطبيعة أيضا أن يغلف الناس ، وان تغلف الاشياء حقائقها الباطنة بمظاهر .. فليس فى الثمار التى نأكلها ثمرة واحدة ظاهرها كباطنها فلكل ثمرة غلاف يقيها عوادى الطبيعة ، وأغلب هذه الاغلفة ، سميك غليظ خشن ، مع أن باطنها خفيف ، لطيف ، طرى وشهى ..وما صنعته الطبيعة مع الفواكه والثمار ، صنعته مع أبناء آدم ، وبنات حواء .. لابد من قناع يخفى نفوسنا ، ليحمينا من عوادى الطبيعة والمجتمع معا

أشاحت الملكة بوجهها ، وجمد الملك فى مكانه كأن الامر لا يعنيه ، وأغمضت شقيقة الملك ووصيفة الملكة أعينهما ، لتوفرا على أنفسهما متاعب النظر الى هذين الرقيبين الثقيلين برناف وبثيون

أما الطفل ولى العهد ، فهو ثمرة من ثمار الانسانية لم يتكون لها غلاف بعد .. ولا شأن له بما يتظاهر به أبوه ،

وتتظاهر به أمه ..

ما هى الملكية وما هى الثورة ؟ لماذا هو (ولى عهد) يطاطىء الناس له رءوسهم ولماذا يقبلون يديه ، ويحترمون ارادة والديه؟ .. ولماذا يفر الى الحدود ، ولماذا يعود الآن ؟ ومن هـــذان السيدان ؟ ولماذا يسكت الناس فى العربة ولا يتكلمون ؟ بل لماذا تكأكأت الجماهير فى « فارن » وكادت تفتك بهم ؟ ما هذا كله ؟ .. أمور يحاول أن يفهمها ، فيفهم بعضها ، ويخطىء فى فهم أكثرها .. ثم اذا فهم شيئا يوما نسيه يوما آخر ، فلم يبق عنده الا أن الشعب يكرهه .. والشعب هذا ماذا يكون ؟

أهو مخلوق يرى ويسمع ؟

فاذا كان كذلك ، فلماذا لم يره حتى اليوم ، ولم يسمعه حتى اللحظة ؟ .. ثم أين يسكن ؟ وأخيرا لماذا يكره الشعب أمه وأباه ؟ ولماذا يجب أن يكرهه هو أيضا وهو لم يسىء اليه ولم يجتمع به ؟ ..

ولكن فى « فارن » رأى أناسا قيل له أنهم الشعب .وهم الذين أعادوه الى بلاده ، وهم الذين الزموه أن يركب هذه العربة مع هذين السيدين

أيكون هؤلاء العمال والفلاحون ، الغاضبون الثـــائرون ، الذين يحملون المدى والعصى ، وأحيانا البنادق والخناجـــر والسيوف ، هم الشعب ؟

هم اذن كذبوا عليه ، فليس هؤلاء هم الشعب ، بل أنهم

اناس من الفقراء ، تبدو عليهم آثار ضنك شـديد ، وبؤس طاحن ، وعلل كثيرة · انهم يصرخون حقا ، ولكن مع قـوة اصواتهم ، وعظم حناجرهم ، يكاد بعضهم يسقط اعياء من فرط الجوع ·· انهم حقيقة أخافوه ، حتى لقد كرههم ، ولكنه لم يصدق أنهم الشعب ، لانهم فى حقيقة الامر آدميـون ، وفرنسيون · كان يرى بعضهم أحيانا عن بعد ، حينما كان يذهب الى الريف ، ولم يقل أحد فى تلك الايام أنهم الشعب ولا أنهم مكروهون ، أو أعداء ، أو خطرون

فمن ذا الذى سيكشف له عن كل هذه المعميات الغامضة ؟..
ان أباه على طيبته ووداعته وطول باله واتساع صدره ، لا ينشط كثيرا للرد على أسئلته الكثيرة ، وهو ان اجـاب ، أجاب بما يزيد الامر غموضا ، فهو لا يقول أبدا كلاما كاملا ·· بل كل كلامه قصير ، مقتضب ، ولكنه مع ذلك يرتاح له حين يسأله ، ويرتاح اليه حين يجيب عليه

أما أمه ، فأمر آخر

ان عينيها تلمعان فرحا حينما يدير وجهه اليها · وهو لا يكاد يكمل جملة ، حتى تمسك وجهه الصغير بيديها اللتين تفوح منهما دائما عطور جميلة ، مسكرة ، فان امسكت يديه بيديها انتقلت رائحة العطور اليهما ، والتصقت بهما ، فاخذ يقبلهما بعد أن تدعه أمه ، لا لانها عطور جميلة فحسب ، بل لانها رائحة أمه التى يحبها حبا جما

ومع ذلك فان الحديث معها لا يطول ، لان صبرها ينفد

سريعا .. حقا انها تجيبه على كل اسئلته ، فى الفاظ تملأ اذنيه بعبارات الحب له ، والاعجاب به ، حتى ليود ان يدير وجهها بيديه ، ويقبلها ويقبلها ويقبلها .. ولكنه ابن ملك ، كما افهموه منذ عرف الكلام ، ومعنى ذلك ، ان عواطفه لا تملك الحرية فى أن تعبر عن نفسها ، كما يفعل ابناء الشعب .. الشعب مرة أخرى ! ..

وسأل لماذا يحق لابناء الشعب ان يعبروا عن عواطفهم كما يريدون ، وحين يريدون ، ولا يحق لابن الملك أن يفعل فعلهم؟. ذلك لانهم شعب ، وهو ملك

ماهو الشعب ؟ .. ما هو الملك ؟

لم يجب عليه أحد حتى أمه التى كان يأنس لها ، والتى تلتمع عيناها حينما تتكلم معه ، ولكنها حينما تجيب ، تجيب فى جمل سريعة وان كانت واضحة ، قصيرة وان كانت بسيطة ، فيشعر انه فهم ، أو انه يجب ألا يفهم لانه صغير حينا ، ولانه ابن ملك حينا ، ولان السؤال أبدى امام اجانب لايجوز أنيسأل امامهم ، او لانه سأل قبل اليوم نفس السؤال ، ان كان قدنسى يجب عليه أن يتذكر ، لان الملوك اذا فقدوا ذاكرتهم ، فقدوا عروشهم أحيانا ، وفقدوا رءوسهم أحيانا أخرى

الامر على كل حال صعب ، وليس بالسهولة التى كان يظنها عندما بدأ حياته ، وبدأ يعرف الذين حوله ، ويعرف كيف يتكلم ، ويعرف ماذا يقولون

أما هذه اللحظة القاتمة الصامتة ، التى حشر فيها الى

عربة ، استضافت على الرغم من امه وابيه ، ضيفين لايعرفهما، وان كان يحس بأن لهما صلة ما بهـذا المجهول المخيف الذى يسمى « الشعب » .. أما هذه اللحظة ، فيبدو انها لاتصلح فى كثير او قليل للسؤال عن أى شىء ... فالصمت المطبق هو الشىء السائد فى هذه العربة

ومع ذلك اذا كان الكلام غير ممكن ، فلا أقل من ان ينظر ويتأمل

أما أمه التى يحبها أعظم الحب ، فهو يعرفها ، فلا حاجة به الى التأمل فيها .. وأبوه واضح وبسيط ، حتى فى هـذه اللحظات الغريبة ، فلا نفع من التأمل فى وجهه وجسمه ، اما وصيفة الملكة ، فهى متعالية حتى عليه ، شديدة حتى معه ، وهو يكره ان يدخل فى نطاق نفوذها ، فالخير كل الخير ان يبعد عنها .. وينجو منها

اذن ، وبالاختصار ، الشىء الجديد فى العربة ، هو وجود الشعب معه،ممثلا فى هذين السيدين الشابين ، برناف وبثيون .. فهى فرصة لن تعوض .. متى سيرى مرة أخرى اثنين ينتسبان الى الشعب قريبين منه هذا القرب ، بل ومحشورين معه فى مكان واحد ، مكان ضيق غاية الضيق

انها فرصة ثمينة ، وعليه أن ينتفع منها حالا .. وبغريزة الطفل ، وحيويته ونشاطه ، وبحـرارة الطفل وبساطته واخلاصه ، بدأ الاحتكاك بين طفل ملكى ونائبين من الشعب..!

عجبا .. !

انهما آدميان تماما .. ليس فيهما شىء يخالف ما عرفه

من الآدميين الذين لا ينتسبون الى الشعب ، ولا يمثلونه .. انوف عادية ، واصابع طبيعية ، وقامة لا عوج فيها ولاطول فيها وبطون لا نتوء يعيبها ، واصوات لا تصك الاذن ، ولا يتطاير لها شرر

كانت تلك هى النظرة الاولى

اما النظرة الثانية فكانت نتيجتها أعجب .. !

السيد برناف جميل .. جميل الطلعة .. وهو يبتسم .. وكان من حين الى حين ينظر الى زميله بثيون ، ثم يتبادل كلمات قلائل معه ، ولكنها تنطق مع ذلك بصوت هادىء .. هل يستطيع أن يقول لنفسه (لنفسه وحده) أن صوته مثلا أجمل من صوت ابيه شخصيا .. لا .. ان ذلك محرم .. وفى هذه اللحظة ينظر الى امه سريعا ليرى هل لا حظت أنه فكر فى هذا الجرم الكبير .. ولم يلاحظ على وجه أمه شيئا .. انها لا تزال ترفع وجهها فى ترفع ، متحامية النظر الى شىء أو الى أحد فى العربة ، وشفتاها مطبقتان فى حزمها الذى عرفت به حينما تغضب ، أو حينما يعارض ارادتها معارض ، فتبدو مخيفة ، مع أنها خلقت لتحب ، وخلقت لتضحك وتلهو .. على الاقل هذا ما كان يفهمه بعقله الصغير ، فهى اذن فى حالة من حالات الحزم ، فالأولى به ان يشتغل بنفسه .. ولكنه لم يستطع

فقد تلاقت عيناه بعينى السيدبرناف ، ياالهول ماحدث ..!

انهما عينان كبيرتان متسعتا الاحداق ، تفيضان حبا ،

ولهما بريق ، يشبه بريق عينى شخص آخر

من .. من .. ياترى ؟

انها أهوال فوق أهوال

انه بريق كبريق عينى أمه ... !

كيف يمكن أن يكون ذلك ، وأمه ملكة ، وهذا من الشعب ؟ ولكن هذا ما رآه ، وهذا ما أحسه .. قد يكون مخطئا .. ولكنه الحق فى رأيه

وبعد أن نظر الى الطريق مرة ، ومرة ، عاد ينظر الى الناحية التى يجلس فيها السيد برناف ، فرأى العينين ، نفس العينين ، وهما تسلطان عليه بريقا أخاذا ... انهما تضحكان ، انهما تدعوانه الى أن يقترب ، وان يتكلم ، وان يسأل

والحق أنه يريد ان يقترب ، وان يتكلم ، وان يسأل .. صحيح انه ابن ملك ، ولكن الاصح أن الرحلة طويلة ، والعربة ضيقة ، والصمت لم يخلق ليفرض على الاطفال . وأصح من هذا كله ، أن السيد برناف وبشيون ليسا كريهين الى الحد الذى يريد جو العربة ان يقوله ، ولو أن جو العربة لا يقول شيئا ، ولكنه يوحى باشياء أوضح من الكلام

وبغريزة الطفل ، فهم أن الخطوة التى سيخطوها نحو السيد « برناف » خطرة جدا ، وانه لا يدرى عواقبها ، فقرر أن يتحاشى النظر الى عينيه ، وان ينظر الى شىء آخر

ماذا فى العربة يمكن النظر اليه دون التعرض لمخاطر جسيمة كمخاطر الاقتراب من « الشعب » والتحدث اليه ، والتحدث

معه ؟

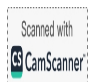
أدار الطفل عينيه هنا وهناك ، ووقع بصره على شيء طريف .. على شارة صغيرة في عروة السيد « برناف » ، شارة يبدو أنها جميلة .. أنها جميلة فعلا ، لقد أدرك ذلك من النظرة الثانية ، وتأكد هذا النظر في المرة الثالثة

آه لو استطاع ان يمد يده فينتزعها ، يعني يأخذها ، ويقلبها بين يديه ، ثم يضعها في عروته كما يفعل السيد « برناف » .. لكن لابد ان يكون في جو هذه العربة شيء كالسحر ، فان أصابع السيد « برناف » امتدت الى هذه الشارة ذاتها ..هاهي ذي أصابعه تعبث بها ، في خفة ، ثم هاهي ذي تنزلق من فوقها وذهن السيد ممثل الشعب شارد ، ينظر الى الخارج كأنما لا يحس بالطفل ، ولا برغبات الطفل ، فارتفاع أصابعه الى الشارة اذن ، كان عفوا ، ولكنه زاد من اغراء هذه الشارة ، وزاد من جمالها في عيني ولي العهد .. ولكنه صمت ، لانه كان يعلم جيدا ، ان المكان والزمان لايسمحان أبدا بتحقيق رغبات خطرة كهذه الرغبات

ولم يمض وقت طويل ، حتى حدث في العربة شيء خطير في نظر الطفل المسكين ، فان السيد « بشيون » سعل ، ثم عطس ، واخرج من جيبه منديلا مسح به انفه ، كما يفعل هو وكما يفعل أبوه ، وعندما انتهى من ذلك كله ، تبادل هو و « برناف » كلمة صغيرة ، ولكنها أضحكت الاثنين

ترى ماذا كانت هذه الكلمة ؟ ولماذا أضحكتهما ؟ ولماذا لم



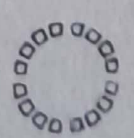


يستطع أن يسمعها ؟. ولماذا يتكلمان همسا ؟

احاج فوق احاج .. وهو بينها جميعا ، حائر ومتعب ..
ولكنه مع ذلك لن ينظر مرة أخرى الى وجه السيد « برناف»،
لانه كلما نظر اليه زاد حبا له ، واذا تحاشى النظر اليه ،
وقعت عيناه على الرغم منه فوق هذه الشارة الخاطفة للابصار
ببريقها الساطع ، وزادت رغبته فيها ، حتى ليحس بأن يده
تمتد من حيث لايدرى ، اليها

يالها من لحظات مؤلمة ..

وزاد من عذابه ، أمر آخر لم يدر كيف يخلص منه



الفصل الثانى

لو علم الطفل الصغير الذى أعد رأسه ليحمل التاج ، مادار فى راس والدته الملكة ، لادرك كم ظلمها ... فلم تكن الملكة مطبقة الشفتين ، متعالية ، وبعيدة عن العربة ، ومن فى العربة ، لاحتقارها رفقاء الطريق فقط ، بل لانها كانت فوق ذلك تعيد فى رأسها كل ما تعلق باعداد هذه الرحلة الفاشلة التعسة .. وفى تأملاتها حزنت أبلغ الحزن ، لانها لم تكن لها عقلية بنت من بنات الشعب ، فلقد دبرت الرحلة وفكرت فيها ، بعقل ملكة ، وفكر لها أصدقاؤها معها ، بعقول ملكية أيضا .. ولكن الرحلة لم تكن انتقالا من حجرة الى حجرة فى قصر ملكى ، ولم تكن انتقالا من قصر الى قصر ، بل كانت فرارا من قصر التويلرى ، الى خارج فرنسا كلها ، فكان من المحتم ان تخترق أحشاء الريف الفرنسى ، وأن تمر بقراه ، وان تلتقى على طول الطريق بأبناء الشعب .. وكان هذا اللقاء يحتاج الى عقلية شعبية وانى لها هذه العقلية .. ؟

لقد تذكرت كيف دبر « فرسن » الكونت السويدى ، الذى احبها اخلص الحب ، هـذا الفرار فبذل فيه ماله ووقته ، وواجه الموت ، فلم يبخل حتى بحياته .. ولكن كان هذا كله

عبثا .. فقد كان يفكر فى هذا كله ، بعقلية النبلاء الاشراف ، وكانت الموجة العالية هى موجة الشعب ، فلم يحسن السباحة فى هذا البحر الجديد عليه ، فاغرقها .. لقد اختار للرحلة عربة فاخرة ، وملأها بفاخر الاطعمة والاشربة ، واعد ادوات من فضة ، حتى لقضاء حوائج البدن

وكانت هذه العربة بتلك الضخامة تحتاج الى ثمانية جياد أو اثنى عشر جوادا ، لجرها ، وكان تغيير هذه الجياد فى محطات الانتقال ، يقتضى وقتا أطول ، وكانت بعد ذلك أبطأ من عربة خفيفة يجرها جوادان ، ولا تتسع الا لثلاثة أو أربعة أشخاص ولكن كيف يمكن لعقل أرستقراطى ، أن يسمح لملكة فرنسا ونافار ولملكها ، وللأسرة الملكية ، أن تفر فى عربة عادية صغيرة .. !

وقد قضت نفس العقلية ، أن تسافر الاسرة المالكة كلها فى عربة واحدة ، فلم يكن كافيا أن يجتمع الملك والملكة ، وولدهما وابنتهما فى العربة ، فقد ابت المربية « مدام توريز » الا أن تحافظ على العهد الذى قطعته على نفسها ، من الا يغيب ولى العهد واخته ، عن عينيها لحظة ما دامت على قيد الحياة .. واحتراما للقسم ونزولا على مقتضى العهد ، أصبحت المربية عضوا فى الجماعة التى ركبت العربة ، ولما كان من غير المعقول ان تخلع الملكة بيدها ثيابها ، وتبدلها بغيرها دون مساعدة ، كان لابد من أن يكون ضمن الهاربين الوصيفة التى قامت بهذه المهمة منذ جاءت الملكة الى فرنسا ، شابة صغيرة فى الثامنة عشرة من عمرها

ذكرت الملكة فى عربتها ، وهى عائدة الى باريس ، مجللة بالعار والخيبة ومفعمة بالتعاسة والحزن ، هـــذه الاخطـــاء ، فهزت راسها ، ومرت على شفتيها ابتســـامة باهتة ، لا يكاد يلمحها الانسان ، حتى لو اطال النظر اليها

ومع ذلك لم تكن هذه هى الاخطاء كلها ، فان الكونت «فرسن» ابى عليه حبه ، الا ان يحيطها وهى فى رحلة الفرار بكل ما من شانه أن يشى بشخصيتها او يكاد ، فان « السياس » الذين يجلسون الى جوار السائق ، والسائق نفسه ، لم يخترهـــم « فرسن » ممن يحسنون هذه الصنعة ، ويعرفون الطريق ، بل اختارهم من الاشخاص الذين يثق بهم ، مع أنهم من أكثر الناس جهلا بالطريق الى « فارن » ، واختار لهم حللا زاهية ، براقة جديدة تلفت النظر .. لم يكن منهم السائق المحترف ، ولا السائس المجرب ، بل كانوا فرسانا من حرس الملك .. ان الحب والسياسة لا يجتمعان .. ان أحدهما يبطل عمل الآخر ، فكل منهما كثير المطامع ، غيور ، لا يطيق له زميلا او منافسا

لقد كان الكونت « فرسن » مشغولا بشخص الملكة ، وكانت رحلة فرارها فى رايه ، فرصة يعبر بها عن حبه ، فكيف يتصور اذن ان تتم الرحلة دون أن يحسب حســـاب الملابس التى سترتديها الملكة ، عند وصولها الى غايتها .. فلابد من شحن عربة ثانية ، بصناديق ملأى بالملابس الفاخرة لها ولزوجها

ولما كان من المتفق عليه أن يلتقى جنود الجنرال « بواييه»

وهو من القواد الذين بقوا على ولائهم للملكة ، فى نقط معينة فى الطريق ، بالعربة التى تضم العائلة المالكة ، ليكونوا لها حماية من غضب الشعب ، اذا ما فطن الى شخصية الفارين .. ولذلك كان من الواجب أن تسير العربة فى الموعد المحدد ، ليلتقى بها الجنود ، ولكن تأخر قيام العربة من باريس ، لاحتياطات رآها العاشق المتفانى لازمة فى اللحظة الاخيرة ، مضافا الى التأخر الناجم عن كثرة جياد العربة ، وطول الوقت اللازم لاستبدال تلك الجياد بغيرها .. فطال بذلك انتظـــار جنود الجنرال «بوابيه» حتى أصبح ظهورهم محلا للتساؤل ، ومثارا للشبهة، وكانت الحجة التى تذرع بها الجنرال انهم فى انتظار عربة تحمل نقودا حكومية ، ليتولوا حراستها : أية نقود هذه التى تتجه من العاصمة شرقا الى الحدود ؟! وأية نقود هذه التى تحملها عربة يكاد يكون كل ما فيها ملكيا ؟ اذا استثنينا شارة الملكية التى توضع على عربات القصور !

لذلك كان لابد ان يصرف القائد جنوده ، ليسرحوا فى القرى ويمرحوا ساعة أو ساعات ، حتى يجمعهم عند اللحظة المناسبة، فاختلط هؤلاء بأهل الريف ، وشربوا معهم وسكروا وتآلفوا مع أبناء الشعب ، فكادوا يفقدون صفاتهم الملكية ، وولاءهم الملكى

وعادت الابتسامة الباهتة الى شفتى الملكة .. فقد نظرت الى زوجها ، وتأملت وجهه طويلا ، فلم تر عليه آية من آيـــات الضيق ، ولا علامة من علامات الانزعاج . ولو نظر الى وجهه فى المرآة لرأى نفسه فى ثياب « كبير الخدم » فى احد قصور

النبلاء . فقد وضع على راسه شعرا مستعارا رخيصا ، مما يلبسه كبار الخدم ، ولبس حلة جديدة من حللهم ، وهو حفيد الملك الشمس ، الذى كان يتساءل مستنكرا « الدولة ؟ الدولة انا . . ! » ، ولكن هذا الملك كان يقول ايضا «بعدى الطوفان» ، كان قلبه كان يحدثه بما سيكون ، فقد جاء بعده الطوفان حقا ، وتحققت النبوءة ، وها هو ذا حفيده الضخم يطفو فوق سطحه الهائج المائج ، كجيفة حيوان ثقيل . . ثم نظرت الملكة الى ثيابها هى ، فرأت نفسها ، فى رداء وصيفة ، وكانت الوصيفة الحقيقية فى ثياب بارونة ، اختاروا لها اسما مستعارا هو « البارونة دى كورف »

يا لها من مساخر ، لم تسفر عن خير ، ولم تفض الا الى الخيبة . . !

ابتسمت الملكة فى حزن عميق ثقيل ، وهى تنظر الى اعضاء الاسرة المالكة ، وقد ارتدوا هذه الثياب ، وكأنما يمثلون مسرحية « فودفيليه » ، لو أن مؤلفا مسرحيا جرؤ على كتابتها ، لاتهمه الناس بالمبالغة فى التصوير ، والاسراف فى التطوح مع الخيال

وهى نفسها ، لو قيل لها أنها ستلبس ثوب وصيفة ، وأن زوجها سيلبس ثوب خادم ، وان ابنها ولى العهد سيلبس ثوب فتاة ، لاستغرقت فى ضحك عميق

ولكن فات اوان الضحك ، انها فى هذه الثياب ، لا لتنجو من الموت ، والمهانة ، وضياع السلطان ، والعيش فى خوف دائم . . لا ، انها فى هذه الثياب ، لتواجه مالا تستطيع التنبؤ به من مخاطر

اخــرى

مستقبل مجهول !

وفيما هى تدير هذه المخاطر فى رأسها ، وكأنها خيول تركض فى ساحة ضيقة ، فتلهبها بحوافرها ، التقت عيناها بعينى هذا الشاب الذى يجلس بينها وبين الملك ، « برناف » ! انهما عينان عجيبتان ! هل تستطيع أن تقول انهما عينان بريئتان .. ؟انها موشكة أن تقول ذلك .. ولكن هل يحق لها ، هى ملكة فرنسا ونافار ، وابنة ماريا تريزا ، امبراطورة النمسا ، وشقيقة الامبراطور ليوبولد ، قمة الارستقراطية ، وعنوان الفلسفة التى تقول بأن الملوك يرثون العروش من الله خالق الخلق ، ومبدع السموات والارض ، ليكونوا ظله ، ولينفذوا حكمه ، ولينشروا بين الناس عدله .. أيحق لها بعد هذا أن تقول عن عينى جلف من أجلاف هذا الجنون الطارىء ، الذى أصاب فرنسا ، والذى يسمى ثورة : عينان بريئتان ، وجميلتـــان ومتوددتان ، وداعيتان الى الحديث الوادع الهادىء !

بعدا لذلك الخاطر ، وسحقا لاعصابها التى بدات تخونها ، وهى التى عرفت عن نفسها طوال هذه المحنة ، التجلد والثبات ، والمحافظة على مظهر الملكية العتيد

لقد نظرت الى الحقول ، التى تمتد الى غير غاية ، من خلال النافذة الزجاجية ، حتى لا تدع لهذا الضعف سبيلا الى نفسها ، وقالت هامسة : مستحيل ! نعم مستحيل ان انظر الى هذين الوغدين ، الا بالصفة التى تناسبهما .. انهمــا مجرد ثوريين

لا يساويان المقعدين اللذين غطتهما القطيفة الحريرية البيضاء واللذين يجلسان عليهما فى العربة

اما بثيون فكان يجلس بين شقيقة الملكة ووصيفة الملكة ، اى بين سيدتين ، وكان العطر الذى يفوح منهما ، مع انه اختلط بالعرق ، الا انه لم يفقد قوته ولا سحره ، انه عطر يدير الرءوس ! وعندما كانت شقيقة الملك تخرج منديلا صغيرا لتمسح به العرق المتصبب من فرط حرارة شمس شهر يونية ، كان يتطاير منه عطر نفاذ ، حتى كاد الثورى « بثيون » يمد يده الى اليد التى تمسك بالمنديل .. ولكن حاشا .. ان هذه المرأة ، ليست الا الملكية بكل ظلمها وآثامها .. ! ولكن مارى انطوانيت كانت أمامه ، فكان فى وسعه أن يتأملها دون ان تحس، ودون أن يبذل جهدا .. !

وقد رأى شيئا عجبا .. انها حين تصمت ، ثم تحلق فى دنيا خواطرها وأحلامها ، يسود وجهها هدوء وصفاء وذكاء . ولكن أتكون هذه مجرد تصورات ؟ انه يعاود النظر اليها ، ثم يحدق طويلا حتى ينسى نفسه ، فلا يرى شيئا غير الذى رأى . فان نظره لا يقع على خط واحد من خطوط القسوة او الكبرياء او الغباء . ومع ذلك فهو موقن تمام اليقين ، مؤمن أعظم الايمان ، ان هذه السيدة هى رأس الشرور ، ومصدر كل ما حاق بالبلاد من وبال

واستأنف « بثيون » تأمله فى هذا المخلوق الرقيق الدقيق ، الذى هو الملكة ، فذكر كم كانت بارعة وذكية ، وكم كان جرس

صوتها حلوا واخاذا ، حينما استوقفوا عربتها ، ليركبوا معها ومع زوجها ، تنفيذا لامر الجمعية الوطنيـــة ، ففتحت الباب لهم ، وكأنهم اصدقاؤها المقربون اليها وقالت : « ايها السادة ! أرجو أن تعيروا الامر اهتمامكم ، حتى لا تقع الكوارث على رءوس الذين صاحبونا فى الرحلة ، فهم لاذنب لهم »

انه رجاء ، ولكنه رجاء يقطر فى واقع الامر ، كبرياء ، فهى لا ترجو لنفسها ولا لأولادها شيئا ، وانما ترجو للصغار الذين صاحبوها ، فهى بهذا تبدو انسانية ، يهمها مصير الضعاف ، وهذا مسلك يمس شغاف قلب الثوار . ثم هى ترجو والرجاء دائما ، ولو كان مرفوضا ، يقع من نفس الذى يوجه اليه ، موقع الارتياح ، لانه يشعره بأنه صاحب أمر ، وأنه معقد أمل ، وأنه أكبر ممن يرجوه

اذن لابد أن تكون هذه شيطانة ، أتقنت فنها أكبر اتقان .. وفنها هو فن خلب الالباب ، بحديثهـــا ومظهـــرها ، وادارة الرءوس بصوتها وعبارتها ، والاقتراب من القلوب بلطفهـا ورقتها !

وقطب « بثيون » حاجبيه ، وأشاح بوجهـــه ، ونظر الى السيدتين اللتين تجاورانه .. فرأى أن شقيقة الملك قد بدا التعب يظهر عليها ، وهى تحمل على حجرها ابنة الملك ، وبدت بهذا احق بالشفقة عليها ، وادعى الى الطمأنينة اليها . انها على الاقل ، ليست فى ذكاء هذه النمرة الصغيرة الحجم ، التى ودت ان تخدعه بما يظهر عليها من طلاء الطيبة ! الطيبة ، انه

ليكون احمق الحمقى لو صدق شيئا من هذا

اما الطفلة ، ابنة الملك ، التى جلست على حجر عمتها ، فهى مخلوق لا يستوقف النظر ، أنها خجول ، لا تشبه أخاها فى كثرة حركته ، ولا فى تهيئه للكلام ، ولا فى تعلق عينيه بكل ما هنالك .. انها لاتكاد ترفع عينيها من الارض،وحين يشتد قلقها من هذا الحبس الضيق ، ومن حركة العربة الرتيبة ، ومن شدة حر شهر يونية ، تتساءل عن سر الصمت الذى طال بين سكان هذا الصندوق الجميل، وعن سر حملها اليه فى منتصف الليل فى باريس ، وهى شبه نائمة، دون أن تدرى ماذا حدث، حتى وانتزاعها من فراشها فى قصر التويلرى ، لتساق سوقا فى حدائق القصر ، فى الليل البهيم ، وأمها ترتدى ثوبا لم ترها فى مثله طوال حياتها .. وكيف يجرى كل من حولها متلفتين .. ؟

وتذكرت كيف وقفت فجأة وهى على أبواب قصر التويلرى ،مختفية وراء عمود من أعمدة الحديقة ؟ ولماذا أحست أن أمها فزعت غاية الفزع ، كأنها حمامة صغيرة انقض عليها باشق ضخم ، حينما مرت امامهم عربة تسبقها مشاعل .. لقد همست أمها فى صوت خافت غاية الخفوت ، وكأنها تلفظ آخر أنفاسها فى الوجود .. « لافاييت » !

اذن « لافاييت » كان هو صاحب هذه العربة .. وماذا كان يحدث لو أنه رأى أمها ، ورآها ؟ ان « لافاييت » ليس عدوها ولاعدو والديها ، فقد كان يحضر كل مساء بانتظام لزيارة أبيها الملك ، فلا يخرج قبل العاشرة .. انها فهمت بغريزتها

أن هذه الزيارة كان القصد منها التأكد من أن العصفور لايزال في القفص .. أن الملك لم يفر من سجنه في قصر التويلري ، بعد أن نقل من قصر فرساي . ولكن ما كانت تسمعه عن لافاييت قائد الحرس الوطني ، انه صديق غريب للملكة ، لانه أيضا صديق لهذا الشيء الجديد الذي لم تكن تسمع عنه كثيرا من قبل .. الشعب !

انها تعلم أن « لافاييت » لايظهر حتى يصفق له الشعب ، ولكن الشعب بدأ يكره الملكة والملك ، والملكة بصفة خاصة ، ومع ذلك فلافاييت يزور الملك ، ويطيل السهرة معه أحيانا ، يتحدثان ويلعبان ، ولايبدو على وجه أبيها أنه يكره هـذه الزيارات .. الا ان يكون وجه أبيها - كما هو في أغلب الاحايين - لايحسن التعبير عمافي نفسه .. لو تكلمت ابنة الملك ، لسألت أمهاأسئلة كثيرة لا تنتهي ، ولكن أنى لها أن تسأل ، وهي في حجرة صغيرة ، تجري على عجل ، وكل من فيها صامت ، وكل ما يجري حول هذه العربة ، مخيف جدا.. بل أكثر من مخيف .. ؟!

ان خارج هذه العربة ، هـذا الغول الذي انطلق فجأة من مكان لاتعرفه ، أشبه شيء بالامكنة التي تخرج منها الغيلان في القصص والحواديث ، وهو يكشر عن أنيابه ، مهددا بقبضة يده ، ليحطمها ويحطم أمها وأباها وأخاها .

انها لاتستطيع أن تلجأ الى حضن أمها لتحميها منه ، لأن أمها تخافه كما تخافه هي .. اذن لانجاة .. واذن فلتصمت ،

ولتلتصق بصدر عمتها التصاقا شديدا ، كلما لاح فى الجو خطر .. والخطر لاينفك يطاردهم فى هذه الرحلة الملعونة ، فان هذا هو الملاذ الوحيد

عجبا للحياة وللدنيا .. !

حينما تدلهم المخاطر ، وتتزاحم المخاوف .. حينما لاينفع فى دفع الاذى عن الانسان سلاح ولامال ، ولا أخوة ولا أعوان ، يجد الانسان أيا كانت قوته ، وأيا كانت مكانته ، وأيا كانت سنه ، الامن والحماية فى أحضان صديق عزيز ، قد يكون أما أو زوجة ، بل قد يكون أحيانا أحضان ابنة صغيرة ، مذعورة مثله ، خائفة من المستقبل مثل خوفه ، ولكنه مع ذلك يجد فى هذا الملاذ أمنا وهدوءا وقوة ، ذلك لان هذا الملاذ ، وان لم يستطع دفع الاذى ، الا أنه يبعث فى النفس الاطمئنان الى النهاية ، والارتفاع عن الخوف ، والرضا بالمصير . أو أنه يحجب عن الانسان التفكير فى هذا كله

ولكن أحقا أن هذا الرجل الضخم ، الذى يلبس ثوب الخادم ، لم يفكر فيما كان ، ولا فيما سيكون .. لقد عرف بأنه رجل بلا أعصاب .. ولكنه مع ذلك كان يفكر ، غير أن تفكيره كان له طابعه المميز .. فهو أولا رجل محدود الخيال جدا ، وهو ثانيا رجل شديد الخجل . وقد كان هذا مصدر شقائه ، ومصدر راحته فى الوقت نفسه : كان مصدر شقائه لانه لم يكن قادرا على أن يتصور أكثر مما يرى ، فكان يقابل الاحداث بالتجزئة ، وكانت الاحداث فى حاجة الى رجل يفكر فيها جملة ، ويعمل على ضوء ما سلف منها ، وما هو واقع

فعلا ، وأن يسبقها فيتصور ماتلد .. وقد كانت الايام والليالى حبالى .. وكان خجولا أشد الخجل ، فقد ولد وبرجولته نقص .. ولو كان رجلا عاديا ، لكان هذا النقص شأنه الخاص ، الا أنه كان وليا للعهد ، وكان زواجه عملا سياسيا ، فكانت رجولته أمرا دوليا ، يرقبه الملوك من فوق عروشهم بمجاهر ، ويتحدثون عنه فى المحافل ، ويعلقون عليه فى المؤتمرات ، ويدخلونه فى حساب خططهم حين يدبرون للحرب ، وحين يدبرون للسياسة .. فواخجلاه !

لقد كانت الاميرة الصغيرة التى زفت اليه فى الثامنة عشرة من عمرها ، قطعة من نار الشباب ، وقد اختارت عرش فرنسا حينما سألتها أمها ، أى العروش احب الى قلبك يا ابنتى ؟ فهتفت على الفور : فرنسا .. وكانت فرنسا بعد أن ارتقى عرشها لويس الرابع عشر ، الملك الشمس ، وبعد أن سبقه الى ذلك العرش نفسه ، هنرى الرابع ، وبعد أن حف بهذا العرش الكردينالان العظيمان ريشيليو ، ومازاران ، كانت فرنسا بعد هذا كله ، سيدة دول أوربا ، وكان عرشها ، وتقاليده ؛ أجمل العروش ، وكان بلاطها أفخم ، وأروع بلاط فى غرب الدنيا .. كان فيه الشعراء والقصاصون ، وكان فيه النساء الجميلات ، والقواد ، والساسة ، وانتشرت تقاليده فى كل بلاط ، ونسج على منواله كل ملك ، وتعلم فيه فنون الظرف والكياسة ،والدهاء والسياسة ، كل أمير طامح الى المستقبل ، ومؤمل فى المجد

ولكن ولى العهـــد ، كان يعلم انه لن يرزق البنون ، لا لخطا ارتكبه ، بل لعجز منى به ، الا ان السياسة لم تكن لتعترف بمثل هذه العقبات المادية ، بل اقتحمت على الزوج الصغير ، وزوجه الشابة ، خلوتهما ، وانتهت الى آن هذا العجز الذى يهدد حسن العلاقات بين دولتى النمسا ، وفرنسا ، يمكن علاجه بعملية جراحية ، غير محفوفة ، لحسن الحظ ، بالمخـــاطر ٠٠ وحضر ولى عهد النمسا ، وشقيق الاميرة مارى آنطوانيت ، الى باريس ، وأقنع البلاط الفرنسى بضرورة اجراء هذه العملية، واجتمع مجلس الوزرآء الفرنسى ، وأقر هذه المغامرة ، وأجريت العملية ، ثم كتبت الاميرة الصغيرة ، الى أمها الكبيرة ، انالعملية بدأت تؤتى ثمارها

فلم يكن خجل الرجل الضخم اذن بلا سبب ٠٠ فقـــد كان يتحرك منذ شبابه فى مجتمع يعلم عن خاصة شئونه ما لايحب أن يكشفه للناس ، وكان هذا المجتمع يعبر عن ذلك العـــلم بالاسلوب الذى يجرح كل حياء ، وكل آدمى ٠٠ على أن مرضه الخاص لم تحسم آثاره بالعملية ، ولم ينته حينما رزق بابنته بعد سبع سنوات من زوآجه فى سنة ١٧٧٨ ، ولا بابنه فى سنة ١٧٨١ .. فان الطامعين فى عرش فرنســـا بعد وفاته كانوا يعلقون أكبر الآمال على عقمه ، وانعدام الامل فى مجىء عقب له فلما رزق البنون والبنات ، صدمهم ذلك ، ولكنه لم يثن عزمهم ، فقد نسجوا عن مرضه قصصا ، وشائعات ، وجعلوا لها ذيولا واطرافا ، البسوا فيها الاميرة ثم الملكة ، اثوابا من

المجون والتمرد على الخلق ، قصدوا بها أن يعجلوا باقصائها وزوجها عن العرش، فلما كانت الثورة ، انفسح لهؤلاء الميدان ، وتعددت أسلحة الايذاء فى أيديهم

فخجل الملك ، كان أساسا من أسس الحياة السياسية فى فرنسا . وقد تذكر الملك فى العربة ، كيف ان زوجته الملكة لم تتردد فى أول خطاب كتباه معا لامها ، أى لحماته ، بعد ان ارتقيا العرش أن تضيف حاشية تقول فيها بصراحة :

« لم يرض الملك أن أبعث اليك برسالتى دون أن يخط لك فيها كلمة بنفسه ، وانى لموقنة أنه كان يحب أن يكتب اليك رسالة كاملة ، ولكنى أرجو أن يكون له بعض العذر نظرا لكثرة ما يقوم به من الاعمال ، فضلا عما فى طبيعته من الخجل الشديد »

وقال الملك لنفسه ، دون أن يظهر على وجهه شيء ، لقد اتهمت دائما بانى بطيء الحركة ، وبأنى لا أحسن التدبير ، وهاهى ذى الملكة قد دبرت وأحسنت التدبير فى هذه الرحلة ، فماذا جنينا من التدبير الحسن ، ومن خفة الحركة • وجعل الملك يحدث نفسه :

لقد كنت زاهدا فى الفرار ، مؤملا أن تتجه الامور اتجاها ينقذنا من الثورة ، أو يحسن علاقتى بها فيغنينا عن هذه المجازفة ، فأرونى مقالا كتبه « مارا » هذا المجنون الذى يعوى ككلب مسعور فى مجلته « صديق الشعب » يقول فيه : « ان الفكرة هى نقل الملك الى الاراضى الواطئة ، بحجة أن قضية

الملك ، هى قضية الملوك جميعا ٠٠ فهل أنتم بلهاء الى الحد الذى لا تعملون معه شيئا لمنع فرار الاسرة المالكة ؟ »

« أيها الباريسيون ، لقدبلغ بكم الغباء مبلغا أحوجنى أن أكرر عليكم المرة بعد المرة ، بأن الواجب يقضى بوضع الملكوولى العهد فى مكان أمين ، وبأن تودع المرأة النمساوية الحبس ، وشقيق زوجها ، وسائر الاسرة المالكة ٠ أننا ان تأخرنا يوما واحدا ، قد يجر هذا التأخر على الشعب الوبال ، وقد يدفع الى القبور بثلاثة ملايين فرنسى »

ولقد تكهرب الجو حينما نشر هذا المقال ، وصح فى رأى الملكة وصديقها فرسن، والجنرال بوايبه ، والدوق شوازل ، وغيرهم، وغيرهم من أصدقاء الملكية ، ان الهروب لا مفر منه ولا مندوحة عنه

حسنا ، لنتخذ للفرار عدته ، وأنا الرجل الثقيل البطىء ، مثلت دورى وأحسنت تمثيله ٠ ففى ليلة الفرار ، طالت زيارة « لافييت » حتى كاد صبرى ينفد ، أنا الذى لا أعرف القلق ، ولم يكد يخرج من قصر التويلرى ، حتى ذهبت الى مخدعى ، وكان على ان أخدع هذا الخادم الذى ينام وبيده حبل ، ينتهى طرفه عندى ، حتى اذا احتجت اليه ، لم أكلف نفسى مئونة النداء ، اذ حسبى جذبة رقيقة للحبل ، ليستيقظ ويسرع الى التلبية ٠٠ ولقد ظن الخادم ليلتها أنى استغرقت فى نوم عميق، بعد أن أسدل ستائر المخدع كعادته ، فخرج من الحجرةولم يكد يفعل ، حتى قفزت من الفراش ، فى قميص النوم ،حافى

القدمين، وذهبت الى سلالم كان ينتظرنى عندها ضابط بملابس الخدم التى لا ازال ارتديها .. وفى طرقى الى الخـارج مارا بالحديقة ،التقيت بجندى من الحرس ، فتظاهرت بان رباط جوربى قد حل ، فانحنيت أعيده الى مكانه ، حتى لايقع نظر الحارس على وجهى .. لقد أحسنت دورى .

لوح الملك بيده فى الهواء ،وهو يحدث نفسه .. ولـكن ماذا كانت النتيجة ؟ لقد قبض علينا الشـعب ، وأنا الآن فى طريقى الى العاصمة التى عرفت أجدادى ، كما يعرف الناس الآلهة ، أعود اليها فى ثياب خادم .. لم أغيرها منذ ثلاثةأيام .. فلما اتسخت لم أجد ما أغيرهابه ،غيرقميص اقترضته من جندى .. حقا اننى لا أحسن التدبير ، وغيرى يحسـنه .. وحقا اننى بطىء الحركة وغيرى سريع

« لقد تساوت النتائج .. » !



الفصل الثالث

كانت هى أكثر ركاب العربة سخطا ، وأشدهم تبرما بالمصير الذى انتهوا اليه : شقيقة الملك « مدام اليزابث »

كانت ترى أن شقيقها ، وزوجته الملكة ، مهما أصابهما من هوان ، ومهما حل بساحتهما من متاعب ، فهما بهذا يدفعان ثمن مافعلاه ، أما هى فتساق الى مثل مصيرهما ، بغير جريرة ارتكبتها ، الا انها شقيقة هذا الرجل الضخم ، الذى تزوج هذه الصغيرة التى تطفر الحياة من كل جارحة فيها .. ولما ذكرت ماكانت فيه من نعيم وسعادة وخلو بال ، وما انتهت اليه من هوان وتحقير ، ومستقبل غير معلوم ، اشتدت فى لوم اخيها ، وودت لو استطاعت أن تقوم فتصفعه أو تركله ، ولما نظرت اليه نظرات تتطاير شررا ، ورأته ككومة من اللحم ، راته هادئا كأنه عائد من رحلة صيد وقنص ، هدات بدورها ، لانها أحست كأن أخاها يتحدى ثورتها برباطة جأش ، أو على الاصح بعدم اكتراث .. وفضلت ان تسترسل فى خواطرها ، لتحصى كم استسلم الملك للثورة ، وهو يحسب أنه قادر على ان يعقد معها صلحا ، أو ان يهادنها . فذهب جهده عبثا ، ومضت الثورة تجتاح كل يوم قاعدة من قواعد الحياة المقدسة قبل قيامها

فانه ماكاد يرقى العرش ، حتى عين «ترجو» وزيرا للمالية ، و « ترجو » هو صديق فولتير ، الذى نفخ فى نيران الغضب

على الملوك ، وبشر بالثورة ضدهم . وكان عمل « ترجو » هو فرض التضييق والتقشف على الحكومة والنبلاء ، بدعوى ان فى الميزانية عجزا بلغ ٢٢ مليونامن الجنيهات ، فلما ضاق النبلاء والاشراف وكبار رجال الدين بهذه السياسة الصارمة التى تحد من بذخهم واسرافهم ، تململوا من « ترجو » فأبى الملك الا استمساكا به ، فاضطروا الى أن يزوروا خطابا نسبوه الى « ترجو » يتضمن طعنا فى الملك ، فأقصاه ليحل محله وزير لا يقل عنه صلابة ، أو ميلا الى الادخار والاقتصاد هو «نكر » فابتدع فى شئون مالية الدولة أمورا لم تكن معروفة من قبل ، اذ نشر ميزانية الدولة ، فأتاح بذلك للعامة الذين لم يكونوا يجرءون على التفكير فى غير جيوبهم ، أن يتحدثوا فيما يحويه جيب الدولة من مال ، وأن يعرفوا مصادره وموارده ،وأن يدعوا لانفسهم الحق فى أن يقولوا هذا كثير وهذا قليل ... وليس هذا سوى بداية المتاعب والمصاعب

وفعل « نكر » شيئا لايقل عن ذلك نكرا ، فقد زعم انه لن يجبى ضريبة جديدة ، الا اذاوافق عليهـــا الاهالى .. أو الشعب

الاهالى أو الشعب .. من أين جاءت هذه الاسماء الجديدة ! وماذا تعنى ؟ انه والله وباء .لن ينقذ البشر منـه ، الا أن يتطهروا ويتوبوا الى الله من هذا الشرك الذى اذاعه ، وزينه للناس ، معتوهون من امثال « روسو » ، والعجيب ان كلا من الوزير « نكر » ، والكاتب « روسو » سويسرى الموطن ، فكان

أحد السويسريين أتم مابدأه السويسرى الآخر

ولكن « نكر » لم ينجح ، فقد أكلت حروب استقلال الولايات المتحدة ، التى اشتركت فيها فرنسا ، ماظن انه جمعه ودبره بسخفه ، وضيق فهمه ، فكان الامل ألا يعود الى منصبه كوزير للمالية .. ولكن لم تكن هناك فائدة من تركه منصب وزير المالية أو عودته اليه ، فقد انطلق الجان من القمقم ، فلم يعد ممكنا اعادته اليه . لقد نشر «نكر» ميزانية الدولة على العامة ، فاعتبروها ميزانيتهم الخاصة ، ثم قال قولته النكراء : ان الضرائب لا تجبى الا اذا وافق عليها الشعب ،فأدى ذلك الى أن تعقد الجمعية العمومية ، التى لم تكن تدعى للانعقاد منذ سنة ١٦١٤ أى منذ أكثر من مائة وخمس وسبعين من السنين !

لقد بعث الموتى من مراقدهم

ودعيت الامة الى انتخابات ، وفى يوم ٥ من مايو سنة ١٧٨٩ عقدت الجمعية العمومية ، فجلس الاشراف فى يسارها ووسطها ورجال الدين فى يمينها ، وجلس ممثلو الطبقة الثالثة فى المقاعد الخلفية فى مواجهة الملك

ولما وصلت مدام اليزابث الى هذا الحد من تصوراتها وخواطرها ، أحست بضيق شديد ، والتمست هواء جديدا ، يخفف عنها مااجتمع فوق صدرها من ضيق فادح ، وفهم السيد بثيون ، ممثل الجمعية الوطنية ، ماذا تطلب فمد يده الى مفتاح النافذة ليفتحها لها ، ومدت يدها هى ايضا ، لتقوم بذلك لنفسها ، فتلاقت عيناها بعينيه ، ثم تلامست يدها ويده

.. فأى اكتشاف هائل اكتشفته ! .. ان الرجل الذى لم تتبين حتى هذه اللحظة ملامحه ، تحاشى أن يلمس يدها ، لا عن زهد ، وانما عن ...

عن ماذا ؟ انها لاتدرى ، ولاتحب أن تدرى . فانها ان فكرت فى هذا الذى حدث ، وجب ان تقول لنفسها أمورا لاتحب ان تقولها . فان اليد التى امتدت نحو مفتاح النافذة كانت يدا شابة ، مضطربة بانفعال ما .. هل يكون المواطن بثيون ، اختلس النظر اليها ؟ وهل تكون راقته ؟ وهل يكون هذا التلاصق الحميم ، طوال هذه الساعات الثقيلة ، قد نقل منها اليه كهرباء سرت فيه دون ان يحس هو ، ودون ان تقصد هى ؟

وودت شقيقة الملك أن تسترسل فى هذه الخواطر ، فهى أمتع وأدعى الى الراحة ، من تتبع تاريخ أخيها من الثورة .. ولكن ماكان يحدث خارج العربة ، كان لايأذن لها بأن تسلم نفسها لخواطر مبهجة

فلقد كان التراب منعقدا فى الخارج من فعل تزاحم اهل القرى حول العربة ، وتدافعهم نحوها ، ليظفر كل منهم بنظرة من الملك والملكة ، والملكة خصوصا ، وليقول كل منهم كلمة جارحة ، أو نكتة قاسية ، أويحدث أصواتا بطريقة تضحك زملاءه . وقد كسا هذا التراب الكثيف وجوه ركاب العربة وتعلق بأهداب اعينهم ، وشعورهم ، فكأن احدا قد سكب فوقهم كيسا من الدقيق . ولما اشتد صياح الناس فى الخارج ، وزادت قوة العبارات التى كان ركاب العربة يتلقونها ، ارادوا

ان يسدلوا الستائر السوداء ، فدقت الجماهير على الواح الزجاج بأيديها دقا شديدا لترفع الستائر ، وليبقى الفارون تحت أنظار شعب فرنسا ، ولينالوا جزاء تفكيرهم فى الفرار

ولما جاء الطعام ، ظنوا انهم قادرون على أن يتناولوه بعيدا عن هذه الانظار ، وأن من حقهم أن يسدلوا الستائر ، ولكن الجماهير عادت تدق الزجاج ، فأرادت شقيقة الملك أن تستجيب لهذا الدق العنيف ، الا أن الملكة رفضت وقالت : « يجب ان نلتزم مسلكا لائقا حتى النهاية » فلما فرغت وفرغ اهلوها من طعامهم ، فتحوا النافذة ، ورفعوا الستائر ، وألقوا بعظام الدجاج المحمر الذى كان قد أعده لهم الكونت أليكس فرسن

ولما اشتد الحر ، تمنى الملك أن يعطى قطعة من الاسفنج يرطب بها وجهه ، وسمع أحد الافراد المتزاحمين حول العربة هذا الطلب ، فضحك ساخرا ، وقال للملك : « هذا ماجنيته من فرارك من بلادك »

ولما وقفت العربة بعض الوقت ، وخرج ركابها ليمدوا سيقانهم التى تصلبت وعادت الملكة الى مكانها فى العربة، اقتربت قروية من الملكة ، وقالت فى نبوءة قاسية : « أيتها الصغيرة! انك تصعدين الآن سلم العربة ، وغدا تصعدين سلما آخر »

هذا ماكان يجرى خارج العربة ، ففتح النوافذ ، لايأتى منه الا التراب ، وكلام اشد ايلاما من الحجارة ، ولكن مدام اليزابث احست بان انفاسها تكاد تختنق من عنف الحر ، وضيق المكان ، فجازفت وفتحت النافذة ، فتلامست اليدان ، ثم تلاقت

العينان ، فأحست بحاجتها الى ان تفر الى خواطرها الاولى ، وأن تتتبع فى جلستها تاريخ اخيها مع الثورة

لقد قبل الملك ان تبعث من القبر الجمعية الوطنية ، بعد ان رقدت فيه نحو قرنين من الزمان ، وقبل ان تجرى الانتخابات لهذه الجمعية ، فكأنما القى حطبا فى نار هـذا الجنون الذى يسمونه الثورة . ففى هـذه الانتخابات تطايرت شعارات جديدة ، كما تتطاير القذائف الملتهبة فى الافق ، وبفضل المزايدة التى خاضها المرشحون ، أصبح الناس لا يسمعون الا افكارا متطرفة ، لم يسمعوا بها من قبل ، فأصبحت كلمة الدستور هى مفتاح كل خطبة ، والحجر الاساسى لكل اجتماع ، ومدار المنافسة فى كل حلبة سياسية .. الدستور ! الدستور ! الدستور !

وفهم الفلاحون فى الحقول ، والرعاة فى المراعى ، والصناع فى المعاصر والمغازل ، والعاطلون وأشباههم فى أزقة باريس وضواحيها ، أن الدستور هو قانون كبير هائل ، أقوى من الملك ذاته ، تصدره سلطة مجهولة ، ليقيد الملك والاشراف والنبلاء والحاكمين ، بقيود لاتحطمها الوحوش الكواسر .. فمثلا ينص هذا الدستور على الا تضاف على عاتق الشعب ضريبة جديدة الا اذا حقق مع الحكومة ، وثبت انها فى حاجة الى مورد مالى جديد . وينص كذلك على سيادة الامة ، فهى اعلى من حق الملك الالهى ، كما ينص على مسئولية الوزراء أمام الشعب وممثليه ، الذين يحاكمون الوزراء ويسالونهم عن أموال الدولة

كيف انفقوها ، ومصالحها كيف أداروها ؟ فان لم تكن اجابة الوزراء معقولة ومقنعة ، عزلوا من مناصبهم وعادوا الى بيوتهم

ويتفرع عن هذا كله ان الناس جميعا متساوون أمام القانون ، فيدفعون جميعا الضرائب بقدر طاقتهم ، ويقفون جميعا أمام المحاكم بسبب جرائمهم ، ويتمتعون بصوت واحد فى الانتخابات

نظرت مدام اليزابث الى شقيقها وهو اشعث أغبر ، وقد احمرت عيناه من طول السهر ، وشدة التعب . وعجبت لنفسها كيف قبل كل هذا . وذكرت كيف ذهب الملك الى الجمعية العمومية يوم افتتاحها فى الخامس من مايو سنة ١٧٨٩ ، وكيف سحب وراءه الامراء والنبلاء ، فى أبهة ثيابهم ، مزينة صدورهم وقد لمعت الاوسمة فوقها ، والسيوف الى سيقانهم

قبل الملك كل هذا ، فاستحق ان يدفع الثمن ، فان ذلك كان ينذر من بدايته بالشر ، فقد كان رجال الطبقة الثالثة يستحون أن يضعوا قبعاتهم على رءوسهم فى محضر الملك ، ولكنهم فى هذا اليوم ، فعلوا كما فعل الاشراف ورجال الدين بعد ان حيوا الملك وقوفا ، فقد أعادوا القبعات الى الرءوس .. فيالله هول !

وقالت مدام اليزابث وهى تحدث نفسها :

« وياليت أخى قنع بهذا ، فانه قال يومها كلاما لامعنى له الا ان يكون اخى هذا قد اخذ على عاتقه ان يهيج هذه الثورة ، وان يدفعها الى الامام ، او ان يدخل مع نواب الطبقة الثالثة فى

منافسة وسباق ، فانه قال فى خطبته لتلك الجمعية المشئومة :

« هاقد حل ذلك اليوم الذى طال شوقى لحلوله ، وهاأنذا أرى حولى نواب تلك الامة التى أرى من مجدى أن اكون حاكما عليها . لقد طال العهد بآخر مرة انعقدت فيها هذه الجمعية ، حتى لقد وقع الاعتقاد أنها لن تلتقى ، ولكنى لم أتردد لحظة واحدة فى العودة الى عرف قد تستمد الدولة منه قوة جديدة ، ويتحقق به للشعب عنصر جديد من عناصر السيادة ، وانه مامن مقصد نبيل يرجى منه الخير للمصلحة العامة ، ومامن واجب يقع على عاتق ملك بوصف كونه الصديق الاول لشعبه ، الا ولكم ان تطمعوا فيه عندى . وان الامل الذى يملأ قلبى والامنية الحارة التى تملك على نفسى هى أن أرى هذا المجلس وقد ساد فيه التفاهم والوفاق ، وأن أرى هذا الاجتماع فاتحة عصر رخاء وسعادة لهذه البلاد . ان هذا ليكونن لى من الله خير جزاء على كرم مقاصدى وصدق محبتى لشعبى »

ومن يسمع هذا الكلام من الملك ولا يطمع فى المزيد ؟وقد كان . فقد رفض ممثلو الشعب أن يجلسوا وحدهم ، كما كانت العادة ، على ان يجلس الاشراف فى مكان مخصص لهم ، ورجال الدين فى مكان ثالث ، حتى تعرض على الطوائف الثلاث القوانين ، فان أقرتها طائفتان نفذت . رفض الشعب الجديد ، بعد أن سمع كلام الملك ، الا أن تحسب الاصوات بعدد الافراد ، لا بعدد الطوائف ، وقالوا اننا نمثل اكثر من ٩٦ فى المائة من الشعب ، فكيف يكون لنا ثلث الاصوات ، بل كيف لايكون لنا

صوت مطلقا ، فالاشراف ورجال الكنيسة دائما فى جانب واحد ، ونحن فى جانب ، وذلك لانهم أصحاب الضياع والاملاك ، والمتمعون بالامتيازات ، ومنهم يختار الوزراء والسفراء ، ورؤساء المصالح

أما نحن فدافعو الضرائب وأهل السخرة ... أطال هؤلاء النواب الذين هبطوا على البلاد كما يهبط الجراد ، السنتهم على الاشراف والنبلاء والكرادلة وكبار الاحبار ..

ولكن ماذا نقول وأخى الطيب يريد ان يلاعب الاسد فى القفص وان يخدعه ، فماذا حدث ؟

حدث أن ممثلى الطبقة الثالثة قالوا أنهم النواب ، واجتمعوا وحدهم ، وألفوا منهم لجانا لتنظر فى تموين البلاد ، لتحميها من المجاعة التى زعموها ، وقالوا ان الضرائب المفروضة على الشعب باطلة ، ولكنهم لا ينصحون الناس بالامتناع عن دفعها مادامت الجمعية - أى جمعيتهم - منعقدة

كان يجب على أخى ان يضرب الشر فى بدايته . كان يجب عليه أن يعتبر اجتماع الجمعية العمومية المكونة من الطبقة الثالثة وحدها ، باطلا ، وان يأمر فصيلة من فصائل الجيش لتقذف بهذه الحثالة من مكان الاجتماع الى الخارج ، بالتلويح بالهراوات ، فان لم تجد معهم الهراوات فبكعوب البنادق ، والا فقذيفة واحدة فى الهواء ، يهرول بعدها هؤلاء الى بيوتهم .

ولقد قال له ذلك الامراء ، وقلناه له ، فماذا فعل ؟ لقد نصح الاشراف ورجال الكنيسة ان ينضموا الى ابناء الشعب لا لشىء

الا لان هؤلاء النواب اجتمعوا فى كنيسة سان بنى ، فلما ذهب كبير الامناء موفدا من الملك ، وطلب اليهم أن ينفضوا ، تصدى ميرابو له ، وقال له فى وقاحة : « يا هذا ! اذهب الى سيدك وقل له اننا هنا بأمر الشعب ، ولن نبرح مكاننا الا مسوقين بأسنة الحراب » . فلما قالوا للملك ذلك ، قال فى طيبة تنضح بلاهة : « اذا كانوا لايريدون مغادرة المكان فدعوهم وشأنهم »

فلما آنس رجال الكنيسة فى الملك ضعفا ، وفى ممثلى الطبقة العاملة قوة ، انضموا الى صف القوى ، وتركوا جانب الضعيف ، شأن البشر فى كل حين وآن ، ومالبث بعض الاشراف أن تبعوا رجال الكنيسة ، فلما رأى دوق لوكسمبرج أن الملكية تنهار ، أسرع الى الملك قائلا :

« اننا مستعدون لان نفدى الملك بأرواحنا .. » .. فما كان من أخى الا أن قال : « انى لا أريد أن يموت أحد من أجلى »..

حسنا ! فما بالنا نشكو الان ، والشعب الكريم يحصبنا بهذا السيل الذى لا ينقطع من الشتائم . لو أننا احسنا تأديبه لما فعل مافعل ، ولما لبس أخى ثوب خادم ، ولما لبست الملكة ثوب وصيفة ، ولما حبسنا فى هذه العربة هذه الساعات التى لاتنتهى

وفى هذه اللحظة دلفت العربة الى قرية من القرى ، فاقترب عمدة القرية ، وهو يخب فى ثوب ريفى ، تتطاير منه رائحة العرق ، ونظر الى الملك ، كما ينظر المدرس الى تلميذ لم يؤد واجبه وقال :

« هكذا فعلت ؟ أيجوز لملك البلاد ان يفر » وفى مثل هـذه الثياب ، والى أين تلجأ ؟ الى أعداء البلاد ، ومع من تدبر هذا ؟ مع الجنرال بوابيه ، لان كل جنوده من المرتزقة الالمان ، اى من غير اهل البلاد ؟ »

ولدهشة مدام اليزابث سمعت الملك يدفع عن نفسه التهمة فى بلاهة ، ويؤكد انه لم يكن يبغى الفرار وانما كان يود أن يبعد عن باريس بضعة أيام ، مؤملا ان ذلك يهـدىء ثائرة النفوس

احست الاميرة أن اخاها جدير بكل شفقة ، فلما استأنفت العربة سيرها ، رأت ان خواطرها اخذت لونا جديدا .. فقد التمست للملك المعاذير ، وقالت لنفسها ، ان سياسته لم تكن ضعفا كلها ، فقد أمر « نـكر » وزير المالية الذى كان يمثل الثورة ، وهو يتناول طعامه ، بأن يبارح البلاد منفيا ، فامتثل « نكر » وخرج فى التو بلا مقاومة

ولكن هذا الامر كان بمثابة المنديل الاحمر فى وجه الثور الهائج ، فقد قر قرار زعماء الشعب على أن يتسلحوا ، بعد أن أيقنوا ان المذابح تنتظرهم ، فخرجت جمـوعهم ، تحمل تماثيل نصفية « لنكر » ، فلقيهم الجنود الالمان ، واثخنوهم جراحا ، وفرقوا جموعهم ، فجبنت الجمعية الوطنية ، وارسلت الى الملك ترجوه ان يأمر بسحب الجنود من باريس ، ورفض الملك ... فاسرعت الجموع الى مبنى الانفاليد ، واخذوا ماطالته ايديهم من سلاح ، حتى بلغ عدة ذلك ثمـانية وعشرين الف

بندقية ، واسرعوا الى سجن الباستيل الذى قيل لهم ان مدافعه ستسلط على العاصمة ، لتمزق الثائرين ، وتدفقت الجموع حتى استطاعت ان تحطم السلاسل التى كانت ترفع الكبارى والجسور المؤدية الى السجن ، وسقط السجن فى ايدى الثوار ، فأعملوا التذبيح والقتل فى قائده ، وضباطه وجنود حاميته

كان ذلك غاية الجنون ، كان على أخى الذى نفى « نكر » ، والذى قمع المظاهرات أول الامر ، ورفض أن يسحب الجنود من باريس ، الا تخيفه هذه الموقعة الصغيرة ، ولكنه ماكاد يسمع أن مدافع الباستيل قتلت بضع عشرات من هؤلاء الرعاع ، حتى عاوده هذا الخوف الذى يسمونه طيبة ، فارسل من يعلن جمعية المجرمين ، التى كانت تسمى نفسها الجمعية الوطنية ،بأنه قادم ليطمئنها على حسن نواياه .. بهذه المواقف الضعيفة كانت الملكية تخسر ،وبهذه الملاطفات ، انتهينا الى ان نشتم ويبصق فى وجوهنا ، ويقال عنا اننا مجرمون ، ويطلب منا الا نسدل الستائر على العربة ، حتى يتمتع الشعب الذى تمثله الجمعية الوطنية بالنظر الينا كما ينظـــر الى القردة والنسانيس

وتواصى نواب تلك الجمعية الا يقابلوا الملك عند قدومه الا بالصمت ، كأنما الجم السنتهم الحزن على الذين ماتوا فى وقعة الباستيل .. وفعلا دخل اخى قاعة الجمعية وحيدا لايحيط به حراس ولا امناء ولا امراء ، فواجهه صمت كصمت القبور .

وفى وسط هذا الصمت القابض للصدور ، اعلن هزيمته ، اذ قال انه أمر بسحب الجنود من باريس ، الامر الذى كانت الجمعية قد طلبته وكان هو قد رفضه .. وتبرع بشىء آخر لم يطلبه أحد ، ذلك هو اعادة « نكر » الذى لم يكن قد انقضى على الامر بنفيه الا أيام لم تكتمل اسبوعا ، وخرج الملك سعيدا ، فقد كافأته الجمعية الوطنية على ذلك بتصفيق حاد وهتاف طويل .. لا ، لا ، لقد كافأته بشىء آخر ، فقد كان علم الثورة مكونا من لونين ، الاخضر والاحمر ، وهما لونا شعار باريس ، فأضافوا اليهما لون الملكية وهو الابيض ، فتآخت الثورة والملكية ، واجتمعتا معا فى رقعة العلم .. كما تجتمع فى هذه العربة الضيقة

ونظرت الاميرة شقيقة الملك الى الثائر الذى يلاصقها فى العربة . فرأت جانب وجهه ، فراعها منه انه يكشف عن جده وصلابته ، والايحاء الى نفس الناظر اليه بالاحترام ، ونظرت الى من حولها ، فألفت الجميع قد هدهم التعب ، فلم يعد احدهم ينظر الى شىء أو الى أحد ، فالأعين باتت مغمضة أو على الاقل نصف مغمضة ، وألف سكان هذا السجن الصغير المتحرك بسجنائه وسجانيه ، مايجرى خارجه من صياح وتلويح بالايدى ، وتهديد بالقبضات وفروع الاشجار ، ومن نكات لاذعة ، وتحديق شديد مبعثه فضول أشد . فلم يعودوا ينظرون الى مايقع خارج العربة ولايتأثرون به ، وكأنه موجه الى غيرهم . لهذا كله استطاعت الاميرة اخت الملك ان تنظر

الى جارها ، الذى تلامست يدها ويده ، فلم تر شيئا مما وهمته على وجهه ، فوجهه الى الامام ، وجانب شفتيه يدل على انه يحاول أن يخفى تعبه من هذه الجلسة ، وأن يبدو كما يبدو الجندى الذى يود لو استلقى على فراش وراح فى سبات عميق ، ومع ذلك يبقى شاكى السلاح ، رافع الراس .. ومن ثم فقد آثرت أن تستريح من هذا كله وأن تغمض عينيها ، وأن تلقى براسها الى الخلف ، ومدت ذراعها لتريح رأسها عليها ، واخذت ابنة أخيها فوق صدرها ، وتمنت على الله ان تنام

ولم تدر اذا كانت قد نامت أو لم تنم ، ولكنها بعد قليل فتحت عينيها فرأت ان وضعها قد تغير ، اذ رأت راسها فوق كتف جارها ، وأن ذراعا قد اقتربت من ذراعها ، حتى كأنهما قد تشابكتا ، وأن ابنة أخيها لم تبق فى مكانها الاول ، فقد هبطت بفعل الحركة المستمرة فى العربة حتى أصبحت دون حجرها ، وامتدت احدى ساقيها الى حجر الجار :

ذراع من هذه التى اقتربت من ذراعها ؟ .. هل تستطيع ان تصدق ؟!

انها ذراع السيد بثيون نفسه .. لقد حاول أن ينام كما حاولت ، فلم يكن بد من أن يتم هذا التشابك .. والفتاة الصغيرة نامت فعلا ، فلم تجد بدا بدورها من ان تتخذ من السيقان المتجاورة مخدعا ، فكان ذلك اتم اختلاط وتلاصق بين الميدانين المتقاتلين ، وبين الكتلتين المتعاديتين .. لقد نامت ابنة الملك على فراش من سيقان الملكية والجمهورية . على

ان ذلك لم يكن سوى البداية ، فان الليل اقبل ، وطلع القمر ، وكسا الدنيا بحلة من ضوئه البلورى ، فاصبح ركاب العربة اميل الى الشاعرية ، وادنى الى عالم الاحلام

وقد كان ، فان السيد بثيون احس ان تشابك الذراعين لم يتم عفوا ، وقال لنفسه مبررا : « ان نظرات الاميرة اليه كانت نظرات الحزن والارهاق ، ولكنها تلاقت بنظراته كثيرا ، حتى استحالت الى نظرات تقارب وجاذبية .. أما ذراعه فقد كشفت ما عجزت الاعين عن الافضاء به ، والافصاح عنه . لقد قال فيما بعد ، وفى مذكراته التى حفظها التاريخ عنه ، انه شعر بحركات جسمها ، واحس بالحرارة التى يشعها هذا الجسم من خلال ثيابها . ولقد بدا له أنها استرخت ، وان عينيها لمعتا من خلال الدموع ، واختلطت كآبتها التى كانت تشملها بلون من الاشتهاء »

وقد امتلأت نفس السيد بهذا الاحساس حتى لم يعد يقوى على كبح جماح الاستمتاع بالتفكير فيه ، واستنتاج النتائج منه ، فقال يحدث نفسه :

« من يدرى ؟ فربما أكون مخطئا ، فان من العسير التمييز بين نظرات الاستمتاع ونظرات الاسى »

ولعله اراد ان يقول ان تعبير عينى المرأة المحرومة ، او التى تحركت عواطفها بلا امل ، يشبه تماما تعبير عينى المرأة الحزينة ، والتى تجتاحها التعاسة . فالامر فى الحالين ليس سوى شعور بالتعاسة وبالحرمان

ولكن لم يرض السيد بثيون لكبريائه الانتهاء الى هذه النتيجة ، فان الرضا بها معناه انه لم يقم بغزوة ناجحة ، وهو يعتقد انه غزا هذه الاميرة ، وراقها وأثار عواطفها ، فقال لنفسه فى حزم وبلا تردد :

« انا اعتقد انه اذا خلا المكان لنا ممن حولنا ، او تبخر هؤلاء بنوع من السحر ، فانها لم تكن لتتردد فى أن تنزلق بين ذراعى ، وأن تسلم نفسها لما تأمر به الطبيعة »

وبعد ان انتهى الى هذه النتيجة ، أحس بالرضا عن نفسه ، وأحس بالرضا عن المهمة التى ندب لها ، وأهم من هذا كله ، أحس بالرضا عن هؤلاء الذين القاهم القدر معه فى هذه العربة

فلقد اذاب التعب والعرق والاحساس بالالم ، كل ماكان على وجوه أفراد العائلة المالكة من مساحيق وألوان ، تظهرهم فى اثواب الاقوياء أو الاذكياء او القادرين .. لقد كانوا آدميين .

ولكن بثيون لم ينس ابدا ان الاميرة ، وان كانت بالنسبة له مجرد امراة ، منذ قرأ فى عينيها التعلق به ، والرغبة فى الاستسلام له ، الا انها امراة من نوع خاص ، نوع درس من الحياة مالم تدرسه كل النساء ، فقد تلقته الايدى منذ ان فتح عينيه ، لتدربه على فنون وأساليب لتحيل فراغ الحياة الطويل الى متع ولذائذ ومشهيات .. هذا النوع من النساء يشم رائحة الرجل الحقيقى ، لكثرة ماعرف من الرجال الزائفين الذين تصنعهم المساحيق والادوية ، والمناصب والالقاب

فغزوته اذن شيء ذو بال ، لم يتم صدفة ، ولم يقع عفوا

ونظر بثيون الى الطفلين بعد أن ناما قليلا ، واستعادا نشاطهما ، فوجدهما يلعبان سويا بغير كلفة وفي نشاط بعث في قلبه السرور بهما . الى أن حدث ماانكسر له نهائيا الحاجز الزجاجي الذي كان قائما بين الفريقين . فقد قفز الغلام ، قفز ولي العهد ، الى ناحية المسيو برناف ، بعد ان نظر طويلا الى الشارة النحاسية التي كانت في عروة سترته ، ومد يده الصغيرة الى هذه الشارة ، وأخذ يحاول قراءتها متعثرا ، حتى نجح أخيرا في ان يقرأ بصوت مسموع :

« عش حرا أو مت ! »

واتجه الطفل الى أمه ، وقال مكررا :

« عش حرا أو مت ! »

ثم أردف : مامعنى هذا ياأماه ؟

ونظر كل من برناف وبثيون الى الملكة ، وانتظرا جوابها ، فلم تقطب جبينها ، ولم تشح بوجهها عنه ، بل قالت وعلى شفتيها ابتسامة أموية ، مشيرة الى السيد برناف : سل السيد !

كانت العبارة قصيرة غاية القصر ، لم تزد عن كلمتين ، ولكنها رنت في آذان الجميع ، رنينا قويا ، وحركت في النفوس كلها فضولا ، كأنما هي خطبة سياسية طويلة ، أو بيان ذو خطر من شخصية ذات خطر ، في موقف ذي خطر

« سل السيد ! »

ان الملكية كلها ممثلة فى أعلى قممها ، تحيل سؤالا فى صميم السياسة الى الثورة ، وفى رشاقة وبساطة ، وبلا كلفة ، كأنما الامر طبيعى لاغرابة فيه

وتحفز السيد « بثيون » لهذه المفاجأة ، أى لما سيأتى بعدها ، فقد أخذ على عاتقه منذ جلس فى العربة ، ان يعطى دروسا للملك ، لاتخلو من آشارات صريحة أوغامضة ، يقصد بها الملكة ، وكانت هذه الدروس تأنيبا على مافرط من الملك والذين حوله من اخطاء وعلى تفكيره فى الهروب ، وكان الملك يستمع فى صبر ، ويقول بين الحين والحين ، كلمة او كلمتين يدفع بهما عن نفسه التهم ، ويلتمس لها المعاذير : أو يوضح ما أحاط به من ظروف يجهلها الشعب وتجهلها الجمعية الوطنية ، وكان بثيون يسمع الردود ، وهو لايكاد يعيها ، وينظر الى الملكة ، فاذا هى صامتة ، ليس على وجهها مايستثير أو مايعدتحديا ، ولكن ليس عليه أيضا ما يدل على انها أخذت شيئا من هذا الكلام مأخذ الجد ، او انها اعارته شيئا من عنايتها ، فهى تسمعه لانها مضطرة ان تسمعه ، ولان الادب يقتضيها ان تسمع ، ولان الدخول فى مناقشته لجاجة لانفع فيها ، ولاجدوى منها

اما الآن فقد تغيرت العلاقات بين ركاب العربة كل التغير . فبثيون خفت حدة عداوته الشخصية لهؤلاء ، بعد أن سقط عن وجوههم قناع السلطان والنفوذ والقوة ، وبعد ان بدوا له أناسا يكادون يكونون بلا حول ولاقوة ،وبثيون أحس انه اقترب

من هذه الجماعة خطوات ، بعدما كان بينه وبين شقيقة الملك من صمت ، وأخيرا بعد أن قفز ولى العهد وملك فرنسا فى المستقبل الى « برناف » وسأل عن هذه الشارة ، ولمسها بيده ، تماما كما يفعل الطفل الذى لايميز بين جذوة نار ، وفاكهة حمراء

فليتول اذن القاء درس ينفع الطفل ، وينفع البلاد فى هذه المناسبة التى عرضت نفسها بنفسها ، والتى لم يسع اليها احد ... وبدأ بثيون الدرس فقال :

« ان هذا شعار من شعارات الثورة »

وابتسمت الملكة .. !



الفصل الرابع

ابتسمت الملكة ، وقالت :

« اذا لم أكن مخطئة فهو شعار قديم ، أقدم من الثورة بكثير .. »

قال بثيون :

« أن الثورة هى التى صاغته ، وأعلنته ، واصبح عنوانا لمبادئها ، فالحرية .. »

فقاطعته الملكة برفق شديد ، وهى تميل برأسها قليلا الى الامام ، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة خفيفة ، تحاول أن تخفيها :

« لقد سمعت هذه العبارة ، ليس بنصها ، ولكن بمعناها ، أو لعلى قرأتها على درع أحد أمراء التيرول .. انه شعار اسرة نبيلة قديمة ، وقد تكون مثلا « الحرية أو الموت »

أما « برناف » المحامى الشاب الذى لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، والذى كان فصيحا ، لبقا ، محدثا أخاذا ، فقد طاب له كثيرا جدا أن تدور هذه المناقشة التى لم يتوقعها أحد داخل هذه العربة ، لا ليقنع ، وانما ليكشف الحجب التى تخفى نفس هذه المراة الصغيرة ، التى كان يؤمن كل من فى فرنسا ، بانها « الرجل الوحيد » فى البلاط ، كما قال عنها ميرابو ، أو

العقل الوحيد فى جماعة البلهاء والمعتوهين ، كما تبين بنفسه

قال بثيون وقد بدا عليه شيء قليل من الارتباك :

« حسنا ! لايهم اذا كان ذلك شعارا قديما ، أومبدأصاغته الثورة ، وانما الذى لايجادل فيه أحد أنه كان كلاما بلا معنى فى الماضى ، مجرد حلية توضع فوق الدروع ، وعلى مداخل القصور ، وتنقش على الاوانى، ولكن لاتلهم أحداً بشيء ..»

فقالت الملكة :

« أولدت الحرية مع الثورة ؟ »

فلوح بثيون بيده ، وكأنما ضاق صدره بهذا الاسلوب من النقاش ، وقال :

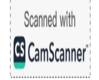
« اننا لم نعرف الحرية قبل الثورة .. اننا لم ننتزعها بعد .. »

فقالت : «أكان أجدادنا منذ مئات السنين لايعرفون قدرها ؟ أكانوا عاجزين عن أن يقولوا فى ايمان وفهم عش حرا او مت ؟ »

فاضطر بثيون أن يقول :

« حاشاى أن أقول ذلك .. أن الاجيال المتعاقبة فى فرنسا عاشت فى شرف ، وعملت لتحمى هذا الشرف ماوسعها .. لقد ماتوا فى ميادين كثيرة ، داخل حدودهم وخارجها ، وآخر كلمة على شفاههم اسم بلدهم .. ان شعور شعبنا بالحرية قديم وأصيل »

فقالت : « لقد اتفقنا .. ولكن ماذا يمكنك ان تشرح لابنى فى هذا الشعار ، فالحق اننى لا أحب ان أشرحه له »



فقال برناف : « ولم لا .. نحن نحب أن نسمع شرحا له منك ، مادمت تؤمنين به »

فقالت : « حينما يوجد زعيمان من زعماء الجمعية الوطنية ، لا يليق بى أن أتناول موضوعا كهذا .. أنا نفسى اريد أن اسمع »

فقال برناف : « احقا تريدين ان تسمعى ؟ »

فقالت على الفور : « ولم لا .. ان الاحمق وحـده الذى يسد أذنيه عن كلام لا يدريه ، أو عن حقائق لا يعلمها ، فان كان فى نية السيد أن يتفضل علينا بحديث ، فان امتناننا له سيكون أكبر من أن نشكره بكلام »

وأدار برناف الفكرة فى رأسه فوجدها جديرة بالتأمل ، ماذا لو لقن هؤلاء مبادىء الثورة ، وشرحها لهم ، وبصرهم بعواقب مسلكهم ، الا يؤدى هذا الى توفير جهد ووقت وارواح ، ان هذه الجماعة ليست من التحجر والتجرد من المشاعر والخصائص الانسانية كما كان يظن . فهل يكون ما وصلوا اليه من معاداة للشعب ، وتحد لمصالحه ، واهدار لحقوقه ، من سوء التربية . اى انهم لم يجدوا من يفتح اعينهم على التطور الذى أصاب الشعب ، وعن استنفاد الملكية لاغراضها .
ونظر برناف الى مارى انطوانيت فرأى فى تالق عينيها ، وفى اقبالها عليه ، وترحيبها بكلامه ، ما اغراه على ان ينفذ الفكرة

وحدث فى هذه اللحظة ما قطع بان كل تردد منه فى هذا الصدد ، لا مبرر له . ولكن ما حدث لم يكن كلاما سياسيا ، بل كان عملا صغيرا ابعد ما يكون عن السياسة . فقد اقترب

الصبى ـ ولى العهد ـ من ابيه ، وقال فى عبارة صريحة خالية من الخجل ، انه يريد ان « يتبول » ، قالها كما يقولها اى طفل فى اى كوخ من اكواخ فرنسا

هل هذا معقول ؟

ان « برناف » يعلم علم اليقين أن هذا الصبى وامه واباه ليسوا الا آدميين ، بل يعلم انهم آدميون اقل رحمة ، واضعف احساسا بالانسانية من سائر الآدميين . ولكن الملكية بطقوسها ومراسمها ، وما أقامته بينها وبين الناس من حواجز ، وما شيدته من قصور ، وما استخدمته من حرس ، قد نجحت فى أن تلقى فى روع الناس أن الملوك طراز آخر يختلف عن بنى البشر

لذلك لم يكن كافيا أن يكون « برناف » ثائرا ، لينزع من راسه فى الحال اثر هذه السنين الطويلة ، من أسباغ هالات المجد والقوة على الملوك والذين ينتمون اليهم من اقارب وحاشية وبطانة . ولو فكر « برناف » قبل هذه اللحظة ، لقطع بأن الملك وان زوجته ككل البشر ، يأكلون ، ثم يحسون بما يحس به كل انسان ، بل قل كل حيوان ، من حاجات البدن

ولكنه لم يفكر فى شىء من هذا ، حتى سمع ولى العهد يطلب من الملك ، ومن الملك ذاته ، انه يريد أن يتبول . وماحدث بعد ذلك كان أدعى الى دهشة برناف وبثيون ، فان الملك لما سمع هذا الطلب لم يفعل الا ما يفعله أى والد فى قرية صغيرة ، بل لعل أولاد الفلاحين لا يتوجهون بمطلب كهذا الى آبائهم ، فان

الامهات هن اللائى يعنين بالاطفال ، لاسيما اذا كان الامر متعلقا بهذه الحاجات الحميمة للبدن

ومد الملك يده الى ماتحت مقعده ، واخرج اناء ، وبرناف وبثيون فاغرا الفاه ، ثم مد يده الى أزرار سروال الطفل فحلها ثم أدنى الاناء ، وتبول الطفل ، فامتدت يد الملك للمرة الثانية الى الازرار فعقدها ، ثم داعب بأطراف أصابعه خد الطفل ، الذى بدا عليه مرح عظيم ..

وابى عقل برناف الفلسفى ، أن يمر بهذه الحادثة سريعا ، فقد ألهمته بفكرة اتفقت مع طابعه الثورى ، وآل على نفسه ان يدعو لها

ان اتصال الحكام بالناس ، وعيشهم فى بساطة ، ورفع الحواجز بينهم وبين المحكومين، أساس ضرورى لقيام حكم صالح ، واساس كذلك لاستمرار شعور الشعب بأن الحكام منه ، وضمان لشعور الحاكم بأنه لا يختلف عن بقية الناس

وقال لنفسه : « لقد بلغ بى الامر أن ظننت أن الملك واقاربه لاتعمل اجسادهم كما تعمل اجسادنا ، وأدهشتنى هذه الظاهرة البسيطة ، وماكان يجب ان تدهشنى فى شىء . ولا شك عندى ان الملوك والامراء ، مع مر الايام وتعاقب الليالى ، يؤمنون بانهم حقا خلقوا لغير ماخلق له سائر البشر . ان هذا ليس سوى المسخ الذى قال عنه « جان جاك روسو » فى كتابه « اميل » حينما جرى قلمه بهذه العبارة الجميلة :

« يخرج كل شىء من يد الطبيعة حسنا جميلا ،

ولكنه ينحط ويفسد متى تناولته يد الانسان . فالانسان يمسخ خلقة كلابه، وخيله، وعبيده . ويأتى على كل شيء خلطا وتشويها، كأنما لا يلتذ الا بكل شيء مشوه ممسوخ، ويأبى أن يترك شيئا واحدا على ما صورته يد الطبيعة، حتى الانسان، فانه يجبله على الطريقة التى يهواها كما يصنع بسرج فرسه، ويطبعه بالطابع الذى يريد كما يفعل باغصان بستانه .. »

لقد كان روسو يتحدث عن المسخ الذى يحدث للكلاب والحيوانات والاطفال، ولكنه لم يقل شيئا عن المسخ الذى يحدث فى نفوس هؤلاء الذين يبلغون أعلى القمم، عن الحكام، ثم عن المسخ الذى يحدث لصورة هؤلاء الحكام فى أذهان سائر الناس

ونشط برناف لهذه المناقشة التى أتيحت له، والتى نشط لها بثيون من قبل، منذ وضع قدمه فى العربة . ولكنها كانت من جانب بثيون، كما قلنا، محاضرات ثورية، يتعلم منها الملك دروسا فى الادب فى حق الشعب، وتتعلم منها الملكة دروسا فى اللياقة، وحسن السمعة، والبعد عن الحماقات

ولقد جرحها بثيون فى محاضراته هذه، قبل أن يتم هذا التقارب، جرحا شديدا، حينما وجه اليها أول لوم على الهرب من التويلرى فى عربة يقودها سويدى .. اسمه .. اسمه..؟ وتظاهر بثيون بأنه لايعرف الاسم، وأحست مارى انطوانيت بالطعنة تصل الى اعماق قلبها، لان هذا السويدى لم يكن سوى الكونت اليكس فرسن، الذى دبر لها الهرب، والذى

بذل في سبيل ذلك كل ما يملك

وعندما سمعت هذه العبارة الجارحة ، كان لابد لها أن تلوذ بذكرياتها مع هذا الشاب الذى لعله الشخص الوحيد الذى عرفت معه الحب الجاد فى حياتها . مع أنها بدأت هـــذا الحب كعادتها فى طيش ونزق ، لفت الانظار اليها ، وأهال عليها عتب البلاط ، ولكنها يوم ذاك كانت لاتزال أميرة ، لم تتخط الثامنة عشرة ، فكان لها من سنها وقلة خبرتها المعـــاذير . ومع ذلك فان السنين لم تنفع فى شفائها من هذا الحب ، بل زاد مع الايام تأكدا وتأصلا وثباتا

ذكرت كيف رأت اليكس لاول مرة فى حفلة من حفـــلات الرقص التنكرية ، فراعها ما يبدو على تقاطيع وجهه الذى كان جميلا غاية الجمال ، من جد يكاد أن يكون صارما . كان وجها صريحا ، ذا تقاطيع متناسقة ، تلمع فى صفحته عينان تلوح فى سمائهما آيات التفكير ، يعلوهما حاجبان مقوسان ، كثيفان أسودان . وتعلو هذين الحاجبين جبهة جميلة التكوين ، وتكمل الصورة الجميلة شفتان ورديتان ، يظهر منهما أن صاحبهما يعرف قيمة الصمت ويقدره حق قدره .. أما قوامه فكان بديعا فقد كان طويلا ، ذا كتفين عريضتين ، ليس فيه من السمنة او الترهل شيء

ولم يكن اليكس من عائلات الاشراف الكبيرة فى السويد ، بل كان من الاشراف المتوسطى الحال ، أراد له أبوه ، وكان عضوا فى مجلس الشيوخ ، أن يكون من ذوى المناصب الكبيرة

فى الدولة ، فأعد له برنامجا نافعا من الدراسة • فقصد الى ايطاليا ليتعلم الموسيقى والطب ، والى المانيا ليتعلم الادب والحرب ، والى جنيف لينال شرف المثول بين يدى استاذ الحكمة والفلسفة فى ذلك العهد « فولتير » • وقد لقيه الفيلسوف فعلا فى عباءته ، وأسبغ عليه فضله

فلما نزل بباريس ، بلد المتع الجسدية الممتزجة بمتع العقل، بلد الحفلات الباهرة ، رأى النساء الجميلات والشبان الذين يحومون حول الجمال ، كأنهم فى عرض دائم مستمر • ورآهم لا يتنافسون فيه على قلوب الغوانى ، بجمال الوجه والقامة فحسب ، بل أيضا بالبراعة فى الصيد ، والمهارة فى لعب الورق ، وقبل كل شىء وبعد كل شىء بحلاوة الحديث ، واتقان فن الحوار • فالمرأة الباريسية فى ذلك المجتمع المترف ، لطول ما استمتعت باللذائذ الجسدية ، أصبحت فى حاجة الى مايثير فضولها ، ويسليها ، ويرضى كبرياءها • وكان الحديث الذكى الوسيلة الى تملق هذه الكبرياء ، وايهامهابأنها تفكر وتخلب الالباب بذكائها كما تخلبها بجمالها ، ولم يكد نظر مارى انطوانيت يقع على اليكس فرسن فى حفلة الرقص التنكرية ، حتى اندفعت نحوه ، دون أن تقدم نفسها اليه ، ودون أن يقدمها اليه أحد سواها ، وأخذت تجاذبه أطراف الحديث ، فاتجهت نحوهما مئات الاعين ، وضرب الفضول حولهما نطاقا ضيقا محكما ، والحديث بينهما يزداد عذوبة ، تفوح منه رائحةالغزل فغابا عن القاعة ومن فيها •• وبعد حين أحست مارى انطوانيت

بحرج الموقف ، فلم تر بدا من أن تعلن عن شخصيتها ، فحسرت القناع عن وجهها ، وبهت فرسن الشاب الصغير الذى لم يكن يطمع فى أن يظفر بهذه النتيجة الباهرة ، من حيث لايدرى ولا يحتسب • واشتد غضب رجال البلاط ونسائه ، وأبعدوا الاميرة الى أحد « البناوير » وجعلوا ظهرها نحو قاعة الرقص • ولكن فرسن أصبح عضوا مواظبا على حضور حفلات لعب الورق التى تنظم للاميرة • وسألته يوما لماذا لم يحضر حفلة بالذات من تلك الحفلات فقال انه حضر فى الموعد ولكنه وجد أن الحفلة قد ألغيت ، فاعتـــذرت وأطالت الاعتـــذار ، وهى المتـــكبرة المتغطرسة

ولقد سجل فرسن فى مذكراته بعد ذلك ، أنه لم يحضر سهرة من سهرات هذا اللعب ، الا وجدت الاميرةمبررا للتحدث معه • وسألته يوما ان يحضر الى فرساى فى ثيابه الرسمية السويدية ، ومع أن ذلك كان مخالفا لبروتوكول القصر ، الا انها لم تحفل بهذا البروتوكول ، ولم يكترث هو كذلك ••ولم يطل فصل غرامهما الاول لانها ارتقت العرش ، وأصـــبح لقاؤهما عسيرا

غير أن والد فرسن ارسل بعد ذلك ابنه الى لندن وباريس ليخطب احـــدى آنســـتين ، اما مس يل من انجـــلترا ، واما مدموازيل نكر ، ابنة الوزير نـــكر ، التى أصـــبحت فيمـــا بعـــد مدام دى ســـتايل ، والتى اشـــتهرت فى عـــالم القلم بعـــداوتها العنيفة لنابليون . ولمـــا وفـد فرسن الى باريس قدم نفسه للبلاط ، فلقيه الملك لقاء فاترا

واما الملكة فلم يكد نظرها يقع عليه حتى هتفت : « هذا صديق قديم » ولكن كان استمرار علاقتهما لعبا بالنار ، فقد كان شغفها أقوى من أن يكتم ، ولقد لحظ نساء البلاط ورجاله ، كيف كانت الملكة تضطرب اضطرابا واضحا حينما يدخل فرسن الى قاعة من قاعات القصر ، على غير انتظار منها ، كما ذكروا انها كانت تغنى أغنية تقول ألفاظها : « انى أكون أعظم ما اكون الهاما ، حينما اتلقاك فى قلبى » فلم تبرح عيناها وجه فرسن طوال غناء هذا الدور ، كأنما هى تناجيه بألفاظه

ماذا يفعل فرسن ؟ لقد أيقن ان الملكة تحبه ، وقد بادلها الحب ، ولكنه كان حريصا فى الوقت نفسه على ان يصون لها شرفها ، فكيف يكون ذلك ؟ أيتظاهر بزهده فى حبها أو يرفضه كلية على طريقة النبى يوسف ، فيصدمها ؟ان ذلك فوق طاقته .. وهدته الحيلة الى حل يتفق مع طبيعته ، فقد قرر أن يلحق بجيوش الجنرال لافاييت التى سافرت الى امريكا ، لتحارب فى صف الثوار ضد الانجليز .. وقد بقيت عينا الملكة عليه طوال المدة السابقة على رحيله ، لا تدعه أبدا . ولما حانت ساعة الفراق ، ودعته دامعة العينين .. اما أهل الفضول من نساء القصر ، فلم يصدقن ان هذا المحب المتفانى ، سيدع حبيبته . ولم تستطع احداهن ان تمسك لسانها فقالت له : « ماذا ياسيدى ، اعزمت على ان تترك من غزوت ، فى المحنة؟ » فأجابها الكونت على الفور : « لو انى غزوت احدا ، ما تركته يعانى »

والحق يقال أن هذا المسلك من بدايته الى نهايته ، بل هذا الرد ، كان دليلا على أن فرسن كان نموذجا عاليا فى ضبط النفس ، الأمر الذى لاحظه سفير المملكة السويدية فى خطاب منه الى ملك السويد

ومضت سنوات أربع ، فرض خلالها فرسن على نفسه نفيا اختياريا فيما وراء المحيط الاطلسى يحارب من أجل الحرية وتحت علمها ، فى الولايات المتحدة ، ضد الاستعمار البريطانى ، ولما عادت القوات الامريكية الاضافية الى أوربا فى يونية سنة ١٨٨٣ ، انطلق لفوره الى فرساى

وصعب عليه بعد ذلك ان يفترق عن الملكة ، فقدم طلبا بايحاء منها ، ليتولى قيادة احدى الفرق الفرنسية ، فثارت ثائرة أبيه عضو الشيوخ السويدى ، وقال لماذا الاصرار على البقاء فى فرنسا ، وفرنسا بالذات ، بينما شمل الملك السويدى فرسن الصغير بعطفه . وبفضل هذا العطف الملكى كان فى وسع الشاب ان يصل الى ما يشاء من مناصب الدولة ، لا سيما بعد ان تمرس بفنون الحرب فى ميادين القتال ، وازاء الحاح الأب اضطر الابن أن ينتحل عذرا للبقاء فى فرنسا ، وهو رغبته فى أن يخطب لنفسه مدموازيل نكر ذات الملايين السويسرية ! ولكنه كتب فى الوقت نفسه الى شقيقه يقول : « لقد عزمت الا اتزوج .. فانى لا استطيع ان اتزوج المراة التى يتوق قلبى الى الزواج بها ، فلأبقين الى آخر العمر بلا زواج »

واجيب فرسن الشاب الى طلبه ، وعين قائدا لاحدى الفرق

الفرنسية ، واخطر الملك جوستاف ملك السويد بهذا التعيين ، ولكن لم يتول اخطاره قائد الجيش ، بل اخطرته الملكة ! وعزم فرسن ان يبقى الى جوار الملكة ، ولكنه على الرغم منه اضطر الى ترك باريس لمصاحبة ملك السويد ، فقد اختاره الملك ان يكون ياورا له فى رحلات خارج السويد استمرت عامين ، عاد بعدهما فوجد مارى انطوانيت قد تغيرت كثيرا . فقد كبرت فى هذين العامين ، وكأنما كانا عشرين عاما . لم يصبها الهرم ، فقد ازدادت جمالا وشبابا ، وانما كبر عقلهـــا ، ونضجت ، وازدادت فهما للناس ، فقد اقترن اسمها بفضيحة لم يكن لها فيها دور ولا يد ، فتلوث اسمها ، وكرهها الناس ، ففقـــدت ما كان لها فى القلوب من مكانة. صهرتها هذه المحنة ، وعلى ضوئها أدركت أن عالم الخفة والنزق لم يجر عليها الا الوبال وأن الاصدقاء الذين حولها ، ليس فيهم من يستحق الثقـــة ولا الاحترام . وبحثت عن صديق يعتمد عليه ، ويرجى منه ، فكان فرسن وحده

نعم ، أحس فرسن أنها ، بعد ان هوجمت وأحيط بهـــا ، وتهددتها المخاطر وكرهت، قد زادت قدرا فى نفسه ،واستحقت منه حبا أعظم ، وتفانيا أكثر عمقا

وقد كتب لاخته يقول عنها : « انها أشد ما تكون تعاســـة الا ان شجاعتها التى كانت فوق كل وصف ، جعلتهـــا اكثر جاذبية ، غير انى اشعر ان سبب شقوتى الوحيـــد ، هو اننى لا استطيع ان اعوضها عما تقاسيه ، وانه لن يكون فى وسعى ان

امنحها السعادة التى تستحقها »

والحق انهما حين كانا يلتقيان ، كانت تبثه همومها ، وتلقى جانبا قيودها الملكية ، وتبكى ، تبكى بالدموع الفزار الساعات الطوال . لقد ذهبت نزوات الشباب ، وأصبح ما بينهما حبا فازدادا عليه حرصا ، فنقلت قيادته من فرقة بباريس ، الى فرقة على الحدود بالقرب من هولندا ، لكيلا يتيحا للالسنة فرصة النيل منهما • ولم يعد يغشى المجتمعات التى تغشاها الملكة ، ولا الحفلات التى تقيمها ، ولا الرحلات التى تقوم بها . وحين يأتى الى باريس ليراها لم يكن يذكر فى الاوراق الرسمية من استدعاه ، وكان يخفى عن أصدقائه الى أين هو ذاهب• بل لقد استمرت الملكة توزع على من يحسبون أنفسهم متمتعين بصداقتها أو حظوتها أو عطفها ، الاهتمام والرعاية ، كأنها لا تحب أحدا ، وكأن قلبها لا يشغله شاغل

ولما زاد الخطر اقترابا منها ، وتهديدا لمركزها ثم لحياتها ، وفر كل الاصدقاء ، وتركوها وحدها ، كان فرسن هو الصديق الذى ظهر علنا ، واصبح تردده على قصر التريانو كثيرا ، ولم يعد يخرج خطاب منه الى خارجه ، الا بعد أن يمر عليه هو ، ولم تثر مشكلة الا شارك فى مناقشتها ، ولم يقترح حل الا أبدى فيه رأيا ، ولم يصدر قرار الا بعد موافقته •• فلم يكن صديق الرخاء ، بل كان صديق الشدة ، ولم يقترب منها ليكسب من جاهها او ليستمتع بمالها ، بل لأنه احبها واخلص لها الحب ، فلما كسفت شمسها ، ودالت دولتها ، وانتهت

ايام سعادتها ، زاد تفانيا واخلاصا

ذكرت الملكة كل ذلك حينما ذكر بثيون اسمه ، او حين غمزها بالتلميح اليه هذه الغمزة القاسية ، واحست ان هذه الذكريات التى تتابعت فى مخيلتها ، قد قوتها ، وامدتها بذخيرة من الثبات وضبط النفس ستعينها على هذه المناقشة التى ستدور رحاها بينها وبين ممثلى الجمعية الوطنية التى تعتبرها الد اعداء الشعب وأشد خصوم الثورة

ولقد كانت فى الواقع فى حاجة الى هذا الزاد لان هذه المناقشة لم تكن فى رأيها مجرد وسيلة لقضاء الوقت ، ولا رغبة فى تخفيف قسوة الجو الذى ساد العربة ، بل كان عملا سياسيا، انتبهت اليه نفسها ، فقررت ان تنفذه وان تفيد منه ، قدر استطاعتها . فهذان الزعيمان على غلظة مظهرهما ، بدوا انسانين ، يتأثران تأثرا بالغا بكل مظهر لطيف من مظاهر الحياة البسيطة . وهما كما يبدو من ذوى النفوذ فى الجمعية الوطنية ، فلو كسبت ودهما ، وأحسنت الدفاع عن نفسها ، وعن الملكية وزوجها ، فربما احسنا اليها فى المستقبل

لقد ثبت لها أن الزعيمين كانا يحسبانها وحشا كاسرا ، وانها لاتعرف شيئا عن الحب الانسانى ، ولا يطيب فى فمها الا طعم الترف ، وانها لم تفكر فى شىء مما يشغل الناس ، ولم تسمع عن الافكار التى تقوم عليها الثورة وتنادى بها ، فلماذا لا تعرض عليهما ما تفهمه وما تعيه ؟ ولماذا لاتبدو لهما فى ثوب المراة لا الملكة ،وفي صورة التعسة لا القوية، وفى صورة الأم البائسة،

لا العاشقة المتولهة ؟ لماذا لا تناقش مبادىء الثورة، لا مناقشة الكاره المعادى ، بل مناقشة الراغب فى الفهم؟ ولماذا لا تقيم الاعتراضات عساها تقنع أو على الاقل ، ليبدو اقتناعها طبيعيا لا تمثيل فيه، حقيقيا لا زيف به

كانت هذه فرصة ذهبية لها ، عضت عليها بالنواجذ . وقد رحب بها برناف أول الامر ليكشف هذا العالم الغامض ، عالم الملكية ، والملكة بالذات ، وليرى ما ذا تخبئه هذه الشابة ، النضرة التى رآها أول مارآها فى هذه العربة ، مجللة بالحزن والالم ، والشعور بالخيبة والخجل ، ومع ذلك بهرته بجمالها وجرس صوتها ، وتدفق حيويتها وسرعة خاطرها ، ودنوها منه كأنما كانا صاحبين طول العمر . أما بثيون فقد داعب خياله ـ ولم تكن النية قد انعقدت بعد على انهاء النظام الملكى ـ ان يقوم من أمر هذه الاسرة ، وان يبصرها بخطر أصرارها على المسلك الذى سلكته ، عساها أن تنصلح ، وتستقيم ، وتساير الثورة وتنزل راضية للشعب عن حقوقه

ولو كشف ستار الغيب لهؤلاء جميعـــا ، لعرفوا كم تهزأ المقادير بالناس فتوهمهم بأنهم أصحاب الامـر فى الدنيـا ، او اصحاب الامر فى مصائرهم ، فيحاولون ، ويرسمون الخطط ويفكرون ويدبرون

ولكننا لا نريد ان نسبق الحوادث ، وان نرفع الســتار عما جاءت به الايام من احداث ، تحدد بها مصير هؤلاء الذين جمعتهم العربة من ثوار ، وملكيين

الفصل الخامس

بدأ الحوار ، فوصف بثيون حالة الفلاح الفرنسى فى ظل الملكية وقبل الثورة ، وانصتت الملكة ، وانصت الملك ، وانصت ولى العهد وشقيقته .. ولم تنصت شقيقة الملك ولا وصيفة الملكة ، فقد كان هذا الحديث بالنسبة لهما مسئما ولامحل له

قال بثيون : أنتم أيها الملكيون ، لاتكفون عن القول بأن الثورة هى جنون طارىء اعترى عقل الامة ، فعطله الى حين ، وأن الامة ستثوب الى صوابها بعد حين ، فتخجل مما فعلت ، وتندم على ما جنت .. أليس هذا صحيحا ؟

اما الملك فهز راسه علامة الموافقة . أما الملكة فقد ابتسمت ابتسامة « دبلوماسية » لا هى الى الموافقة ، ولا هى الى المخالفة

فقال عضو الجمعية الوطنية : حسنا لنرى ماذا كان يحدث قبل الثورة ، مما ترونه عقلا وحكمة وسداد راى . كان فى البلاط ١٨٠٠ موظف ، وفى البلاد ١٥ الف شريف ونبيل ، وكان هناك أمراء الكنيسة ، من كرادلة ورؤساء ابروشيات .. والى هؤلاء جميعا يذهب خير البلاد . كان الاشراف يعفون من

الضرائب ، اما الفلاح فيدفعها . كانت أملاك الكنيسة معفاة من الضرائب ،اما أرض الفلاح فمثقلة بها ٠٠ كان الفلاح يدفع الضرائب لمن ؟ انه لايدفعها مرة واحدة ولا مرتين ولا ثلاث مرات ... يدفع للحكومة ، ويدفع للشريف ، ويدفع للكنيسة .. فاذا كسب الفلاح مائة فرنك،دفع منها ضرائب تلتهمها بحيث لايبقى له منها سوى ١٤ فرنكا . ولم تكن الضرائب مباشرة ، يدفعها وهو يعرف قيمتها ، بل كانت هناك مئات الضرائب غير المباشرة فهو يدفعها مثلا عن الملح ، وياليته كان يدفع هذه الضريبة مرة واحدة،فالملح الذى يشترى وتدفع ضريبته لاستعماله فى الطعام، لايجوز للفلاح أن يستعمله مثلا فى تمليح خنزير ٠ وكان هذا يستتبع تعرض الفلاح دائما للتفتيش،وما يصحبه من مفاجآت بالليل ، ومهانات ومخاوف بالنهار ولم تكن الضريبة فى مقاطعة مماثلة لنفس الضريبة فى مقاطعة اخرى ، فأدى ذلك قطعا الى التهريب ، وترتب على التهريب ، المطاردة والتفتيش ، والحبس وانقطاع الارزاق ... هذا هو حال الفلاح

فهل هذا فى رأيكم هو العقل ؟ أهذا الظلم المستقر الثابت عقل ورشاد وحكمة ؟ أم تغيير هذا الظلم هو الجنون والثورة ؟

فقال الملك فى اقتضاب وخجل : انا لم أرض عن هذا . لست مسئولا عنه !

فقال بثيون وكانه يصرخ :من المسئول اذن ؟ أنا ٠٠ ؟ أم هؤلاء المساكين الذين لا يجدون قوت يومهم الا اذا نزفوا دما ؟ ومع ذلك أهذا كل ما يعانيه الفلاح ؟.. أبدا كانت هناك

قالت شقيقة الملك : كان ذلك من اثر الاقطاع

فقال برناف : ولكن لا يزال باقيا .. كان الملك يمنح الامراء حق الصيد ، لافى الضياع الملكية الواسعة ، بل فى اية ضيعة يحلو لهم فيها الصيد ، ويكثر بها الطير . فيحظر على اى انسان آخر ان يمارس هذه الهواية ، او يمد يده الى طير او وحش . بل لا يجوز للفلاح المسكين الذى يشقى فى اعداد ارضه وتهيئتها ان تمتد يده الى الطيور التى تفسد عليه زراعته . او الحيوانات التى تأكل ثمار عمله . فاذا ضاق الفلاح أو ضاق أحد اولاده ذرعا بهذا الهلاك النازل برزقه ، حل به الويل والدمار وسيق الى السجن ، وكأنه أتى امرا ادا

نظر ولى العهد الى وجه المتكلم ، وقد استولى على لبه الاسلوب الذى كان يتكلم به .. وانطلق بثيون يقول :

لم يكن محرما على الفلاح ان يهش عن زرعه الطير والحيوان مهما آذاه فحسب ، بل كان محظورا عليه فوق ذلك ان يقتلع من الارض الحشائش التى تنفع فى اجتذاب الصيد وان أضرت بالارض

قالت شقيقة الملك : ان الملك لم يمنح أحدا هذا الحق

قال الملك فى فتور : أبدا

قال بثيون : لكن الحقوق التى منحت قبل ذلك كانت كافية لينوء تحتها الفلاح . لم يكن ممكنا اضافة شىء جديد فوق احماله . ومع ذلك اكانت هذه كل الاهوال التى يكابدها الفلاح

الفرنسى ؟ أبدا .. فقد كانت هناك الاوامر المغلقة التى كان اصحاب المال يشترونها فيجدونها ممهورة بامضاء الملك أو أحد وزرائه ، متضمنة الاذن بالقبض على شخص متروك مكان اسمه خال وما على مشترى الامر الا أن يضع اسم من يختاره ليقبض عليه ويلقى به فى السجن ، دون أن يعرف الذنب الذى ارتكبه ، ولا الشخص الذى حبسه ، ولا المدة التى سيقضيها بعيدا عن أهله وعمله .. هذا يحدث والكنيسة قائمة ، تعظ الناس بمبادىء المسيح ، وتدعو الى المحبة والانسانية . وبرلمانات باريس وغيرها تقول انها تحمى الناس من الظلم

وتدخل برناف قائلا : ان المحاكم نفسها جارت بالشكوى مما يصيب احكامها بسبب هذه الاوامر المغلقة .. ان قصة مونرا لا تزال مذكورة

فعقد الملك مابين حاجبيه وقال : مو.. نرا .. لاأذكر شيئا . لا أعرف هذا الاسم

فقال برناف : ان حادثة مونرا وقعت فى عهد جدك لويس الخامس عشر

فقال الملك : آه ، هى اذن قصة قديمة

فقال برناف : ومع ذلك فان هذا القديم لم ينته

فقال بثيون : ارو القصة ، فلعل الملكة تحب ان تسمعها

فقالت الملكة : طبعا

فقال برناف : ان مونرا التعس لم يكن سوى سمى رجل آخر ، وكان مونرا الآخر ، قد اتهم فى قضية تهريب ، فقبض

على البرىء ، واخذ بجريرة المجرم ، لمجرد التشابه فى الاسم
ولما خرج من السجن رفع دعوى تعويض عن حبسه بلا ذنب ،
وطلب مبلغا كبيرا ، وحكمت له المحكمة بما طلب ، فاستعان
محصلو الضرائب بمجلس الملك ليلغى الحكم فألغاه ، فاحتجت
المحكمة وقالت فى احتجاجها ما معناه ان جباة الضرائب قبضوا
على رجل اسمه مونرا من غير مراعاة الاجراءات القانونية التى
يجب اتباعها فى مثل تلك الاحوال ، والقى الرجل فى السجن
بعد ذلك بقليل حيث قضى عشرين شهرا ، وكان ذلك بناء على
امر صادر باسم جلالة الملك .. وقد وصفت المحكمة فى
احتجاجها السجن الذى القى فيه مونرا ، فقالت : انه يشتمل
على حفر معتمة أعدت للمجرمين الذين صدر عنهم عفو بعد
الحكم عليهم بالاعدام ، اذا كان سبب العفو اعترافهم على زملائهم
الذين اشتركوا معهم فى جرائمهم . ولما كان لابد من توصيل
شىء من الهواء الى تلك الحفر مع بقائها فى ظلام حالك ، ركبت
فيها أنابيب توصل اليها القليل من الهواء دون ان تسمح بنفاذ
شىء من الضوء ، وكان يشد وثاق أهل تلك الحفر الى جدرانها
بسلسلة غليظة ثقيلة ، ولم يكن يسمح لهم فيها بغير شىء قليل
من القش والخبز القفار .. وقالت المحكمة للملك ان جلالته
لاشك يرى ان تهمة التهريب لا تكفى لان يطرح انسان فى هذا
القبر المريع شهرا واحدا

وقالت المحكمة ان جباة الضرائب كلما أعوزهم الدليل
القاطع على اثبات التهمة على شخص ينسبون اليه التهريب

لجئوا الى استصـــدار أوامر الملك المعروفة باسم الخطـــابات المختومة ، لتوقيع العقاب على البائس الذى شاء له سوء حظه ان يكون هدفا لغضب الجباة

واذكر ان المحكمة قالت ان هذه الاوامر التحكمية كانت دائما سعيا فى انتهاك اقدس الحريات .. واذا كان من يحصل على الخطابات المختومة قادرا على ان يحتمى بالملك ، فكيف يمكن القول بأن رعايا جلالته فى حماية القانون وتحت ظله ؟

وقال بثيون : لم تكن هناك فرنسا يا صاحبى الجلالة ، انما كانت هناك مجموعة من الدول تعيش فى بلادنا .. فلكل مقاطعة قانونها وضرائبها ، وبرلماناتها . ومن هنا تعثرت التجـــارة والزراعة ، وناء الفلاح تحت عبء هذا الخراب المالى والادارى .. كان هذا عقلا يا صاحبى الجلالة ، أما اصلاح هذا الذى يسمى عقلا ، اما اعطاء الفلاح لقمة عيش يأكلها ، وقطعـــة من ثوب يستتر بها ، وشيئا من راحة البال ، فهو الجنون

وغلبت الحماسة على بثيون حتى أصبح أشبه شىء بخطيب يتحدث الى الجماهير .. وامتقع وجه الفتاة الصغيرة، وأحست أن هناك خطرا يهددها ويهدد أمها وأباها ، فاحتمت بحضن أمها ، فوضعت الام يدها على كتف ابنتها فى رفق شديد ، وقالت فى همس « لا تراعى يا ابنتى .. لا تراعى »

وكأن هذه العبارة الهامسة قد لفتت بثيون الى أنه قـــد غلبته حماسته فعلا صوته ، وقست عبارته ، فى غير حـــاجة الى هذا كله ، فتوقف قليلا ونظر الى ابنة الملك وهى فى أحضان

امها ، فلطف من الصورة التى انطبعت على وجهه ، بابتسامة خفيفة ونظر الى خارج العربة ، وكانت فى هذه اللحظة تجتاز حقولا خلت من الناس ، ثم بدا عليه شيء من الارتباك ، لأنـه احس بالحاجة الى ان يمد يده الى الفتاة التى ارتسم على وجهها الخوف والانزعاج ، ولم يدر أيحسن اذا فعل ذلك أم يخطىء ، وكان سبب ارتباكه شعوره بأنه لا يجوز له ان يسقط الكلفة بينه وبين العائلة المالكة الى هذا الحد . ولكن يده امتدت مع ذلك الى الفتاة فى لطف باد ، ورغبة صريحة فى المجاملة . ولكن الفتاة تداخلت فى نفسها ، وازدادت التصاقا بأمها وشملها فزع كبير ، بينما كان أخوها الذى يصغرها ينظر الى ذلك كله فى سرور شديد ، أو على الأقل فى فضول عجيب . وقد كانت القصص التى تروى على مسمعه مسلية ومثيرة للاهتمام ، لانه لم يسمع شيئا منها من قبل ، ولم يسمعها على كل حال تروى بهذه اللهجة ، وبهذا الاسلوب ، ومن هذا الشخص

واخذت الملكة تستحث ابنتها عبثا ، لتصافح اليد الممدودة فقالت لها همسا : « عيب .. عيب .. صافحى السيد » .. واصرت الفتاة على موقفها . وسحب بثيون يده ، دون ان يبدو عليه اى امتعاض ، وان بدا عليه شرود ذهن دل على انه كان يفكر فى كل الذى قال ، وفيما يجب قوله بعد ذلك

وسالت شقيقة الملك : اين نحن الآن ؟

واطل برناف والملكة والطفل من النافذة ، وقال برناف : نحن على ابواب شالون

ثم ساد المكان هدوء عميق ، وصمت كل ركاب العربة صمتا طويلا

□

ولم يكن متوقعا انه حينما يستأنف الحديث ان يكون المبتدىء هو الملك ، الذى قال :

ان من يذكر المساوىء لا يملك أن يدعى الحق فى أن يصلحها ، وبالاسلوب الذى يختاره لمجرد أنه يذكرها . فأنت أيهاالسيد مثلا تتصور أنك وحدك الذى يعرف كل ما يشكو منه الشعب، وكل ماتشكومنه الدولة ، فاذا عددت هذهالعيوب،اعتبرت نفسك مصلحا واعتبرت غيرك فى الحال مفسدا ،لانه لايفعل مثلك، بمعنى انه لا يعدد تلك العيوب

ولم يكن بثيون ينتظر من الملك ان يكون قادرا على أن يقول أى كلام . ولكنآخر ما كان ينتظره منهانيقول كلاما يكاديكون تحديا كاملا له . فانفجر يقول :

من هو صاحب الحق فى أن يصلح المفاسد التى نشكو منها ؟

فقال الملك فى هدوء أحق بأن يوصف بالبرود : من يستطيع الاصلاح

فقال بثيون : ومن الذى يستطيع الاصلاح ؟

فأجاب الملك : من يملك وسائله !

فقال بثيون وكأنه يود ان يصفع الملك : ومن يملك وسائل هذا الاصلاح ؟ اتظن انه البلاط ؟ ان البلاط انفق على موظفين

ليس لهم اماكن خالية فى وظائف القصر ، فى مدة اقل من ثلاث سنوات ، مليونين ونصف مليون من الجنيهات ، ونحن الآن مهددون بمجاعة قمح ، مجاعة خبز . يحدث هذا فى بلد هى اكبر بلاد اوربا الزراعية !

فقالت شقيقة الملك : القمح موجود

فقال برناف : اين ذهب اذن ؟

فقالت شقيقة الملك بسذاجة : انت تعرف لقد كان مخبأ

فصرخ بثيون : من الذى خبأه . ان القصر يقول أن الدوق دورليان هو الذى خبأه ليسىء الى قضية الملك ، وليتخذ من رعاع باريس ، نعم رعاع باريس كما تقولون ، وسائل لافساد قضية الملك . أليس هذا ما تقولونه ؟

فأمنت شقيقة الملك على ذلك فى اندفاع : نعم ، هو الذى فعل ذلك ، هذا حق صراح

فقال بثيون : حسنا ! الدوق دورليان ليس ابن اخ الشعب ولا ابن عمه ، انه ابن اخ الملك ، فالاسرة المالكة مسئولة اولا واخيرا

فتدخلت الملكة قائلة : ان الملك لايعنى ماظننت . هو يقول ان بعض الناس يعتقدون انهم لمجرد امكانهم أن يروا البثرة على وجه المريض ، حق لهم ان يعالجوها . ألم يقل المسيو « كالون » كلاما عن عيوب الحكم ، أشد مما قالته جميع أحزاب الثورة ؟ . .

فقال برناف : نعم ، ان وزير المالية كالون قال ان فرنسا



مملكة تتكون من ولايات واقطار منفصلة ذات ادارات مختلفة ، لاتعرف مقاطعاتها شيئا عن بعضها البعض ، وبينما لاتحمل بعض جهاتها عبئا ما ، يقع العبء كله على الجهات الاخرى . وحيث اكثر الطبقات فيها ثراء يفرض عليها أخف الضرائب ، فى الوقت الذى يفرض فيه على أفقر الطبقات أفدح الضرائب.. ان الامتيازات التى تختص بها بعض الطبقات تحول دون اى توازن ، بحيث يتعذر اقامة حكم ثابت دائم ، ووجود آراء مشتركة ..فلا عجب اذا هى غصت بالعيوب وحفلت بالمساوىء. ومن المتعذر فى حالتها الراهنة ان تحكم حكما صالحا

فقالت الملكة : كانى بك قد حفظت كلامه عن ظهر قلب

فقال برناف : نعم ، انه وصف شامل للحالة

فقالت الملكة : ولكن ماذا كسبنا من هذا الكلام ؟ لقد اتضح ان الذى قاله ؛ لم يفعل فى سبيل اصلاح الميزانية الا ان يعقد قروضا ، حتى كاد يغرق الدولة فى الديون

ولم يستطع ركاب العربة ان يمضوا فى المناقشة .. فقد حدث أمران ، أحدهما كان معنويا بحتا ، والثانى كان ماديا صرفا

وقد وقعا فى وقت واحد

كان الليل قد بدأ يرخى سدوله ، وكانت العربة قد وصلت الى مدخل مدينة « شالون » وفى هـــذا المدخل ، رأت مارى انطوانيت شيئا اهتزت له كل شعرة فيها ، فقد كان هنـــاك قوس نصر من الحجر ، تجمع عند طرفه البعيد ، عدد من اهالى المدينة

ولم يكن هذا القوس سوى نفس القوس الذى اقامه اهل هذه المدينة نفسها منذ عشرين سنة مضت ، عندما كانت مارى انطوانيت فى طريقها من الحدود الشرقية لفرنسا ، الى فرساى، بوصفها عروس ولى العهد . وقد اجتمع أهالى نفس المدينة يستقبلونها ، كما اجتمعوا الليلة ، ليستقبلوها كذلك

ولم يفت أهالى المدينة عندما أقاموا ذلك النصب ان يكتبوا عليه باللاتينية « عسى ان يخلد هذا النصب خلود حبنا » وقد بقى النصب ، فهل بقى الحب ؟

كان الجواب حاضرا ، فقد اندفعت الجماهير من سكان شالون نحو العربة ، وانهالت على الملكة والملك بأقبح الشتائم ، واستمطرت عليهما وعلى أولادهما أقسى اللعنات

وكان النصب التذكارى شاهدا يرى ويسمع ، وكأن على شفتيه ابتسامة ساخرة

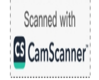
لقد قام بواجبه فخلد ، لم يسقط منه حجر ، ولم يمح من فوقه رمز ، ولم يزل من كتاباته حرف

ولكن ابحث عن حب القلوب ، وعما تضمره النفوس

ولم يستطع أحد من أهل هذه العربة ان يفكر أو يتأمل ، فقد علا صوت الشعب ، فلم يعد لنقاش المتناقشين محل ، ولا مبرر

وبعد قليل اختفى كل شيء أمام ناظرى مارى انطوانيت ، فقد لاذت كعادتها بخيالها ، لتنسى واقعها الحزين

فما أعظم الخيال من نعمة !



الفصل السادس

نفس الطريق ، ونفس المدينة ، وعربة مشابهة ، بفارق واحد ، ان العربة التى أقلتها منذ عشرين عاما ، كانت عربة ملكية ، ظاهرا وباطنا . تحمل من الخارج شارات الملك ، وتحمل من الداخل ملك فرنسا لويس الخامس عشر ، والى جواره عروس حفيده الصغيرة السن والجسم ، وحفيده القصير النظر ، الضخم الجثة ، البطىء الحركة ، البارد الطبع

وذكرت الملكة كيف حضرت وجهزت ، كعروس لملك فرنسا المستقبل ، وولى عهد عرشه الحالى

فقد قضت التقاليد الا تتخطى حدود بلادها ، الى فرنسا ، وهى تحمل على جسمها شيئا ما يمت الى بلدها الاصلى ، النمسا .. يجب ان تنذر نفسها ، وأن تسلمها لفرنسا ، دون ان يعلق بجسمها شىء يذكرها بالنمسا . لذلك أعد صالون مجاور للقاعة التى كان ينتظرها فيها الوفد الفرنسى الذى جاء الى الحدود . وفى هذا الصالون ، خلعت الاميرة النمساوية الصغيرة ، كل شىء ، حتى اصبحت عارية تماما كما ولدتها أمها

وبسرعة بدات الصبية الصغيرة النحيلة ، تضع على جسمها

الضئيل ، قميصا صنع من حرير فرنسا ، من باريس ،وجوارب من ليون ، وحذاء من صنع مورد الاحذيةللقصر الملكى الفرنسى . وكذلك الشرائط ، والمناديل ، وكل صغيرة وكبيرة . اخذ منها كل مايمكن أن يذكرها بالنمسا ، ويحفظ لها ذكرياتها فى بلدها الاصيل . فلم يبق معها خاتم ، ولا صليب . وكانت محاولتها الاحتفاظ بدبوس أو مشبك ، او رباط او جورب ، أو عقد عزيز عليها ،مخالفة لاصول اللياقة ، فالامر عند رجال التشريفات الملكية الفرنسية والنمساوية ، لم يكن مجرد تغيير مادى ، بل كان أمر تغيير روحى ، وتهيئة نفسية

فلما أتمت هذا الاجراء ، او تلك الطقوس ، خرجت من الحجرة الى القاعة حيث كانت حاشيتها الفرنسية فى الانتظار . فأمسك بها الكونت ستارهمبرج النمساوى من يدها ، تتبعهما الحاشية النمساوية، فقد كان باقيا من عمر جنسيتها النمساوية، نحو دقيقتين .. وفى قاعة الانتقال هذه أنقى مندوب الملك الفرنسى خطبة رسمية ، ثم تلا عقد الزواج بصوت عال ، ثم تتابع الحفل الرسمى ، والحاضرون يكتمون انفاسهم روعة واحتراما

ووضعت فى منتصف القاعةمنضدة ، كانت ترمز الى الحدود بين الدولتين ، وأمام المنضدة وقف النمساويون ، بينما وقف خلفها الفرنسيون . فسلم الكونت ستارهمبرج النمساوى يد الاميرة الى مندوب الملك الفرنسى الذى قادها فى خطوات متزنة ، ويدها تضطرب ، حول المنضدة . تمت فى هذه الدقائق

المرسومة خطواتها حسب النظام الموضوع تمـــاما ، بحيث اتفقت مع خطوات الوفد الفرنسى ، فتلاقى الفريقان عند طرف المائدة ، لم يسبق أحدهما الآخر ، ولم يتأخر عنه .. وفى هذه اللحظة انسحب النبلاء النمساويون من الباب الذى اتوا منه . وبذلك تركوا تلك القاعة فى نفس اللحظة التى وصلت فيها الاميرة مارى انطوانيت الى مكان يتوسط الحاشية الفرنسية

وبهذا انتهى الاحتفال الذى درست فيه كل صغيرة ،والذى تمت وقائعه كأنما هى وقائع أسطورة خيالية ، فقـــد كان الحاضرون يسيرون فلا يسمع لاقدامهم وقع ، ولكن الفتاة الصغيرة ، لم تستطع ان تضبط أعصابها ، ولا أن تخفى جزعها اطول مما فعلت ، فلم تكد تقترب من الكونتس «نواى» رئيسة الوصيفات الفرنسيات اللواتى كن فى انتظـارها ، حتى ألقت بنفسها على صدرها ، وهى تنتحب ، بـــدلا من أن تحيى الكونتس ، وتحيى من حولها تحية رسمية باردة

وقد كان أمراء البروتوكول والاتيكيت ، يتمنون أن يتـم احتفالهم الرسمى المهيب ، فى اطاره الوقور ، وبخطواته الباردة، ولكن العواطف تتحدى دائما الرسميات ، شاء الرسميـون او لم يشاءوا ، مهما احيطت تلك العواطف بقيود التقاليد ،ومهما كبلت بسلاسل الاوامر والنواهى

ذكرت مارى انطوانيت كل ذلك ، وذكرت بعـد ذلك كيف وصلت الى الحدود الفرنسية فاستقبلتها الجماهير الفرنسـية فى ستراسبورج بحماسة وترحاب، فاق كلما كانت تتصوره.

فقد انقضى على هذه المدينة الالزاسية اجيال دون ان تكتحل عيون اهلها بمرأى ملكة بلادهم أوولية عهـــدهم .. ومع ذلك فلم يكن من بين من مررن من هذه الملكات باستراسبورج من قبل ، من كانت في مثل جاذبية ماري انطوانيت وجمالها

وقد حيت هذه الملكة ذات العيون الزرقاء اللامعة ، والشعر الاشقر ، والتكوين الدقيق ، حيت من نافذة عربتها الجماهير الغفيرةالتي تجمعت من مدن الالزاس ،وقد ارتدى كل فرد فيها ملابسه الريفية المزركشة . وقد ردت الجماهير على تحيـــة الاميرة ،بهتافات عالية ، بينما نثر الاطفال، وقد ارتدوا ملابس بيضاء مزدانة بصور الزهور ، الورد والرياحين فى طـــريق الموكب الذى أقيم فيه قوس نصر ، زينت بواباته بعقـــود الزهور ، بينما تدفقت الخمور من نوافـــير البلدة ، فى الوقت الذى كانت تشوى فيه الثيران المذبوحة على أسياخ ضخمة ، يحمل كل منها ثورا كاملا ، والذى كانت توزع فيه أرغفة من الخبز من سلات كبيرة على المعوزين . ولما خيم الظلام اضيئت نوافذ البيوت ، وعلقت الفوانيس حول برج الكاتدرائية فى عقود حلزونية فبدت خطوط بناء الكنيسة الضخم ، حمراء فى وهج هذا الضوء

وعلى سطح الرين ، انسابت القوارب هنا وهناك ، تحمـــل فوانيس تشبه برتقالات حمراء كبيرة ، علقت على اشرعتها ، او يلوح ركاب تلك القوارب بمشاعل يحملونها فى أيديهم ، وبين اغصان الشجر لمعت زجاجات ملونة . وفى الجزيرة الواقعـــة

وسط النهر أطلقت الصواريخ ، وأخذت الفرق الموسيقية تعزف ، وعلى نغماتها رقص الاولاد والبنات فى مرح وسرور ، ولقد عم الفرح الجميع ، وكأن مجىء هذه الاميرة الصغيرة الاجنبية اليهم ، هو بشير الرخاء والسعادة

لم تستطع مارى انطوانيت حينما بلغت هذا الطور من ذكرياتها ، ان تحبس دموعا ترقرقت فى مآقيها ، فلما حاولت ان تخفيها ، كادت تختنق ، حتى لاحظ « برناف » ذلك ، وبانعطاف طبيعى صادر من قلب خال من كل عاطفة زائفة ، اقترب منها ، وسألها هل يستطيع ان يقدم لها خدمة . وكان ظنه ان المهانات التى أهيلت عليها وعلى زوجها من خارج العربة، هى التى بلغت بها هذا الحد من التأثر . ولكنها فى الحقيقة لم تكن تشعر بشىء مما يجرى ، وكانت عيناها قد ألفت هذه الصورة المحزنة ، كما ألفت أذناها هذه الشتائم ، حتى لم تعد تنفعل بها ، أو تلقى اليها بالا

ولم تلبث ان تماسكت ، واستعادت رباطة جأشها ، ونظرت الى الشاب الوطنى الثائر ، الجميل الطلعة ، وشكرته ، لا بكلمة ينطقها لسانها ، بل بعينيها .. وما أعظم شكر عينيها ، وماأقوى اثرهما ! .. كانتا عينين زرقاوين ، التهبت جفونهما فى هذه اللحظة بالحمرة ، من السهر والتعب ، ولكن بريقهما لم يضعف، وسناهما لم يخب، وجاذبيتهما لم تهن .. كان السلاح الاخير الذى تلعب به ، وتحارب . وكما أفادها فى أيامها ، حينما جاءت الى فرنسا ، صبية نضرة قليلة التجربة ، أفادها فى هذه

اللحظة الكئيبة القاتمة . فان برناف الشاب ، احس بان هذه المخلوقة التعسة جميلة ، وان جمالها لايمكن أن يخفي خبثا قط ، ولا يمكن أن يستتر قذارة ، اذ لابد ان يكون من خلف هذا الصفاء والنقاء والرقة والنعومة ، اشياء تشبهها

فقال لنفسه ، ان الطبيعة لايمكن ان تزيف · ان يدالانسان كما يقول «روسو» هى التى تزيف ·ان الانسان بظلمه،وجهله، هو الذى يغير العناصر النظيفة النقية النافعة التى تعطيها الحياة

وبهذا العزم الطاهر ، اتجه « برناف » الى مارى انطوانيت ، وهو يفيض تأثرا وقال : لا بأس عليك .. اننا وصلنا شالون ، وسنبيت هنا · فقد خيم الليل ، ولم يعد السير الى باريس سهلا ، ثم انه لاداعى للعجلة

وافق بثيون على ذلك ، وافق لانه كان يود ان يشرح لهذه الجماعة المارقة مبادىء الثورة ، وان يكسبهم لصفها . ثم ان صحبة مدام اليزابث ، شقيقة الملك ، كانت صحبة مؤنسة ولا شك

ولقد عاتب نفسه أول الامر لانه استمتع بهذه المجاورة الجسدية ، ولان الحرارة التى يشعها هذا الجسم الرخص اللدن ، قد أسعدته . ولكنه نفى عن نفسه بعد ذلك ، وبلا صعوبة هذا الخاطر · لان ذلك الاستمتاع لم يمنعه من ان يثور ويزأر فى وجه هؤلاء الملكيين ، رجالا ونساء وأطفالا ·· ونساء بصفة خاصة . وهو ان طابت له رائحة اللحم الملكى ، فلن تدير هذه الرائحة راسه الثورى ، ولا قلبه الجمهورى ،

وانما ستزيد شهيته للتوثب على النظام القديم

▭

واستراحت مارى انطوانيت كثيرا لفكرة المبيت فى شالون . فهى لم تكن متعجلة العودة الى باريس ، اذ ماذا ينتظرها هناك؟ كانت تعلم يقينا انها ستكون فى سجن ، ستزداد قضبانه تقاربا ، وستزداد الحراسة عليه احكاما ، وستزداد الحياة فيه شقاء وظلاما

لقد كانت الحياة فى باريس قبل الهرب شيئا ثقيلا ، لانها كانت فى قصر التويلرى سجينة تماما ، وان كان فى مقدورها ان تخرج الى هنا والى هناك ، تحت الحراسة والمراقبة . ولكنها كانت تحتمل هذه الحياة لثلاثة أمور .. أولها ان اليكس دى فرسن ، كان على اتصال دائم بها ، فكان قربه منها ،وتردده عليها ، عزاء لايعدله عزاء ، وكان يمدها بقوة لاتدانيها قوة ، وقد عرفت بفضل هذا العزاء ، ان الحياة بكل ماتعطيه من متع مادية باذخة ، تخدعنا وتزيغ بصرنا عن ذخائر ونفائس أخرى ؛ تبدو اكثر تواضعا ، وأقل قيمة .. كالحب الهادىء ، والصداقة، والالفة .. ولكن ما أزهدنا مع ذلك فى هذه النفائس الغالية مهما تعلمنا ومهما جربنا .. فاننا مانكاد نشبع ، او ننجو من الخطر، حتى نصاب بشراهة عارمة ، وجوع مكتسح يدفعنا الى المتع الصاخبة والصارخة وذات اللألاء والبريق

والى جانب حب فرسن الذى ارتفع الى مستوى صداقة الروح والعقل والبدن ايضا ، كان هناك الامل الدائم فى ان تقع معجزة .. كأن تأتى مثلا نجدة من جيوش ملوك أوربا وعلى

راسهم اخوها ليوبولد ، ملك النمسا ، وملك بروسيا وملك انجلترا اخيرا!

وكان الى جانب هذين العنصرين الباعثين على احتمال الحياة فى باريس ، رجاؤها فى أن يتم بينها وبين الثورة ،أى بين الملكية وبين الشعب ، تقارب ، وان يقنع الشعب بملكية دستورية ، لا يحرم فيها الملك كل سلطاته الحالية ، ولا يحتفظ فيها بكل هذه السلطات . وأن تخلد فيها هى — أى مارى انطوانيت — لفترة من الهدوء ، تستعيد فيها قدرتها على النضال والقتال من أجل سلطات أوسع . وكان يبعث هذا الامل الاخير فى نفسها ، ان ميرابو المع خطباء الثورة ، كان من هذا الرأى . وقد كانت تكره ميرابو ، وتضيق به ، ولا تقبل نصائحه ، ولكن حتى ميرابو قد مات ، فباتت وحيدة عزلاء .. ففيم اذن العجلة فى العودة الى باريس

فلتبق ليلة فى شالون ، ومن يدرى ماذا يأتى به الغد ؟ ان « غدا » هذه كانت فى ماضيها القريب كلمة قبيحة ثقيلة ، فلم تكن تعرف من الزمن الا شيئا واحدا ، هو اليوم ، بل اللحظة التى تعيش فيها . فلم يكن المستقبل يهمها او يشغل بالها ، بل كانت تراه عدوها ، لانه يسلبها السعادة التى تغرق فيها الى الاذنين . ورغم ذلك فقد كانت شديدة الملل ، ولم تكن تطيق البقاء فى مكان واحد ، ولا احتمال صحبة شخص واحد ، ولا التمتع بلون واحد من الوان اللهو او اللعب ، كان كل شىء عندها يفقد قيمته وبريقه فى وقت غاية فى القصر .. ومع ذلك

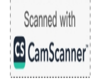
فلم تكن تفكر فى المستقبل او تمد بصرها نحـوه ، الا ان يكون هذا المستقبل امتدادا للحاضر الذى تعيش فيه ، وتصنعه بيدها وذوقهـا . ســواء اكان طعاما أم ثيابا أم بناء نعم ! فما اكثر ما صنعت لنفسها وللنـــاس من أطرزة فى الاثاث والرياش والقصور ، والازياء والاطعمة ، وتقاليد حفلات لعب الورق ، وسهرات الغناء والرقص · ولكنها اليوم لا تجد ملجـا الا المستقبل ، الا الغد

فباريس منها هى الماضى ، فلا فائدة من سرعة العودة اليها. ولكنها وهى تنزل من العربة ، جريحا تنزف دما ، وان كانت تخفى مواضع جراحها ، وتخفى مايتدفق منها . كانت تسـائل نفسها بشدة : ما الذى حدث حتى فقدت عند هـذا الشعب مكانتها القديمة العالية ؟ هذا الشعب نفســه ، الذى أحبها ، وأقام لها النصب التذكارية ، واستقبلهـا احسن استقبال ، وبقيت عنده أثيرة وقريبة من قلبه

هل أخطأت ؟

ان كل من يراها الآن يكاد يقول ذلك · ان صحف الثورة وخصوصا صحف « مارا » هذا الزعيم الذى أصابت جلده حكة ملتهبة من جراثيم قبو فى مجارى باريس ، لجأ اليه نجاة لنفسه من أعدائه .. هذا الصحفى ، يكاد لايجد له عدوا يرجمه بكل حجر ، وينسب اليه كل نقيصة .. الاها .. مارى انطوانيت نفسها

فهل صحيح انها هى التى جرت الملكية الفرنسية الى هذه



الهاوية ؟ وهل صحيح ان طيشها ونزقها ، واسرافها وبذخها ، وتدخلها فى شئون الحكم ، وكراهيتهـــا « لنكر » ، واقالتها للوزراء الذين يتجرون بسياسة تتملق الشعب وترضاه ، هى التى الهبت الثورة ، وأشعلت نارها ؟

كانت تود أن تقتنع حتى تشعر بأن ما يصيبها عدل ، فتهدأ نفسها قليلا ، ولكنها لا ترى للثورة الا مبررا واحدا ، هو أن الملك ضعيف ، وأن ملوك أوربا جبناء ، لا يســـتطيعون أن يجمعوا جيشا قويا عرمرما ، يدهم الثورة ، ويؤدب زعماءهـا ويعيد الخطباء البرلمانيين ، والمحامين الذين بلغت عدتهـــم أربعمائة فى الجمعية الوطنية أى أكثر من نصفها ، الى شقوقهم ..انه الضعف ، ضعف الملكية الذى أقام الثورة ، وليس قوتها جبروتها . انه تردد الملك والامراء ،الذى أطلق رعاع باريس من عقالهم ، وليس شدتها وحزمها هى .. ولكن للاسف الشديد ليس الامر كله بيدها . فان كان الحال قد ساء فلأنها تنحت ولان المؤامرات حولها والغيرة منها ، والخوف من سلطانها لم تكن لتنتهى

ان كراهية الشعب لها حقيقة ، بل أكثر من حقيقة ، ورغم معرفتها لهذه الحقيقة فانها لا تصدق ما ترى ، وان كان مـــا تراه يخز العين بابر محماة من مظاهر السخط والاحتقار .وهى ازاء هذه المظاهر ، يجب أن تقول أن الشعب لا يكرهها فقط ولا يحتقرها فقط ، ولا يحقد عليها فقط بل انه يضمر ويعلن لها ذلك كله

فكيف تم هذا الانقلاب ؟

كيف تحول الاستقبال الحماسى الذى يفيض حبا لها كلما ظهرت فى مكان عام كمسرح أو موكب او احتفال ، الى هـذه البغضاء الكريه ؟

ان الشعب لم يحسن استقبالها فقط حينما جاءت من بلادها ولم يستول عليه فرح كالجنون حينما رزقت ولى العهد ، وكانما حقق هذا الميلاد رجاء عند كل امرأة وكل رجل وكل طفـل فعوضها هذا عن سنى الخوف والقلق التى قضتها قبل أن ترزق بولى العهد

ولقد استمر هذا الحب ، حب الجماهير لها يزيد وينمـو ثم وقف فجأة

وساءلت نفسها : أكان توقفه عن النمو فجـأة حقـا ؟ أم كانت هناك نذر كثيرة ، لم تلتفت هى اليها ، ولم تتبينها ، لفرط ثقتها فى المستقبل ، وفرحها بالحاضر ، وعجزها عن أن تمنح الاشياء والاشخاص والظواهر والعلاقات ، الا مجرد نظرة عابرة متعجلة ؟

انها لا تذكر سوى شىء واحد ، هو أنها لا حظت أنفى كل مكان كانت تحل به ، كانت تجد الاحترام والتوقير وحسـن الادب • ولكنها آفتقدت فى هذا الاحترام والتبجيل ، الروح والحماسة والانطلاق التى كانت تجدها فى الماضى

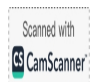
وزاد الاحترام والتبجيل وحسن الاستقبال وحسن التوديع مع الايام برودة ولم تكن تستطيع أن تشكو ، فكل ما ألفت

تقديمه لها من الحكام والرؤساء والناس ، كان يقدم لها ، بنفس القدر . ولكنها كانت تعلم أن الذى نقص ، هو أمر تحس به ولكنه لا يوصف ، تلمحه القلوب لا الاعين . فماذا تفعل ؟ ولمن تشكو ؟ وكيف تشكو ؟

وراح الوجه البارد المؤدب ، الجامد المهذب ، يزداد صلابة ، وتزداد الحفاوة بها فى كل مكان بعدا عن العواطف الشخصية وقربا من المظاهر الرسمية

ولكن مارى انطوانيت ، لامت نفسها لوما شديدا ، لانها لم تلق بالها لهذا كله ، يوم أن بدأ ، واعترفت الآن وهى تهبط من العربة فى « شالون » أن ذلك كان بدء الكارثة ، وتبينت فى هذه اللحظات الكئيبة من حياتها ، أن العلاقة بين الحاكم والشعب أشبه شىء بالعلاقة بين المحبين . ومن مبادىء الحب التى استخلصها الدارسون للعواطف والنفوس ، أن الحب اما أن يزيد أو ينقص ، ولكنه لا يبقى حيث هو أبدا .. وأن الحب اذا أريد له أن يكبر وينمو ، لابد له من وقود يغذيه ، فان افتقد هذا الوقود ، تولى الفتور ، ثم الكراهية ، تقديم هذا الوقود لحسابهما هما ، لا لحساب الحب . وقد كان . تولى حسادها وكارهوها توسيع شقة متفرقة بادىء الامر ، ولا هدف لها الا القضاء على ملكة فرنسا وملكها ، ثم تعاونت فكونت جبهة واحدة ، لم تلبث حتى شملت الشعب الفرنسى كله ، بطبقاته جميعا

ما أشد شعورها الآن بالندم ، فكثيرا ما قدم لها سفير



أمها فى باريس « المسيو مرسى » النصائح ، فكانت تضيق بالنصائح ، وبالسفير ، وبخطابات أمها التى تحمل اللوم المتكرر مع شدة حبها لهذه الام

كان السفير يطلب منها أحد أمرين ، اما أن تحسن لعب هذه اللعبة الشائقة الممتعة والمضنية فى نفس الوقت ، لعبة الحكم ، واما أن تهجرها نهائيا .. ولكن كان ما يطلب منها فى الحالين عسيرا جدا ، ومخالفا لطبيعتها أشد المخالفة

لقد أرادوا منها محاكاة أمها ، التى جمعت فى يدها السلطة وتوفرت على دراسة وسائل تلك السلطة وغاياتها ، فكانت تفنى نفسها فى العمل ، فتقرأ التقارير ، وتقابل الوزراء ، وتسمع كلامهم ، وتنصحهم ، وتلوم المخطىء منهم ، ثم تقابل سفراءها ، وسفراء الدول الاجنبية لديها ، فتسمع وتطيل الانصات ، ثم تبعث عيونها فى الداخل والخارج يأتونها بالمعلومات ، ويجمعون لها الحقائق ، فتحفل بالجدى والهام من الامور ، ولا تلقى بالها لسفاسف الوشايات ، وتوافه الامور الخاصة التى يحب المتزلفون والمنافقون ، وقناصو الوظائف والمراكز أن يتوبلوا بها أحاديثهم ، ويتقربوا بها الى الحكام ، ليرضوهم ويسلوهم ، ويمتعوا غريزة الفضول فيهم

وأنى لمارى أنطوانيت أن تصبر على قراءة التقارير ، وأنى لها الجلد على مقابلة الوزراء الذين يتنافسون فى عرض علمهم والكشف عن فضلهم ، فيصدعون رأسها بالارقام والاسماء ، يذكرونها بما سلف لهم من قول ، وما سبق لهم ابداؤه من

رأى ، وأف لهؤلاء الحكام ضخام الكروش ، عديمى الـذوق فى الملبس ، ثقيلى الظل والحركة ، الذين يفترضون أنهـــا خلقت لسماع شكاواهم وحل مشكلاتهم ، دون أن يخففوا أحاديثهم بفكاهة ، أو يطرفوها بما يفتح شهية السامع بملحة

فاذا أضفنا الى هؤلاء جميعا السفراء ، السفراء الذين يظن بعضهم أنه « دون جوان » لايكاد ينظر اليها بطرف عينه حتى تسقط فى شباك غرامه ، ويظن البعض الآخر أنها طفلة غرة ساذجة ، سيطويها بكلمات معسولة ، فيعرف من أسرارالبلاط والدولة ما ظهر وما بطن

كان « مرسى » سفير النمسا ورسول أمها اليها ، يدعوها الى احتمال هؤلاء ، فلما لم يجد منها اســـتعدادا ، ولم يلق عندها صبرا ، أخذ يشكوها الى أمها ، ويقول أنها تتدخـل فى كل شىء تافه لا قيمة له ، فاذا جد الجد ، وأريد الاعتماد عليها فى أمر ذى قيمة ينفع النمسا أو فرنسا أو ينفعها ، جبنت وأجفلت وفرت من تحمل المسئولية .. هــكذا كان يتهمها ، فى غير مواربة ولا مداراة فى خطاباته الى أمها .. وقد كانت تعلم بوسائلها تارة ، وعن طريق خطابات أمهـا اليها تارة اخرى ، ما كان يكتبه ذلك السفير الغليظ اللجوج الذى يدس أنفه فى شئونها ، ويعكر صفو حياتها ، بدعوى الحرص على مصلحتها ومستقبلها

ومن يدرى ؟ فقد يكون الاستماع اليه علاجا للحـالة التى تفاقمت حتى أفضت الى ما انتهت اليه .. سجينة فى عربة

تتنفس الصعداء حينما يسمح لها بأن تبسط ساقيها قليلا أو ان تقضى ليلة فى رحلة عودتها الى سجنها فى التويلرى أو فى غيره من القصور أو القلاع !

ولكنها فى الحقيقة لم تستطع أبدا أن تسلم بأن ماكانت تفعله كان تدخلا فى الصغيرة والكبيرة ، وافسادا للحكم ، وهى لم تكن تشغل نفسها الا بتقديم بعض السفراء للدولة وترشيح بعض الوزراء فى الحكومة ، واختيار بعض الحكام

ونشهد الله أنها لم تختر الا من كانت ترى فيهم الخير والصلاحية • وهى ما رأت أحدا من مرشحيها الا وجدته افضل من هؤلاء الاغبياء الذين كان يقع عليهم اختيار سواها من وزراء الملك أو ناصحيه •• لم ترهم أغبياء، لاتفوح من أردانهم الا رائحة البلادة والتنطع ، والبخل الذى يسمونه اقتصادا

انها لم ترض مثلا عن ترجو وزير المالية ، ولا عن نكر هذا المصرفى السويسرى الذى تكدست الاموال فى خزائنه ، ابان تعامله بالمال فى جنيف • وكان الناس يصرخون ، وتشق مرارتهم سخطا على أولهما وثانيهما • فماذا فعلوا ؟ اقترحوا أن تفرض الضرائب على جميع طوائف الامة كافة ، فلما رفض الاشراف وأمراء الكنيسة ، لم يكن ثمة حل لهذا الاشكال الذى خلق ولم يكن موجودا ، الا أن تدعى الجمعية الاهلية التى لم تعقد منذ نحو قرنين ، فلما اجتمعت ، كان ذلك ايذانا ببدء الثورة ، والقاء الحطب فى نارها ، فاشتعلت وزادت

على مر الايام ضراما . فلما أتت على الاخضر واليابس أو كادت اعتبرت هى المسئولة ، وحملوا نزقها المزعوم ، وطيشها المشهور ، مغبة نتائج غبائهم هم

نعم .. كانت تعرف أن الهمس الذى علا وأصبح صياحا لم يكن له الا هدف واحد ، هو تلطيخ سمعتها ، وتحميلها مسئولية كل ما تقاسى منه البلاد ، كأنها صنعت للبلاد قوانينها ، ووضعت لها سياسة اقتصادها ، ورسمت لقادة الحرب والسياسة مناهجهم

اهتزت مارى انطوانيت عندما نظرت الى زوجها ، ينزل وراءها ، بجسمه الثقيل ، وخطوه البطىء ، فكأنما رأت فى شخصه سياسة أعدائه مجسمة . فقد كانت لعبتهم المفضلة أن يصفوه بالسذاجة والبساطة ، ليحملوها هى وحدها تلك المسئولية ، فيضربوا عصفورين بحجر ، بأن يثبتوا أن الملك فى ذاته لا يصلح ، وأنها هى المسئولة عن كل شر . اللعبة التقليدية المفضلة فى مناورات السياسة . اتهام من حول الملك ، واظهارهم فى أسوأ صورة ، مع ادعاء براءته ، والاسراف فى هذه البراءة ، لينفوا عن أنفسهم عند الاقتضاء نية التمرد على صاحب السلطة الاعلى ، بل ليسجلوا على العكس ، حبهم له ، واعترافهم بطهارة يده ، والصاق العيب بغيره

لقد كانت لعبة مزدوجة ، وقد أثمرت ثمرتها ، وآتت أكلها لان الملكة كانت ثقتها بنفسها أكثر مما يجب ، وفهمها للامور أقل مما يجب

الفصل السابع

ما أعظم متناقضات الحياة ٠٠ !

ان الثورة التى تطلب رأس الملك والملكة ، أو التى تطلب على الاقل الاطاحة بسلطتهما ، واحلال سلطة الشعب محلها لم تجد أول الامر من ينفخ فى نارها ، ولا من يدفع سفينتها بكلتى يديه ، وبكل قوته ، الا من جرى فى عروقه دم ملكى

نعم ، لقد كانت عمات الملك فى قصرهن الجميل « شاتودى بيل فى » أول من راش سهامه الى صدر مارى انطوانيت ٠ فكان هذا القصر هو المعسكر الاول من معسكرات الهجوم المباشر على الملك والملكية ، وتبعته بعد ذلك بقية المعسكرات

وكان المعسكر الثانى هو قصر « الباليه رويال » حيث يقيم الامير الخفيف الطائش ، دوق دورليان ، الذى جعل من قصره ناديا لكل ساخط على العرش من الامراء والنبلاء وأصحاب المقامات الرفيعة فى البداية ، ثم لكل ساخط من كل طبقة فيما بعد ، ففاضت الثورة فى أبهاء القصر وقاعاته وردهاته وفى حجراته المعتمة

وكان المعسكر الثالث ، قصر اللوكسمبرج حيث يقيم شقيق الملك ، شقيق الملك ذاته « الدوق دى بروفانس »

وبين هذه القصور الثلاثة قام تعاون خفى ، ثم أصبح تعاونا علنيا

وهكذا لا يشيخ نظام ويفقد مبررات وجوده ، حتى يعمل المتسببون أليه ، والمنتفعون بجاهه ، على هدمه ، ان عمدا وان جهلا • ولكنك لا تجد الدليل على صدق هذه النظرية أقوى ، ولا أكثر اقناعا ، كما تجده على صفحات الثورة الفرنسية

لقد ذكرت مارى انطوآنيت عمات الملك الثلاث ، لقد اختفين من مسرح قصر فرساى فلجأن الى قصرهن « بيل فى » ولم يعد أحد يذكرهن ، وعشن فى عزلة باردة ، ووحشة متصلة ، لاعمل لهن الا أن يتابعن قفزات مارى انطوانيت نحو الشهرة ، وغزوآتها لقلب الشعب • ثم يعمدن فى صمت قاتل وحسرة مميتة الى اجترار حقدهن

وكان عزاؤهن أول الامر أن مارى انطوانيت لن تلد ، فقد طالت السنون دون أن تحمل ، وعلى الرغم من أن العيب ليس عيب مارى ، الا أن الحقد لا يعرف سببا ولا نتيجة انما يتلمس ما يشفيه ، ويخفف أوجاعه

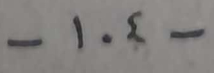
فلما حملت ووضعت بنتا ، زادت آلامهن ، ولكن كان لا يزال هناك أمل فى الا تحمل بعد ذلك فيبقى الملك بلا عقب من الذكور • فلما وضعت الملكة غلاما ، زادت عزلتهن قسوة وبقى قصرهن خاليا خاويا ،لاتطؤه قدم ، ولا يعرف الطريق اليه انسان ، فقد بلغت الملكة قمة القوة والنفوذ بنوعيه :

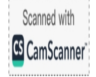
الحب من الشعب ، والسيطرة على الملك .. وكان الهتاف للملكة أينما ذهبت ، يكاد يمزق نياط قلوب السيدات الثلاث ويخرق صمام آذانهن

ولكنهن لم يفقدن الامل ، فقد كان طيش مارى أنطوانيت ونزقها وأسرافها وتدخلها فى شئون الدولة ، وتقريب الرجال وابعادهم ، وتعيين التافهين بدل الاكفاء ، وخلق طبقة محظوظة تملك وحدها النفوذ ، وتوزع المناصب ، وترسم شئون السياسة ، والاقتصاد ، دون جميع الامرآء والنبلاء ، ورجال الطبقة المتوسطة الناشئة ... كان ذلك كله يبعث الامل فى قلوب العمات ويدفئه ، ويؤكد لهن أن ما ينتظرنه ليس بعيدا، فحال كهذا لا يمكن أن يدوم ، وهتاف من الشعب لا يقاوم حقائق الفساد التى تعمل فى الاساس ، كما تعمل قطرات الماء المتتابعة فى الصخر

وأشرق فجر الامل على قصر « بيل فى » فقد بدأ الكيل يطفح وبدل أن تنتقل الملكة وهى فى قمة مجدها الى باريس ، وتترك قصر « تريانون » الذى عاشت فيه فى جو من البذخ بعيدة كل البعد عن الشعب وآلامه ، وما يجرى بين الناس وما يدور على ألسنتهم ، بدلا من ذلك ، أصرت على سياستها ، فرفعت أسباب السخط رأسها قليلا ، قليلا ، وظهر أثر ذلك فى قصر « بيل فى » الذى كان عنكبوت النسيان والاهمال قد نسج عليه خيوطه

بدأ عدد المترددين على القصر يزيد . فكل سيدة تخطاها





رؤساء البروتوكول فى قصر فرساى الملكى ، فلم تــدع الى حفلاته ، قصدت فى التو الى قصر « البيل فى » حيث تتلقاها الاذرع المفتوحة ٠ وكل رجل خاب أمله فى الوصـــول الى منصب كان ينتظره ، استحث عربته فى الحال لتصـــل الى القصر المنشود ، فيجد ترحابا وحسن استقبال ٠ وكل من ذهب الى قصر فرساى فأسىء استقباله ، أولم يلق ما يطمع فيه من عناية ورعاية ، يمم وجهه شطر « المبـــكى » حيث يجد فى « البيل فى » من أمثاله من يشاطره الالم أو يبـادله العزاء ٠ وكان هم رواد القصر أول الامر مجرد الشـــكوى ، ثم تحولت الشكوى على الايام ، حسرة على عهد التقى والورع الذى ولى ، عهد الملك السابق والملك الاسبق ، وهو تقى وورع يعلم التاريخ ، أن لا وجود له ٠ ولكن من ذا الذى يصـــحح للشانئين والحانقين ، وقائع التاريخ

واستمرت أسهم مارى أنطوانيت فى الهبوط ، وتغير تبعا لذلك دور « البيل فى » ولم يعد سلبيا يشكو ويتحسر ، بل أنه الآن يجمع الفضائح ، فمامن فضيحة وقعت ، أو ستقع ، أو يمكن تصور وقوعها ، الا ذكرت ، ثم لا تلبث حتى تنمو وتكبر وتلد غيرها ، وغيرها يلد غيرها ، وهكذا

وزادت الكراهية للملكة ، فغير قصر « بيل فى » دوره فى الحال ، وأصبح لا يقتصر على تجميع الفضائح ٠٠ بل لابد من اعدادها للتوزيع ، والاستهلاك الشعبى ، فكانما كانت تعبا فى زجاجات ثم تتناقلها الايدى ٠٠ وفى أقل من لمح البصر

تولد الفضيحة ، ثم توضع فى صيغتها المناسبة ، متوبلة مملحة ، فاتحة للشهية ، سائغة للهضم ، داعية الى الابتسام والضحك . ثم تخرج من المعمل ، ليتولى عمال التوزيع الانتقال بها ، أولا فى قصور الامراء والاميرات ، ثم قصور من يليهم مقاما وغنى ، ثم فى المجتمعات والاندية ، وأخيرا على أفاريز الشوارع ، وعلى ألسنة الجائعين الذين يعصر الجوع أمعاءهم ، ويهرأ البرد أبدانهم

وقد كثر انتاج المصنع ، حتى أتقن خبراؤه هذا الفن الجديد وعرفوا كيف يضيفون عنصرا من هنا ، الى عنصر من هناك ليكونوا « الوصفة » الناجعة . فمن الوصفات ما يرضى الشعب ومنها ما يرضى رجال الدين ، ومنها ما يرضى الاغنياء ، ومنها ما يرضى المفكرين المثاليين ، ومنها ما يضحك فقط كمجرد ملح .. ! واختفت الحقائق تحت هذه الطبقات المتتالية من الاكاذيب ، واختلطت هذه بتلك ، حتى لم يعد أحد يعرف ما هو الحق وما هو الباطل

ذكرت مارى أنطوانيت هذا فقالت لنفسها : « حتى أنا لم أعرف ماذا فعلت وماذا تركت . من هم عشاقى ، فلى جيش عرمرم من العشاق ، لو أصبح يومى أسبوعا لما استطعت أن ألقاهم مجرد لقاء .. دع عنك ما نسجته لى الاشاعات من مغامرات يحتاج كل منها الى أيام لتدبيرها ثم لتنفيذها » .

.. وسرحت مارى أنطوانيت طويلا عندما سمعت كلمة « اشاعات » واستأنفت حديثها لنفسها قائلة : « أى سلاح

بتار هذا السلاح ! ما أكثر الشر الذى لابــد أنه كامن فى النفس البشرية ، والذى بغيره لا يمكن أن يخلق هذا السلاح ولا أن يجهز على ضحاياه بهذه السرعة »

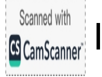
واستمرت الملكة فى تأملاتها :

« تخرج الكلمة من فم الانسان ، وكأنه على صلة بملايين الالسنة ٠ فهى تقفز من هنا الى هناك ، ومن بيت الى بيت ، حتى تصل الى هدفها ٠ فاذا أطلقت كلمة الخير ، لصقت فى مكانها لا تتحرك ، وكأنها ماتت فى فم صاحبها

« ثم من ذا الذى يســتطيع أن يواجه الاشـــاعات ويقف أمامها ٠٠ انه لو أراد لوجب أن يستحيل روحا محلقة ، لان من يتسلح بالاشاعات ، لا يظهر ، ولا يعرف له أحد مـكانا ولو جمعت كل الذين سمعوا الاشاعة ورددوها ، وسألتهم عن مصيرها ، لعجزوا جميعا عن الارشاد عنه ، فهى تمامــا كالحشرات ٠ كالذباب والخنافس ، لا تجد مستنقعا ولا مكانا قذرا ، حتى تخرج منه وكأنها ولدت نفسها »

ورد هذا التشبيه الملكة الحزينة الى صوابهـا ، وزاد فى حقيقة الامر ألمها ، فالاشاعات فعلا كالهوام والحشرات ، لا تولد الا حيث تكون القذارة ٠٠ فالسبيل الى مقاتلتها لا يكون بمواجهة كل حشرة على حدة ، ولا بابادتها جميعا ، فستحل غيرها محلها ، انما السبيل الى ذلك هو أن تحل النظافة محل القذارة

حسنا ٠٠ هل كان الدوق دورليان هو النظافة ؟



سألت الملكة نفسها هذا السؤال ، ولو أردنا الحقيقة ، لقلنا على الفور ، أن الدوق كان بين الوصوليين فى الصدر وكان مع وصوليته الصارخة خفيفا غاية الخفة . فكان قصره لونا آخر من المصانع التى أعدت أسلحة الهدم فى النظام الملكى وعجلت بثورة كاملة فى فرنسا ، وهو يحسب أنه يشق لنفسه طريقا ملكيا الى العرش ، ولم يتبين سوء تقديره ، الا وهو على نطع الجلاد ، يتهيأ لجز رأسه

ومع ذلك فان دوق دورليان جدير بأن نتأمله ، ونتأمل خصائصه .. لقد شمل الشعب سخط تزايد على الايام ، والملكة والملك لا يشعران ، أو على الاقل لا يريدان أن يشعرا

كان هناك من يريد تغيير النظام . من تائق الى حكم أكثر نظافة أو الى توزيع أكثر عقلا للمسئوليات . ولكن هؤلاء جميعا ، كانوا فى حاجة الى نقطة يجتمعون عندها ، والى شخص يلتفون حوله . وقد وجدوا النقطة والشخص . وجدوا النقطة فى قصر « الباليه رويال » ووجدوا فى الدوق دورليان ، صاحب القصر ، الشخص الذى يلتفون حوله

ولم يكن الدوق دورليان رجلا جديرا بهذا الشرف ، فقد كان رجلا متأنقا ، مسرفا ، مقامرا ، تافها ، وكان أميل الى التمتع بالحياة منه الى الطموح الذى يكبده عناء . فضلا عن انه لم يكن على شىء من الكفاية ، ولا حتى القدرة على الاذى .

مجرد فقاعة طفت على سطح الظروف فى ذلك العهد ، الذى اضطرب له البحر ، فخرج كل ماكان فى أعماقه من أصداف ، ولآلىء . ولما كان من أبناء الطبقة الاستقراطية ، وكان بلا كفاية ، فقد شغلته المظاهر ، وشاء سوء حظ مارى انطوانيت انها طعنته فى ناحية الضعف منه اذ انه كان يمنى نفسه بمنصب الاميرال الاول فى فرنسا ، فلما حرمته منه ، اعتبر أن الحرب أعلنت عليه ، وان من واجبه ان يدفع عن حماه . وانتظر الفرصة السانحة ليرد الطعنة بمثلها . ولم يطل الانتظار ، فقد جرت انتخابات الجمعية الوطنية ، وعقدت فى ٥ من مايو سنة ١٧٩١ ، وأصبح الاشراف كأفراد أية طبقة أخرى يحسبون فرادى لا جماعات ، وآلى على نفسه ان يكون فى الجهة التى تعادى الملك ، فاختار مكانه مع الطبقة الثالثة ، وأخذ يؤيد كل اتجاه نحو المبالغة والمغالاة فى مطالب الثورة

وفى بيته جاء خصوم البيت الحاكم ، بيت بوربون ، والاصل المتفرع عن البوربون ، هابسبرج ، وخصوم الملكية المطلقة ودعاة الديموقراطية ، فأسبغ عليهم حمايته . ومن هنا ، ومن حيث لايحتسب أدى للثورة ، وللشعب ، يدا عظيمة . فقد كان بيته النادى الاول للثورة ، اجتمع فيه الامراء ، وانصار فولتير ، والجيروند ، والماسونيون . وفى هذا الخليط العجيب ، وجدت عناصر اخرى طريقهـا الى القصر ، أمثال المدينين المفلسين ، وطالبى الوظائف الصغيرة الذين سدت فى وجوههم ابواب الرزق ، والمهيجين ، والمهرجين الذين كانوا نواة فرق

الهجوم للثورة ، والذين خدموها أيضا من حيث لايحتسبون

ولما كانت الجمعية الوطنية تضع الدستور ، واقترح ان يكون للملك حق « الفيتو » أى حق الاعتراض على القوانين ، فتح خزائنه واخذ ينفق بسخاء على تدبير المظاهرات ضد « الفيتو » . وكان كثيرون ممن هتفوا ضد هذا الحق ، لا يعرفون ماهو « الفيتو » الذى يهتفون ضده . ولم يفعل دوق دورليان ذلك حبا فى الشعب ، ولا حرصا على مصالحه وسلطاته ، ولا كراهية فى السلطة المطلقة ، بل كانت غايته ان يحرج الملك ، وان يقرب أيامه

ولما بدأ الخبز يشح فى الاسواق ، اشترى الدوق كميات من القمح أخفاها فى مخزنه ، لتزداد الازمة شدة ، وقد اشتدت فعلا ، وذهبت جموع من النساء الى فرساى ، حيث الزمت الملك والملكة بالعودة الى باريس ، بعد ان كادت تفتك بالملكة وبالعائلة المالكة لولا تدخل قائد الحرس الوطنى ، الجنرال لافاييت

على ان اخطر المعسكرات على الملك ، وعلى الملكة ، كان رجلا آخر يسكن قصرا آخر ، ولم تكن مارى أنطوانيت تحب أن تذكره حتى فى أيام الرخاء ، فقد كان مجرد تذكره يدعو الى انقباض نفسها ، والشعور بالخوف المزوج بالاشمئزاز . ومع ذلك فلم يكن هذا الرجل ليفتح فمه بشىء ، ولم يكن يتصل بجماهير الشعب ، ولا يكثر من الحركة . كان رجلا صامتا ، يحسن قفل فمه . وكان رجلا وئيدا يبدو فى المحافل الملكية ،

وفى قصور الامراء ، كأنما هو شبح . ومع ذلك فلم يكن يرفع عينه عن الملكة وحركاتها ، ولم يكن يكف عن الامل فى ان تنتهى ايامها وايام الملك ، وهو بعد ليس سوى شقيق الملك .. الدوق بروفانس

لم يكن يطيق أن يرقى لويس السادس عشر العرش دونه . كان يرى فيه غباء وضعفا وعجزا . وكان يرى فى نفسه كفاية وقدرة وأهلية . وكان يرى الملكة أداة أجنبية مخربة ، وكان يؤمل فى ان ينتج عجز الملك ، وطيش الملكة ، النتيجة المأمولة ، وهى ان يرقى هو العرش . وكان سند امله ، ان الملك عاجز عن أن ينجب فلما رزق الاولاد ، تبنى الاشاعة القائلة بأن الملك ليس له فى هؤلاء الاولاد الا مجرد الاسم وتحمل مسئولية عمل الغير

وكان الدوق بروفانس لطموحه ، وطمعه المحدد الواضح ، حريصا ، لا يرتبط بالرجعيين خصوم الشعب ، ولا بالثوار خصوم الملك ، فهو بينهما ابدا كرقاص الساعة ، وهؤلاء يحسبونه منهم ، حتى وطنوا أنفسهم على وجوده فى معسكرهم ، ثم وجدوه يبعد ويبعد حتى فقدوا الامل فيه ، ثم لم يلبث أن اقترب واقترب حتى عظم الرجاء . وهكذا دواليك فى حركة دائبة ولكن هادئة

فلما وقعت الثورة ، وأصبح السخط على الملك حقيقة لا سبيل الى انكارها ، أخذ يعقد بقصر « اللوكسمبرج » حيث يقيم ، مؤتمرات مريبة ، لا يعرف أحد ماذا كان يدور فيها

ذكرت مارى انطوانيت كل هذا ، وذكرت معه ماكانت تتهم به الدوق بروفانس ولم تستطع ان تقيم الدليل عليه . ذكرت هذه الحرب التى سلطت عليها نيرانها ، وكانت اقسى ماكابدته من حروب .. حرب النشرات السرية

لقد كانت الاشـــاعات ، تلك التى تطلق الكلمات المجنحة ، فتقطع المسافات ، وتدخل البيوت والاندية ، حربا قاسيـة مدمرة ، ولكن حرب المنشورات كانت أقسى وافظع

كانت المنشورات تعد ، منطوية على أقبح السباب فى الملكة، حاوية لاتهامات تتناول عرضها ، وحياتها الخاصة ، وذمتها ، وذمة الذين حولها . وكانت الايدى تتداولها تحت المناضد فى الحفلات والاندية ، وتخبأ عند مداهمـة غريب طارىء ، فى صدور السيدات اللواتى كن يحرصن على اقتنائها ، سرا عند الخوف ، وجهرا عند الطمأنينة ، وقد تحركت فيهن غـرائز الفضول ، كما تتحرك الكلاب الجائعة . هل كان الدوق بروفانس، هذا الشبح المتلصص الذى يسترق الخطى ، ولا يبدو على وجهه ابتسام ولا تجهم ، والذى لايفتح فمه ، ولا يبسط لسانه بكلمة نقد ، والذى يحيى فى أدب ، ويصم أذنيه عن كلمة العيب اذا قيلت فى حق زوجة اخيه . هل كان هو المشرف على حركة هذه المنشورات ؟ هل كان يسرق الوثائق الرسمية ، وينقـل خطابات الدولة بفضل نفوذه ومكانتـــه ، ليضمن منشوراته فقرات منها ؟ كانت مارى انطوانيت تؤكد ذلك لنفسها ، وتؤكده لمن حولها ، ولكنها لم تنجح ابدا فى أن تقيم دليلا على ذلك . وانى

لها الدليل وعدوها رجل حريص ، لا يكشف نفسه ، ولا يمكن عدوه منه

لقد وصلت هذه المنشورات الى الامراء والى نساء ورجال الحاشية ، واخيرا وصلت الى مارى انطوانيت نفسها ، وكثيرا ما كانت تأخذ مقعدها على المائدة وترفع « الفوطة » ، لتجد تحتها منشورا مقدعا . وكثيرا ما ذهبت الى فراش نومها لتنام فتجد تحت الوسائد منشـــــورات من نفس النوع . فمن الذى وضع هذه المنشورات فى هذه الاماكن الحصينة البعيدة عن متناول الثوار ؟ انها تنظر فيمن حولها فلا تجد الا وجوها صامتة كالعهد بها ، لا تختلج باحساس واحد ينم عن خبيئتها ، او يكشف عن طويتها .. الجميع فى خدمتها لا يتـأخرون عن تلبية اشارة من اصبعها . وهى لا تملك ان تقول لواحدة او لواحد منهم أنه قصر فى شىء .. ومع ذلك فلا يمكن ان تصل المنشورات حيث تصل الا عن طريق هؤلاء الاتبـاع الامناء ، وهؤلاء الخدم الاوفياء

ولقد اتخذت هذه الاشاعات وتلك المنشورات ، ابنة لهما ، اكثر فتنة ، وأبقى اثرا .. تلك هى الاغانى التى تدور كلهـا حول علاقات الملكة بعشاقها ، وحول ولادة ابنها ولى العهد .. وقد كانت هذه الاغانى تصل الى سمعها ، وهى تفتح نوافذ قصرها الانيق قصر « التريانون » فتوصد النوافذ ، وتعـدو الى الداخل ،لتجد منشورا ، فتهبط الى صالون من الصالونات، فتسمع باذنها بعض الوصيفات يروين اشاعة من الاشاعات ،

وهن يكدن ينفجرن من الضحك . نعم ، فلم يعد ترديد هذه الاشاعات فى قصر الملكة نفسها جـرما ، مادام ترديده مقترنا بعبارات تدل على استنكار القائل والسـامع ، ولو ان القائل يقولها ليضحك السامع ، والسامع ينصت اليها ليضحك

كانت مارى انطوانيت تذكر هذا ، وهى تؤكد لنفسها انها لم تكن ضحية عمل أتته ، او خطأ ارتكبته . فقد أحبها الشعب دون ان تفعل شيئا ، وكرهها دون ان ترتكب جرما . بل انه أحبها لانها كانت تستحق الحب ، وكرهها لان خصومها اجتمعوا عليها ، فنسبوا لها مالم تفعـــل ، وحاكوا حولها خيوطا من الشكوك والريب كان مصدرها أحقادهم وأطماعهـم . فهى والشعب ضحيتان لاقوام لايفـــكرون الا فى مصلحتهم ، ولا يعملون الا لها

فيالها من مسكينة تعسة لا ذنب لها !

ويا للشعب من ضحية لا حول لها !

وأحست بدوار شـــديد ، حتى لكأن الارض تميد تحت قدميها ، ولاحظ « برناف » ذلك ، فمد يده نحوها وهى تتعثر فى خطاها ، فشكرته بايماءة من رأسها وهى تزم شفتيها ، ثم قالت وكأنها تجود بآخر نسمـــات الحياة : « شكرا .. كل ما أحتاج اليه هو النوم »

الفصل الثامن

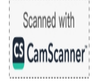
اصبح الصباح على السجناء والسجانين فى مدينة « مو » ، وفتحت مارى انطوانيت عينيها بعد نوم لم تعرف كيف تسميه .. هل كان نوما ، أم موتا ، أم غيبوبة ؟ . فلقد ذهبت فى سبات عميق ، ولكنها عندما افاقت لم تحس بأنها نامت حقا ، ولم تشعر بهذه الراحة التى يحس بها النائم حين يستيقظ ، بل شعرت وكأنها تعود من عالم بعيد ، لا تعرف كيف تصفه ، الى عالم جديد لا تحب ان تكون فيه ، وان كانت لا تعرف ماذا هو ، ومن هم أهله ؟

اين هى ؟ بل من هى ، ومن هؤلاء الذين هم معها فى نفس المكان ، والذين رأتهم يحيونها وكأنما يعرفونها ، ويحدثونها وكأن بينهم وبينها صلات ود عميق ؟

هذا الشاب الذى يبدى لها عطفا ، ويوجه اليها الخطاب فى رفق ، ما اسمه ؟ وما صناعته ؟ وأين التقت به ؟

انها بالتأكيد تعرفه ، وقد لقيته قبل اليوم ، ولكن متى ؟ وفى اية مناسبة ؟ ولاى سبب ؟

هل فقدت عقلها ، او على الاقل ذاكرتها ؟ انها لا تستطيع ان تستعيد شيئا من احداث امسها ، ولا تستطيع ان تفكر فى



شيء من مستقبلها

ان كل ماحولها سحب متكاثفة ، ترى الناس من خلالهـــا كالاشباح ، والاصوات تأتيها ، وكأنها رطانة غريبة لم تالفها اذنها

هل هذا زوجها ؟ .. انه يخاطبها بهذه الصفة ، ولكنهـــا لا تحس ان بينها وبين هذا الرجل شيئا مما يكون بين الازواج .. ثم ، ما هذا الذى يضعه فوق رأسه ؟ وما هذا الثوب الذى يلبسه ؟ انه ثوب كبير الخدم فى منـــزل شريف من أشراف فرنسا ، فمتى تزوجت هـــذا الرجل ؟ ومع ذلك فان ثيابه الداخلية التى تطل من فتحة سترته الخارجية قذرة ، كأنه لم يعرف الماء منذ شهور .. ما هذا البــلاء الذى لا تعرف له نهاية ، ولا تدرى له سببا ؟

ان الناس الذين حولها والذين لا تعرفهم ، يحدثونها باحترام، ومع ذلك فكل ما يتصل بها لايدعو الى احترام ، فهى تلبس ثياب وصيفة ، ولكن سيدة تلبس ثياب الشرف والمكانة العالية تخاطبها بلقب صاحبة الجلالة ، وتنحنى لها انحناءة فيها من الاشفاق عليها ، أكثر مما فيها من الاحترام

أما هذا الغلام فهو ابنها بلا شك ، وكذلك هذه الفتاة هى ابنتها . ولكن مابالها لا تشعر بالحاجة الى الصاقهما بها ، ولا بالرغبة فى تدليلهما ، بل انها لو خيرت لطلبت ابعادهمـــا عن ناظريها . انهما يذكرانها بشيء لا تعرف كنهه ، ولكنها تحس انه شيء كريه الى نفسها

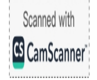
ربما كان مرآهما يذكرها بأنها ضعيفة لا حول لها ، وانها لا تملك لهما ، ولا لنفسها نفعا ولا ضرا .. انها مثلهما فى كنف سواها ، هو الذى يتصرف فى امرها دون ان يسألها الموافقة . وغريزة الام تحملها على أن تبسط رحمتها ، وجناح رعايتها على الاولاد ، فاذا كانت هى مهيضة الجناح ، فما أضيع الاولاد، وما اوجع النظر اليهم

وبعد ، هل تستطيع ان تسترسل مع هذه الخواطر الكئيبة الغامضة ، وهل تملك الوقت الذى تضيعه فى تأمل حالها ، وتبين موقفها ؟ يبدو ان ذلك كذلك بات أمرا عزيزا .. فلابد أن تتهيأ للرحيل من هذا المكان المجهول الى مكان مجهول آخر ، فالظاهر ان « المجهول » قد استولى عليها ، فأصبحت ملكا له

ولما أشرقت الشمس وشمل الضوء المكان ، زادت الامور لها وضوحا ، وأحست اولا انها متعبة منهكة .. وان كل عضو فى جسمها يكاد ينفصل عن سائر الاعضاء . وانها مجموعة من العظام المتناثرة والاشلاء المبعثرة . ولكن لابد من عزم حازم ، لتجمع هذه الاشلاء جمعا سريعا ، لتقف على قدميها

وجمعت أعضاءها المبعثرة ، او اشلاءها المتناثرة . فأصبحت كائنا حيا متماسكا .. وبقى ان تدب فى هذا الكائن حرارة العزم والارادة

وفى لمح البصر عادت الى مارى انطوانيت ذاكرتها التى كانت قد تفتتت تحت ضربات التعب ، والمهانة ، والحاجة الشديدة الى النوم . فعرفت انها مارى انطوانيت ، ملكة بلا ملك وسيدة



بلا سيادة .. وانها فرت من مصيرها ، فتبعها هـذا المصير ، واعادها من « فارن » حيث كانت موشكة ان تنجو

وذكرت أن ناظر محطة ذا حزم وارادة ، هو الذى فعل ذلك ، وانه هو الذى ألزم عمدة فارن ان يبقيها فى بيته ، حتى انكشفت محاولة فرارها ، فتجمع الشعب حول بيت العمدة ، فعرفت شخصيتها ، وها هى فى طريق العودة الى باريس

وان اثنين من أعضاء الجمعية الوطنية فرضا عليها ، فركبا معها العربة . وانها الآن فى المرحلة الاخيرة الى باريس

وفجأة ذكرت « برناف » هذا الشاب الذى تحدث اليها فى العربة ، وتناقشت معه ومع زميله « بثيون » ثم استأنفت معه حديثا على انفـــراد ليلة أمس فى « مو » . فأحست انه رق لحالها ، ثم تأثر بمنطقها

لقد كان يحسبها مخلوقا لايمكن التحدث اليه ولا التفاهم معه ، وان رأسها كجوزة الهند الخاوية . قد يـــكون موشى من الخارج بالذهب ، ولكنه لا ينطوى فى داخله الا على أفكار عفنة ، ومبادىء قوامها احتقار الناس . فوجد عندها أشيـاء غير ما كان ينتظر .. لقد صارحها بذلك

فلما ذكرت مارى انطوانيت « برناف » أضاءت ابتسامة على شفتيها ، وقفزت من سريرها ، كالعهد بها حينما كانت تتقلب فى أعطاف النعمة . وبعد قليل ، كانت مستعـــدة لان تستأنف حديثها مع صديقها « برناف »

تناولت طعام الافطار بشهية ، وبدات نبرات صوتها الجميل ،



تشيع فى المكان الذى آووا اليه حياة . واجتمع اعضاء الركب كله حولها .. ثم جاء « برناف » فاستقبلته كصديق

ولا يجب ان نخفى عن أنفسنا ان « برناف » كان سعيدا كل السعادة بهذا كله ، فقد كان محاميا وفد الى باريس من الريف ، وكان مخلصا ، ميالا الى تصديق الناس ، مثاليا . ولم يكن عرف من النساء من هى فى دهاء مارى انطوانيت ، ولا فى سحر حديثها ، ولا فى حلاوة صوتها ، ولا فى حيويتها وبراعتها فى اصطياد الرجال

فلما لقيها فى الصباح ، ظن انه سيكمل الغزوة السياسية التى بدأها فى العربة ، والتى كادت تكمل فى المساء قبل النوم . فان الملكة قالت له فى الليل قبل أن تنام ، وعيناها شبه مغمضتين: « اننى لم أكن افهم الثورة على هذه الصورة . ان الثورة شىء معقول ، وأهدافها ليست جهنمية كما أوحت صحف مارا وأمثاله »

وفرك « برناف » يديه فرحا وهو يذهب الى فراشه ، فقد أسعدته فكرة كسب الملكة لمبادئه ، واقناعها بأسلوب من الحكم نظيف ، توزع فيه السلطات توزيعا عادلا بين الملك والبرلمان . وادارة موحدة لفرنسا ، تزول معها الفواصل بين المقاطعات والاقاليم الفرنسية . مع نظام عادل للضرائب لا تنفرد بتحمل اعبائه الطبقات الفقيرة . وعناية خاصة بتعليم الشعب ، وفتح الوظائف فى الجيش والحكومة والكنيسة لابناء الطبقات العاملة والمتوسطة والغاء مناصب البلاط الزائدة عن الحاجة ، وقصرها

على ذوى الكفاية والسمعة الحسنة ، وازالة الحواجز بين الملك والشعب ، وبين العائلة المالكة جميعا والناس . وضرب بيد من حديد على البذخ والاسراف ، وقضاء مبرم على الامتيازات التى تجعل الاشراف والاغنياء عبئا على الامة وخزانتهـا . واعادة النظر فى ديون الدولة وسياسة قروضها . وتوفير القمـح والدقيق وأقوات الفلاحين والفقراء . واهتمام بصناعة البلاد التى تخلفت عن صناعة بريطانيا بغير مقتض ولا داع

وبالجملة هو برنامج اصلاح شامل ، كانت مارى انطوانيت تؤيد كل فقرة فيه ، وتضيف اليه وتؤمن عليه

لقد قربت الشقة بين الثورة والملكة !

تلاقى النقيضان .. وتقارب البعيدان ، بفضل فصاحة محام من الريف ، جمعته الصدفة المحضة برأس الارستقراطيـة فى فرنسا ، سليلة هابسبرج وقرينة رأس البوربون ، وعـدوة الاصلاح ، والدستور ، والشعب

وردد برناف الحجج التى اقنع بها الملكة ، فسكر بخمـر فصاحته ، ورأى انه يستطيع بهذه الفصاحة الرنانة ، ان يخدم الثورة والشعب خدمات جلى !

ولكن كيف ؟

ليس بالاطاحة براس هذه الملكة ، كما كان يتمنى منذ يومين ، ولا بالقضاء على الملكية كلهـا ، كما كان يؤمن .. ولا حتى بتجريد الملك من سلطانه والابقاء عليه كمجـرد رمز .. بل باحداث حكم متزن تتعادل فيـه السلطات ، وان كانت كلمة



الشعب فيه هى العليا ، لانه مصدر السلطات ، واســـاس الحكومة .. وهو البداية والنهاية

لكن بقى شرط واحد .. هو ان تتعظ الملكة بالماضى .. فلما طلب اليها ذلك ، أعلنت توبتها عن كل ماحدث

ولكن ما الضمان ؟

الضمان أن يوجد الى جوارها مستشار قلبه مع الشعب ، ينبع من هذا المعين ، وينحدر من هذا الاصل • مستشار كابد الفقر ، ورأى كيف يتقلب الفلاحون والعمال ، على جمر الحاجة والخوف من السلطان • ورأى آباءهم يتضورون جوعا ، ومع ذلك تنتزع من أفواههم لقمة العيش ، لتعطى لجباة الضرائب لتعيش الملكة فى قصر التريانو أو فرساى ، وليكون للامراء قصور ، وضياع

وقبلت الملكة فى الحال هذا الرأى ، وقطعت على نفسها عهدا أن تبحث عن هذا المستشار المخلص الامين المحب للشعب ، المؤمن بمبادىء الثورة ، الذى تتلمذ على فلاسفتها •• روســو ومونتسكيو ، وفولتير ، وديدرو

ولكن لم البحث ، والمستشار قريب منا ؟ انه « برناف » نفسه •• وسألته الملكة وهل تقبل ؟ فقال ابن الشعب البسيط الذى يفيض صدقا واخلاصا بلا تردد : اقبل

وتصافح الاثنان

□

قال لها : ماذا يخيفك من الثورة ؟

قالت : هذا العنف الضارى ٠ هذا الميل الاصيل الى التحطيم والازالة ، الى الاعتداء والاهانة ، حتى لو لم يكن ما يدعو الى هذا ، أو الى بعضه

فقال لها « برناف » : لاتخطئى ، فليس ما ترين هو الثورة ان الثورة عمل عقلى ٠ انه تفكير فى الواقع ورغبة فى تبديله وهو تأمل فى أسس النظام القائم ، وارادة فى تغييره ٠ أما ما ترين من عنف وشدة وضراوة ، فهؤلاء هم الناس أيا كانت طبقتهم اذا اجتمعوا ، لاسيما اذا اجتمعوا غاضبين ، فليست الاناة من صفات الناس اذا كثر عددهم وضمهم مكان . انك اذا تكلمت الى واحد أو اثنين ، لم تحتاجى الى رفع صوتك ٠ أما اذا خاطبت مائة كان لابد أن تعلو طبقة صوتك ، ولكى يعلو الصوت لابد من قدر من الدم يندفع من القلب الى شرايين العنق يلتهب له الرأس حرارة واذا التهب الرأس اختلت موازينه قليلا ٠٠ هذا ما يحدث للفرد الواحد الذى يقف أمام الجماعة ويتحدث اليها ، فماذا يحدث له اذا اختلط بها ؟ يحدث له قطعا أضعاف ذلك

وابتسمت مارى أنطوانيت وهى تسمع هذا الحديث ، فقد ذكرت شيئا لا يعرفه « برناف » يؤكد كلامه ويؤيد صحته ولكنها لا تستطيع أن تطلعه عليه ، فقد كان شأنا خاصا من شئون القصر ، وخلاصته أن الملكة تاقت الى تمثيل رواية زواج فيجارو على مسرح القصر ، ولكن مؤلف هذه المسرحية « بومارشيه » كان سيىء السمعة ، فقد كان متهما عند بوليس باريس

وبوليس فيينا بأنه من خصوم الملكية ، وخصوم ملكة فرنسا بالذات ، وأنه يؤلف فى الطعن عليها رسائل من تلك الرسائل السرية التى تراها الملكة والملك على موائد الطعام وتحت وسائد النوم ، وفوق مكاتب القصر ، فاعترضت الرقابة عليهـــا ، ولكن « بومارشيه » عفريت لا تنفد له حيلة ، فقد توسل الى مدام بوليناك صديقة الملكة الحميمة لتحصل على موافقتهـا على اطلاق سراح هذه المسرحية ونجح فى كسب عطف مدام بوليناك بعد أن قرأ لها هذه المسرحية المسلية المضحــكة فى صالونها ، فأضحكها وأضحك صديقاتها وأصدقاءهـــا ملء الأشداق . وذهبت الملكة الى الملك ترجوه أن يوافق على اطلاق سراح المسرحية ورفض الملك أول الامر رفضا باتا ، ثم لان فقبل أن تقرأ له ، فلما استمع اليها أعلن أنها رواية جهنمية لا يمكن أن يوافق عليها فقد سخرت هذه المسرحية من كل مقدسات الحكومة . وكانت الملكة قد أعدت المسرحية ووزعت أدوارها ، وأخذ الكونت دارتوا دور فيجارو فيها . ووزعت بطاقات الحضور ، فلما صمم الملك على رأيه ، أعلن عدم تمثيل المسرحية ، وصدم المدعوون أعظم صدمة .. ولكن الملكة لم تيأس ، فمازالت بالملك حتى أقنعته بالموافقة على تمثيل الرواية مع رفع فقرات منها تتضمن النقد الصريح للاشراف ولحياة القصور .. وحدد موعد جديد لتمثيل المسرحية التى تهاجم الملكية ، على مسرح الملكية ذاتها ، وفى قصر الملك والملكة .. بل لقد مثلت الملكة نفسها دورا فيها

فماذا حدث ؟ ٠٠ تهافت الامراء والنبلاء والاشراف وأتباعهم على شراء بطاقات حضور هذه المسرحية ، كأنها تمجيد لهم واشادة بذكرهم ، لا لشىء الا لان الرواية منعت ، فزاد منعها من فضولهم ، ولان الملك هو الذى منعها بالذات ، وكان منهم كثيرون يودون أن يروا سلطة الملك تتحطم ، لان الملك حطم سلطتهم ، أو لان الملك فى رأيهم عقبة فى طريق وصولهم الى العرش الذى يحلمون به ٠٠ وفى ليلة التمثيل ذاتها حدث ما لو رآه أحد العقلاء من أبناء الشعب لاستنكره ، فقد تدافع النبلاء الوقورون ، والشريفات الرصينات ، على الباب ، وزحم بعضهم بعضا ، واشتد ضغطهم وضغطهن على متاريس الباب حتى حطموها ، وتدفق سيلهم الى صالة المسرح كالاطفـــال الصغار ، بل كأطفال الرعاع الذين تشكو منهم الملكة الآن

نسوا وقارهم ٠٠ نسوا مراتبهم ومكانتهم ٠٠ ونسوا ما هو أهم واكبر ٠ نسوا أن الرواية كتبت لتطعنهم ، ولتستحث الناس على السخرية بهم ، والنيل منهم ٠٠

نعم ، انها الجماعة ، تفكر دائما بغير ما يفكر به عقـل الفرد الهادىء

ولم ترو مارى أنطوانيت بطبيعة الحال كل مادار بخلدها وهى تذكر هذه الذكرى من حياتها التى يبدو أنها لن ترى شيئا منها بعد ذلك ٠٠ شيئا من هذه المتع التى تكاد تكون نزوات

▭

كان الحديث بينهما أساسه الرغبة فى التلاقى لا التباعد



لذلك لم تر مطلقا فى تفسير « برناف » لظاهـرة العنف فى الثورة ، ما يخالف المعقول ، واعترفت بان تلك ظـــاهرة منفصلة عن جوهر الثورة

فقال لها برناف : وماذا أيضا تأخذينه على الثورة ؟

فقالت : هذا الشعار المثلث ، لا أحسبه قائما على أساس من التفكير ، انه مجرد وسيلة للاثارة

فقال : وماذا فيه يخالف العقل ؟

قالت : خذ مثلا الحرية .. ماهى الحرية ؟

فبدا على برناف دهشة صادقة وقال : رباه ! هل الحرية شىء غير معقول ؟

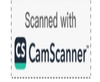
فقالت مارى أنطوانيت فى هدوء : نعم ، ان الحـــرية معناها الفوضى . معناها الاستبداد الذى تكرهه أنت ، والذى قامت الثورة لتحطمه وتقتلعه من جذوره فهل أنت تؤمـــن بالحرية ؟ يا سيدى خير لك أن تؤمن بالنظام أو بالعـدالة أو بالحق ، أما الحرية فشىء مدمر ، وسترى

فقال : ان غاية الحياة أن نتحرر

فقالت مداعبة : أذن لماذا تقودنى الى باريس ؟ لماذا حشرت نفسك معنا فى عربة لا تتسع الا لأربعة ، فأصبحنا فيها ثمانية؟ هل باسم الحرية تراقبنى ، وباسمها تعيدنى وزوجى واولادى قسرا ، وباسمها تفرض على مبادئك ؟

فقال : لا .. لا .. هذا لعب بالالفاظ

ولم يلبث أن توقف ، وقد احمر وجهه خجلا ، وبدا عليه



ارتباك شديد ، فقد غلبته سليقته البسيطة غير المتانقة ... ولاحظت الملكة ارتباكه فقالت :

ان قواعد المناقشة ان يكون كلا المتناقشين منطلقا .. ان يكون على حريته .. وابتسمت

فقال وقد ذهب ما كان قد اعتراه من الخجل : هذا أحسن .. نحن نعنى الحرية الآدمية لا حرية الاحراش .. حريتى لا يمكن أن تمس حرية غيرى

فقالت الملكة وما هى حريتى ؟ كيف تبدأ ، ومتى تنتهى ، ومن الذى يحددها ؟ أنا ام انت أم الاقوى منا ؟

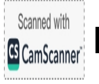
فقال برناف : الشعب .. المجموع

فقالت : هل كان الشعب موجودا حينما كان الامراء ، أصحاب الاقطاع ، أصحاب السلطة الكاملة ؟ وهل كان موجودا حينما كان الملك سيد الامراء ، وصاحب الكلمة الاولى ، أم لم يكن ؟

فقال برناف : كان موجودا بالطبع ، ولكنه كان مغلوبا على أمره ، لم يكن متمتعا بحريته ، كانت هذه الحرية قد سلبت منه ، لذلك فهو يطلبها .. ويطلبها بهذا العنف الذى تشكين منه

قالت : اذن لم يكن هناك ضمان دائم بأن السلطة التى ترتضيها لتحديد الحرية ستكون قادرة على ممارسة هذا العمل الاساسى

فأجاب : حينما تتأصل الحرية عند كل الشعوب فلن يتمكن



احد من الاعتداء على الحرية . ابدا .. مطلقا

قالت الملكة : لا تغضب اذا قلت لك ان كلمة الشعب اكثر غموضا من كلمة الحرية

فقال فى بساطة وهدوء : الشعب .. هو نحن جميعا ، بلا تمييز ولا تفرقة .. والجميع من صغار وكبار ، من فقـــراء واغنياء

فقالت الملكة : هذا التبسيط خطر .. انا أؤكد لك اننى اردت ان اتبين الشعب فى كثير مما يحدث ، فلم أجده .. أنا أريد أن اقتنع بوجوده كاقتناعك ولكنى لم استطع . ربما لأنى كما تقولون ولدت بعيدا عنه ، وان اسلوب حياتى يختلف عن اسلوب حياة الاغلبية من الناس ، ولكن ليس هذا مبررا معقولا ، فان كل طبقة لها ظروف تختلف عن ظروف الطبقة الاخرى اننى أؤكد لك ان عقلية الفلاح تختلف عن عقلية زميله الذى يعمل نساجا .. ان الطباخ الذى يعمل فى قصر فرساى يختلف عن الطباخ الذى يعمل عند أحد النبلاء . ولكننا جميعا نحن البشر ، مهما كانت درجتنا ، ومهما كانت نشأتنا نعرف حقائق الحياة ، نعرف الجوع والشبع ، والخوف والأمن ، والحب والكره . فهل الشعب شىء من هذه الحقائق ، أم هى نظرية تفرضونها ؟

فابتسم برناف ، وكأنما يسمع كلام طفلة لم تتلق من العلم ما يؤهلها لان تفهم البديهيات ، ثم قال لهـــا : الشعب هو الحقيقة الاصيلة ، انه يملأ بوجوده الارض ، والملوك منذ اقدم

العصور يدعون انهم يحترمونه ، فالشك فى وجوده ، كالشك فى وجود الانسان نفسه

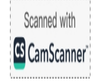
فقاطعته الملكة قائلة : انا اذن لم أحسن شرح فكرتى ، ان افراد الشعب موجودون ولست انكر وجودهم ، كما لا انكر ان هناك مصلحة كبرى لهم غير مصالحهم الضرورية . تلك هى قيام دولة تحميهم وتضمن لهم العيش الرغيد . ولكن هل يمكن ان يكونوا هم مصدرا لمبادىء سياسية ؟ هذا ما أشك فيه ، وهذا ما أريد ان اقتنع به

وبدا الامر لبرناف أقل سهولة مما كان يتصور ، فقال : هل تشكين فى ان للشعب ارادة مشتركة ؟

فأجابت مارى انطوانيت فى هدوء : نعم ، انه يصلح ان تخلق له الارادة المشتركة . ان الشعب مجرد غريزة وليس عقلا . والغرائز فى رأيى هى التى تحمى الانسان ، وهى أحسن قائد له .. فالتفكير من عمل الخاصة ، من عمل الحكومة ، والقادة هم الذين يرون مصلحة الدولة التى هى مصلحة الشعب ، فيقنعون الشعب بها ، فيتبناها ، وقد يرفضها بعد حين ، اذا لم يكن الاقناع كاملا . أو كان الحاكم ضعيفا . أو كانت الحجة قصيرة العمر

فقال برناف : لاجدال أن الشعب لا يستطيع ان يفكر فى الامور ، ويصدر فيها قراره ، وانما هو يفهم مصلحته العامة ، ويعرف من يصلحون للقيام عليها

فقالت الملكة : اذن كيف تقولون انه مصدر السلطات ،



وتنكرون حق الملوك الالهى فى الحكم ، مع ان هـذا الحق الالهى ابسط ، واكثر انطباقا على العقول ؟

فقال برناف : ما دام الله هو الذى يختار الملك ، فهو الذى يحاسبه ، ولا سلطان للشعب عليه

فأجابت : لاننا لو جعلنا للشعب سلطانا عليه ، استحال علينا ان نتعرف على كلمة الشعب وحكمه

فتساءل برناف : اذن من يحكم على الملك ؟

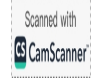
فأجابت : الله الذى أقامه ، ان الله الذى يمنحنا الحياة ، يحرمنا منها ، والذى يعطينا القوة يسلبها منا . نحن لا نأتى الى الدنيا باختيارنا ، ولا نذهب عنها بارادتنا . ولسنا نعطى كل ما نتمناه . والحكم ليس بدعا من هذا كله ، فاذا أردنا ان نصلح الملوك بأن نأخذ منهم السلطة ، حرنا بهذه السلطة ولم ندر الى اين نذهب بها

فقال : لا مبرر للحيرة ، ان الشعب هو الذى يعرف مصلحته ويعرف من يصلح لحكمه

قالت : تعنى الاحزاب ؟

قال : أبدا .. الشعب نفسه لا أحزابه

قالت : ان الشعب لا يجتمع فى صعيد واحد . ولو تكلم خمسة وعشرون مليونا فى وقت واحد لم تفهمهم .. فلابد من آخرين يتحدثون عنهم ، وهؤلاء الآخرون يختلفون فيما بينهم فضلا عن انهم لا يستطيعون ان يفصلوا بين مصالحهم الخاصة ومصالح الجماعة التى يمثلونها .. انت قلت لى ان « مارا » لا يمثل الثورة ، ولكنـه فى رأى الآلاف هو الثـورة ...



وانت والسيد « بشيون » عضوان فى الجمعية الاهلية ، ومع ذلك فنظرتكما الى الامور متباينة ، فاين هى ارادة الشعب المشتركة التى ستحدد معنى الحرية ، وتبين طرق استعمالها .. انا افضل ان تحل كلمة النظام محل الحرية

فأجاب برناف : اننا لم نحل المشكلة أبدا ، فالنظام يحتاج ايضا الى من يحدده . لا بد من سلطة تفرضه ، فمن يكون صاحب الحق فى اقامته ؟

فقالت الملكة : الخطر فى ان تقول للناس أنهم أحرار ، والحقيقة انهم مقيدون . أنت تدعوهم الى ما يضللهم ويزيغ أبصارهم ، حتى يفلت قيادهم منك ، فتضطر الى تأديبهم ، والاساءة اليهم .. ألحرية شيء غير موجود فى هذه الدنيا

فاحتج برناف قائلا : نحن نولد أحرارا

فقالت الملكة : صديقكم روسو هو الذى قال ذلك ، ولكننا مقيدون منذ اللحظة الاولى بالزمان الذى نولد فيه ، وبالمكان الذى نعيش داخل حدوده .. لو ترك الطفل لمات . ولو فعل كل ما يريد لما عاش . ان حياتنا هى خلاصة القيود . هى النظام

فقال برناف : الحرية لا تتنافى مع النظام

فقالت : كيف ؟ الحرية هى عدوة النظام ، لان النظام هو القيود ، ومع ذلك فأنتم تقولون الحرية والمساواة ، أى انكم وضعتم النقيضين جنبا الى جنب . كيف نكون أحرارا ياسيدى ومتساوين فى نفس الوقت ؟ مع أنه حينما نكون احرارا سيسودنا الأقوى ، فتنتفى المساواة . وحينما نتساوى ،

سيلتزم الاقوى بالسير مع الاضعف ، فلا نكون أحرارا ..
صدقنى اننى لا أفهم هذا الشعار

فقال برناف برفق وقد أعجبته هذه الطلاقة فى القول :
نسيت ان ابين الحرية والمساواة والاخاء . انه صمام الامان الذى يحدث تعادلا بين هذين الطرفين ..

فقالت الملكة : خبرنى بربك يا سيدى ماذا يفعل الاخاء ، على فرض ان الاخاء كلمة مفهومة المعنى والحدود عند الجميع؟

فقال برناف : ان الاخاء سيمنع الاقوياء من الاستمتاع بالحرية دون أن يحسبوا حسابا للضعفاء ، فيتئدوا فى سيرهم، ويتلطفوا فى كل مايصدر عنهم ، وسيخفف من غلواء الضعفاء الذين سينادون دائما بالسير على قدر طاقتهم ، وسينزع من قلوبهم الحقد على المتفوقين والحسد للممتازين انه قيد للحرية والمساواة ، وتقريب بينهما

فضحكت الملكة ضحكة رنانة كان لها فى قلب برناف مثل رنين صوت ناقوس من ذهب . وقالت : يا لهذا الاخاء المسكين من زميل تعس ضعيف لا حول له ولا قوة بين جارين لايرحمان أنا اخشى ان تدوسه الاقدام فيقع على الأرض ، ويرتطم بسطحها الجامد ، وهو يصرخ دون أن تسمعه اذن ، ودون أن يرحمه قلب

فقال برناف فى صوت المحتج :
انت تسيئين الظن بالطبيعة البشرية ، ان البشر أطيب سريرة مما تظنين ، فالاخاء ولا شك سيكون أسعد حظا



مما تتصورين

فقالت الملكة :

ليس فيماأقوله اساءة ظن بالطبيعة البشرية ، ولافيماتقوله احسان ظن بها ، فالحرية قوة جارفة لا تقبل بطبيعتها الحدود، حسبك أن تترك طفلك ليرقى من الفعل الخفيف الى الفعل العنيف فى دقائق ، فان عودته على الانطلاق اعتمادا منك على سلطتك عليه ، وعلى ضعف جسمه وقلة تجربته ، وجدته ضاريا لا يقبل منك النصح ، ولا يرضى بالنزول عن شيء أعطيته اياه . والرجال أطفال كبار والشعوب هى مجموعة من هؤلاء الاطفال

فأدرك برناف ما تهدف اليه الملكة ، فقال :

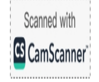
هذا بيت القصيد ، فأنت تحكمين على الشعوب كما تحكمين على الاطفال ، وترين فى تعويدها الحرية اضرارا بها وبمن يوجهونها

فواجهته مارى أنطوانيت قائلة :

ان ما يضر الشعوب هو اثارة خيالها بكلام غير محدد ، هو مداعبة أحلامها التى كانت تساورها منذ القديم . فمثل هذا لايصدر عن مسئول يحب الناس ، ويحب الشعب . واجبنا جميعا ان نعطى ما نملك ، والا فنحن لم نعط شيئا

فقال برناف : أو ليست الحرية مما نملكه ؟ ان الحرية هى اول ما ملكه الانسان

فقالت الملكة فى جد باد : بالعكس هى أول ما فقدناه ،ومع



ذلك فقد عوضنا الله خيرا منها . أعطانا النظام . والنظام هو الذى قاد خطوات أجدادنا الى الحضارة والعلم والقوة . ان الحرية ما كانت تستطيع ان تمنحنا سوى الآلام والتردى فى العذاب

فعلق برناف على هذا الكلام شارحا وجهة نظره :

ان الناس بلغوا من الرقى درجة يستطيعون معها ان يفهموا للكلمات مدلولات معقولة وحضارية دون حاجة الى كلام كثير، فنحن حينما نقول الحرية نعنى الحرية المنظمة . الحرية التى يحترم فيها الاقوى منا الاضعف ، والاسرع منا الابطأ ، والقادر منا العاجز ، ونعنى بالحرية التعاون لا التنافس المؤدى الى ان يذبح بعضنا بعضا ، ويثب بعضنا على بعض .. فهذه حرية الغابة

فقالت مارى أنطوانيت : أنا لسوء حظى ممن لا يطيقون قراءة الكتب ، وقد كان هذا مما يؤخذ على . ولكنى قرأت القليل من الكتب عن حياة الغابة . وأؤكد لك يا سيدى أننا لا نعرف شيئا صحيحا عن حياة الوحوش فيها . فهناك نظام أكثر مما تتصور .. وليست الوحوش الاقوى هى صاحبة السيادة هناك ، فالحيوانات الصغيرة تتجمع بحكم غريزتها فى جماعات لكل منها قائد ورئيس ، تطيعه وتسير وراءه ، وهى أقوى بحكم هذا النظام والتعاون ، من وحوش كاسرة ترهبها وتحسب حسابها

فقال برناف وقد بدأ صبره ينفد وصدره يضيق : يبدو لى

ان فى كلمة الحرية ما يثير غضبك ، ولكن هذا اللفظ هو الذى
اعطى كل فلاح فى فرنسا أملا ، وجعل من هذه الامة المتفرقة
وحدة ، وأيقظ هؤلاء الذين كانوا يعيشون فيما يشبه الغيبوبة
وحقق لهم ما عجزت السنون الطويلة عن أن تمنحه لهم . لقد
كانت فرنسا دولا داخل دولة . كانت الحواجز كما قلت ،وكما
قال كالون تفصل بين المقاطعات والمحافظات . لم يكن هناك
تشريع واحد يسود الفرنسيين ولا قضاء واحد يحكمهم ، ولا
نظام للضريبة موحد يشملهم . كانت فى فرنسا مقاطعات نسميها
المقاطعات الاجنبية ، وهى من صميم بلادنا . لم تكن لنا ارادة
مشتركة . كنا ولا نزال نعانى المجاعة لسبب غير مفهوم ، فبلادنا
أغنى بلاد اوروبا الزراعية . فلما اضيفت كلمة الحرية وتوهج
نورها ، واشتعلت نارها ، لم يعد الفقراء
والصغار والضعفاء خائفين .. نزع من قلوبهم الخوف الذى
زرعه أمراء الاقطاع ، وجباة الضرائب ، والخطابات المغلقة ،
ومحاكم الكنيسة . وفى أقل من لمح البصر ، زالت الحواجز بين
مقاطعات فرنسا ، وتنافس الامراء وأصحاب الامتيازات فى
النزول عن امتيازاتهم . وعقدت الجمعية الوطنية بعد قرنين
غطت خلالهما فى نوم عميق ، أو ماتت بعبارة أدق . واحس
الناس جميعا بالحاجة الى دستور . احس جلالة الملك ،
وأحسست جلالتك بأن الدستور ضرورة ، لايمكن ان يعيش
أهل فرنسا بغيره ، وتزاملت الطبقات الثلاث ، بعد أن كانت
كل طبقة منها تمثل أمة وحدها ، وتأبى أن تقر لغيرها بحق

المساواة بها . ووضع الشعب الفرنسي أول وثيقة تعلن للشعوب حقوق الانسان .. كل هذه ثمار كلمة الحرية التى تصغرين من شأنها ، وتصفينها بأنها كلمة جوفاء ، ولفظ رنان بلا معنى . وانها تغرى الاطفال بالاقدام على اللعب بالنار .. قد تكون الحرية نارا تحرق . ولكن الشعوب لن تعرف ما يأتى منهـا من خطر الا اذا تذوقتها وتمتعت بها ، ومن أعمق أعماق الحرية سينبثق النظام الذى لا بد منه لتبقى الحرية ذاتها ، وفى ضوئها تقام الحواجز والحدود التى تحميها من اعدائها ، والتى تبقى عليها كقوة خيرة فعالة مبدعة . أما التبرع بالحرية من الغير ، ومنحها للناس فى صورة أقساط ، مع تكبيلها بالقيود والشروط ، ومع تنصيب قيم على الناس وهم يتناولونها ويستعملونها ، فهو اهدار للحرية ، وفتك بمعناها وقضاء على جوهرها .. ان فى الناس ميلا الى الخير أكثر مما تتصورين ، وما يصدر عنهم من شر ليس الا ثمرة حرمانهم من حريتهم أو ثمرة جهلهم وقلة خبرتهم ، وتسلط قويهم على ضعيفهم . وهم حينما يتحركون بلا سلاسل أو أغلال ، سيرون أنفسهـم مدفوعين دفعا الى المساواة . فاذا زاغت أبصارهم ومالوا الى الاستعلاء كان هذا الديدبان الحارس ، كان الاخاء الذى هو صوت الضمير العام للجماعات ، الكفيل بأن يجعل الحرية انطلاقا لا فوضى ، ويحيل المساواة تعاونا ، لا اغلالا وقيودا

كان برناف يتكلم وهو ينصت الى صوته ، فاخذته نشوة مسكرة بجمال هذا الصوت ، ورنينه فى اذنيه . واعجبتـه

قدرته على ان يقول كلاما متتابعا ، لم يحضره من قبل ، ولكنه كان يعبر فى غير تردد عن المعانى التى يريدها بالضبط . ومما أسعده أكثر من كل شيء ، ان مارى أنطوانيت انصتت اليه انصاتا حسنا ،وتابعته بعينيهااللماعتين البراقتين ، وكأنها استعذبت طريقته الخطابية ، وأعجبت برجولته وقوة ايمانه

وكان هذا كله كفيلاً بأن يقرب بين طرفى المناقشة ، لا ان يبعد بينهما ، وان تخلق هذه المناقشة مودة ، لا تباغضا ، فقد كان هذا السباق الكلامى توددا ، أكثر منه توثبا ، وغزلا اكثر منه حربا



الفصل التاسع

لم يكن ممكنا ان تبقى الملكة ، ويبقى برناف ، فى « مو » الى غير حد . لقد انساهما جو البلدة ، والحوار الذى يفيض مودة ان هناك قوة أعلى منهما تدفعهما دفعا ، وتدفع باقى الركب الى بارس ، تلك هى قوة الثورة التى لم يكن أحد يعرف من هو صاحبها ولا من أى مكان تنبعث ، ومع ذلك كانت تسيطر على الاشياء والاشخاص والمصائر والاقدار فى فرنسا ، وكانت تشكل الاحداث وتخلق الانظمة وتكون التيارات ، وتلد المذاهب والمبادىء والافكار

طرقت الثورة باب هذين الشابين ، مارى انطوانيت وبرناف ونبهتهما الى ان ساعة الرحيل قد حانت

وقامت الملكة ففامت عيناها بحزن عميق ، أو اذا اردنا الحق بشىء آخر لا اسم له فى عالم العواطف البشرية ، فهو مزيج من الحزن ، والشعور بالمهانة ، والخوف من المستقبل ، مع رجاء قوى يريد أن يدفع كل هذه الاحساسات الضعيفة أو القاتمة ، مع رغبة تماثله قوة فى الخلاص من الحياة ، تصاحبها رغبة اشد فى التشبث بتلك الحياة نفسها ، من اجل ابنها ، ومن اجل حبيبها « اليكس فرسن » ومن اجل شفاء ما فى قلبها



من رغبة متوهجة للانتقام من كل الذين اهانوا الملكية وانتقصوا حقا من حقوقها

فبماذا تسمى هذا الاحساس المركب المعقد ؟

وجاءتها فى هذه اللحظة مدام اليزابث شقيقة زوجها ، وعلى وجهها علامات مما اشتهرت به من تقى وتمسك بالدين ، وقد اختلطت بشىء آخر لم تفهمه جيدا ، يكاد يكون فرحا بالحياة وأملا فيها

ولم تعرف الملكة سر هذا الفرح ، مع أن « بثيون » جاء فى اعقاب مدام اليزابث ، وعليه بدوره سرور باد

فان أردت ان تعرف سر هذا السرور المشترك ، فاعلم ان الاثنين قضيا وقتا ممتعا ، لم يكن غزلا كله ، ولكن صرف بعضه فى غزل وبعضه الآخر فى نصائح سياسية من بثيون وتحذيرا من عاقبة الوقوف فى وجه الثورة ، وتبشيرا بمبادئها وتلويحا بالامل فى عقد صلح بين الملكية والثورة ، يهادن فيه كل فريق الآخر ، مهادنة تحقق للشعب آماله فى الحرية والحكم الصالح ، والرفاهية والرخاء ، وتحقق للملكية سلطة واضحة المعالم ، بينة الحدود . ولكن بثيون كان يجد وهو يزجى هذه النصائح الى هذه الشابة متعة وسعادة ما بعدهما متعة أو سعادة . كان يرى فى شدة قربها منه ، ما يلهمه بخواطر كانت تزيده ميلا الى الحديث ، وتزيد حديثه رقة ولطفا .. وهكذا كانت فترة الاستراحة فى « مو » ممتعة ومجددة للآمال ، ومبددة لهموم المرحلة التى سبقتها

واعدت العربة ، واستعد ركابها لاستئناف السفر الذى لم يكن باقيا منه الا ساعة ونصف ساعة

كان كل شيء قد تغير فى العربة ، فى داخلها وفى خارجها . كانت الجياد قد استبدل بها غيرها . وكان سائقوها قد استراحوا وناموا ملء الاجفان . وكان السائسون قد غسلوا عجلات العربة ، وازالوا ما علق بهـا من طين ، ونظفوا مقاعدها ، فبدت وكأنها أعدت لرحلة جديدة ، خفيفة ، مما يقوم بهـا الناس بقصد الترويح عن النفس ، فى ختام أسبوع حافل بالعمل والمشاغل

اما الطفلان فقـد انتقلت اليهمـا عدوى شعور التقـارب والتلطف الذى ساد فريقى الرحلة ، فأسرعا الى العربة يقفزان وتصدر عنهما أصوات هى أصوات الاطفال حينما يشعرون بالامن والطمأنينة . ان أهلهما من حولهما رخيو البال ، واسعو الصدر ، لا يضيقون بأية حركة منهما ، ولا بأية لفظة تصدر عنهما

وليس مثل الاطفال تأثرا بالجو الذى يحيط بهم ، ولا سرعة فى الاستجابة لتغيرات النفوس والقلوب ، التى لا تكشف عنها علامات الوجه ولا عبارات اللسان . واستقر أعضاء الركب فى المركبة التى أعدتها يد الحب والمخاوف ، وسهرت عليها عناية القلب الراغب فى التضحية والفداء . وكان الملك اول الراكبين ، ثم الملكة ، وتبعتها مدام تورزيل ، واخيرا بثيون

وعلى الرغم من ان مارى انطوانيت لم تسترح الراحة التى

تعوضها عن عناء السفر وما صحبه من مخاوف لا توصف ومهانات لا تنسى ، الا أنها لفرط حيويتها ، ولصلابة ارادتها ، استطاعت بفضل النوم القليل وبفضل تجدد عزمها على مواجهة الحياة ، والامل فيها ، أن تبدو نضرة ، وان تعدى من حولها بشعور السعادة والمرح

وتحركت العربة

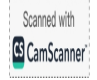
واستأنفت الجياد عملها

وبدأ الحديث لا يعرف له غاية . ثم عاد الوجوم الذى بدات به الرحلة ... عاد قويا ، فأطفأ بيده الثقيلة الكئيبة جذوة السرور والمرح التى كانت أضواؤها قـــد انعكست على ركاب العربة . لم يكن فى مقدور أحد ان يتجاهل ان المرحلة القادمة، هى ختام هذه الرحلة المتعثرة الخائبة . وأن احدا لا يعرف ماذا ينتظر الملكين وأولادهما ، لذلك لم ينفع التظاهر ولا الادعاء فجنح الجميع الى سكون مطبق ، وانتقل الشعور بالوجوم حالا الى الطفلين ، فالتصق الولد بأمه ، ولاذت البنت بعمتها ، ونظر الملك من خلال النافذة ونظرت الملكة الى لا شيء .. الى الامام

وبدات الجماهير تخرج من كل فج ، تحمل عصيهـــا ، وتحصب الملكة والملك باقسى الشتائم .

ورات مدام اليزابث ، وهى أقل أعضاء الركب ميـــلا الى الكلام ، أن تقول كلمة ، فنظرت الى صاحبها بثيون ، وقالت :

« نحن الآن فى مفترق الطريق . نحن عائدون الى ما لا نعلمه ولقد سمعت كلامنا ، وسمعنا كلامك . فبرب السماء ، ارجو



ان تكون لنا شاهدا عند الجمعية الوطنية ، وعند الشعب على حسن نوايانا . أرجو أن تنزع من قلوب هؤلاء الصورة التى رسمت لنا ظلما »

فالمت ببثيون حيرة لفترة ، ثم قال :

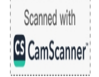
« الامر يتوقف على مسلك الجميع فى المستقبل . الالفاظ وسيلة عاجزة فى كسب الثقة ، ثقة القلوب . انما الاعمال ... »

فأحست مدام اليزابث ، من هذا الرد أن « بثيون » وقد اقترب من باريس ، أراد أن يغسل يديه من كل ارتباط صريح او ضمنى بينه وبين الملكية فقالت فى انكسار :

« ان اخى فعل فى الماضى كل ما وسعه ليثبت حسن نيته ولكن الالفاظ التى كانت تطلق فى سماء باريس كالصواريخ، هى التى اتلفت الكثير من الاعمال ، وأفسدت الجو ، وسممت علاقات اخى بالشعب الذى يحبه »

وهنا تحرك الملك ببطء وتكلم ، وكأن الامر لا يعنيه :

« ماذا يطلب منى لأثبت حسن نيتى ، وشدة رغبتى فى ان اخدم رعاياى ؟ لقد كنت انا الذى وافق على سياسة الضرائب التى توزع العبء على الجميع ، لا على الطبقة الثالثة وحدها ، ولما رفض الاشراف والكنيسة ، دعوت الجمعية الوطنية للانعقاد وهى التى لم تعقد منذ اكثر من قرن ونصف قرن ، واجريت الانتخابات وكنت اقرا كراسات الناخبين التى تضمنت التعبير عن رغبات الشعب . لقد تكلم الجميع بحرية ، وقالوا ما يريدون ، وانت تعلم أن انعقاد الجمعية الوطنية كان



الخطوة الاولى لكل ما تلاها من احداث . وقد قال الامراء مرارا انني انا الذي قدت الأمة الى طريق الثورة »

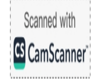
وسكت الجميع ثم استأنف الملك بعد قليل حديثه قائلا :

« لم يكن انعقاد الجمعية الوطنية عملا سياسيا فقط ، فان الانتخابات خلقت قوة جديدة ففي اعضاء الجمعيـــة أكثر من أربعمائة محام ، وفيها عدد كبير من التجار وأصحاب المصانع الصغيرة . فلم تعد الطبقة الثالثة مجرد فلاحين أو عمال فقراء لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم . ولما اجتمع ممثلو الطبقـــة الثالثـــة وحدهم ، أشرت على ممثلي الاشراف والكنيســة أن يذهبوا اليهم ويجتمعوا بهم ، وكان المطلوب مني أن أحصد ممثلي الطبقة الثالثة بالمدافع . أو القي القبض على زعمائهم ، ولكني رفضت ، أليست هذه أعمالا ؟ »

وسر بثيون ، وسر برناف أن الملك تكلم أخيرا ، وسرهما أكثر من ذلك انه تكلم بروح تنطوي على مودة للشعب ، واقتراب من حقوقه ومطالبه ، فسكتا مؤملين ان يسترسل بنفس الروح ، فالجمعية الوطنية حتى هذه اللحظة ، بل حتى بعد شهور من يونية ١٧٩١ الذي شهد هذا الحوار ، لم تكن قد اعتزمت عزما نهائيا ومؤكدا على اقتلاع الملكية

وعاد الملك يقول :

« وانا اسمعكم تتحدثون عن فرنسا ، الدولة التي تقـــوم داخلها دول ، كأني انا الذي فعلت ذلك ، وكان اجدادي هم الذين قصدوا اليه . لقد رأيت فيكما ميلا الى الانصـــاف ،



ورغبة فى اعطاء الحق حتى للشيطان . لهذا فانا ارجوكم ان تقولوا برأى التاريخ وحكمه فى هذه النقطة ، من الذى وحد فرنسا ، ومن الذى أوجد هذه الطبقة الجديدة ؟ ان أجدادى هم الذين حاربوا أمراء الاقطاع ، وانقصوا من سلطانهم ، وما زالوا بهم حتى جعلوهم حلية للبلاط . ان لويس الحادى عشر هو الذى خلق فرنسا الموحدة ، وخاض فى سبيل ذلك الهدف العظيم حروبا مع الامراء والاشراف والنبلاء ، وتلظى بنار الدسائس والمكائد ، ولم تنته هذه الحروب حتى عهد جدى لويس الرابع عشر ، فقد قضى على كل سلطان لهم ، فاتبعهم البلاط ، وأصبحوا حلية من حلى العرش . وقد كان كل نمو لسلطان العرش ، فى حقيقة الامر ، نموا لطبقة الفلاحين والزراع وأولادهم

« واذا كانوا اليوم يشكون من حقوق الصيد ، وعشور الكنيسة ، وضرائب الملح ، وكثرة القوانين ، وقسوة الجباة فلأن النير قد رفع عن أعناقهم ، فأصبحوا يشعرون بأن هذا كله اعتداء على حقهم . وكان ذلك من قبل جزءا من الحياة ، وأساسا من أسس المجتمع ، فليست الملكية كما يتصور بعض الناس ، قوة رجعية دائما .. ان الامراء الذين يسخطون الآن على سلطة العرش ، ويصفونها بأنها مطلقة ، لا يتباكون هكذا حبا فى الشعب ولا اشفاقا عليه . بل يبكون على سلطاتهم التى ضاعت ، وحقوقهم التى زالت »

وهنا رأى بشيون انه لا مناص من التدخل فقال :

« ان الملك حينما كان يضرب فى سلطان الامراء وحقوقهم كان يفعل ذلك لحساب نفسه »

فقال الملك : « نعم .. بلا جدال ، ولكن هذا لا ينتقص من قدر الذى قام به من أجل المجموع ، من أجل فرنسا كلها »

قال بثيون : « لسنا أغبياء الى الحد الذى نذكر معه ان تحديد سلطات أمراء الاقطاع ، وتحديد الاقطاع نفسه ، لم يخدم الشعب ، ولم يعجل بخلق فرنسا الموحدة ، ولكن الملك اكتفى فى محاربة الامراء والاقطاع بالقدر الذى حقق له غرضه هو ، وأبقى على كل ما كان يسىء الى الفلاحين ، مادام أن ذلك لايضره ، ولا ينتقص من سلطاته »

فقال الملك : « انه تصور من أكثر مايكون مخالفة لمنطق الناس كان الملك يود أن يخضع الامراء لنفسه ، بوصفه الراس الاعلى للدولة ، لأنه يعتبر نفسه صاحب الكلمة الاخيرة فى مصالح رعاياه . وقد تخلف عن السلطان الذى ضاع على الامراء فراغ كان حتميا أن يملأه الفلاحون والزراع ، وأصحاب الصناعات ولم تكن هناك قوة غير الملك تستطيع أن تمنح هؤلاء فرصة التقدم الذى أحرزوه ، ولا التمتع بالسلطات التى انتهت اليهم »

قال برناف ضاحكا : « سلطات ؟ أية سلطات يا صاحب الجلالة ؟ لم يكن لهم سوى الفقر يتقلبون بين انيابه . كانوا عبيد الارض يلتصقون بها ويباعون ويشترون معها ، حتى بعد ان هلك سلطان الاقطاع »

فقاطعه الملك على غير عادته بقوله : « ومع ذلك هل تعرف

حال الفلاحين فى روسيا وبروسيا أو حتى فى انجلترا التى تعتبرونها مثلا للحكم الصالح ؟ ان الفلاح الفرنسي احسنهم حالا. ان تجارة فرنسا زادت منذ عهد جدى الاكبر لويس الرابع عشر، ثلاثة أضعاف . ولولا هذا كله لما استطاع الفلاح الفرنسي ، ان يحمل هراوة يدق بها على عرينى . فوق رأسى . ويقول عنى ما سمعته طوال هذه الرحلة »

فطافت على شفتى بثيون ابتسامة خجول ، وقال : « نعم ، انه الشعور بالظلم هو الذى يدفع الى الثورة ، لا الظلم نفسه ،

فسأل الملك : « ومن الذى أوجد هذا الشعور ؟ »

فقال برناف : « المفكرون »

فقالت الملكة فى اندفاعها المعهود : « كلام فارغ »

ثم أدركت أنها سايرت سليقتها ، ولم ترد أن تعتذر، فقالت: « كلام هؤلاء فارغ »

وقال الملك وقد بدا أن عقدة لسانه انحلت نهائيا وهو يدافع عن نفسه :

« بل الملكية .. بل الملك .. نعم ان الكثيرين كانوا يقولون لى اننى أحفر قبر الملكية ، واننا سندفن معها فى نفس القبر .. فليكن .. اسمع أيها الشاب ، لقد كانت ثورة اخرى تقوم فى الجانب الآخر من شاطىء الاطلنطى .. كانت فى أمريكا ضد الحكم البريطانى الملكى .. لقد ارسلنا اليها .. نعم ارسل الملك والملكة أعداء المبادىء الحرة ، جيوش فرنسا لتحارب جنبا الى جنب وكتفا الى كتف مع الثوار .. وعادوا يحملون مبادىء

الديموقراطية وحقوق الشعب »

قال برناف : « هــل ذهبت جيوشنا لتدافع عن المبادئ الثورية ، أم انها ذهبت لتدافع عن ممتلكات فرنسا التى التهمها التاج البريطانى ؟ »

قالت الملكة : « ولكن كانت لنا مندوحة عن ارسال هذه الجيوش لو أن الخوف على العرش ينسينا الخوف على الوطن »

وقالت مدام اليزابث ببساطة : « لم يكن أحد قد سمع عن ثورات من قبل ، ولا عن ثورة كهذه .. شيء فظيع »

فقال برناف : « ما هو الشيء الفظيع ؟ »

فقالت مدام اليزابث فى ذعر وكأنما هى فأر وقع فى مصيدة : « الشيء الفظيع ماحدث فى ١٤ يولية »

فقال برناف وهو لايكاد يفهم ماذا تعنى : «١٤ يولية..؟! »

فأجابت مدام اليزابث . « نعم ، الرقص حول الرءوس المقطوعة على ضوء المشاعل حتى الصباح » فأرادت الملكة ان تحول مجرى الحديث فقالت : « ان الملكية ليست قوة رجعية دائما كما تتصورون . قد تكون رجعية بسبب حرصها على المحافظة على المقومات الاساسية للمجتمع .. والدين والاسرة وتقاليد الشعب .. ومع الزمن تفقد الملكية فى بعض البلاد مرونتها . أما الملكية الفرنسية فكانت دائما تطورا ، وسبقا للحوادث .. »

وعادت مدام اليزابث تقول : « لقد قطع الرعاع رءوس حراس وجنود الباستيل.. حسنا .. ثم علقوها فوق المزاريق

والرماح .. قد لا يكون فى هذا باس كبير ، فالانسان حينما يذبح لا يضره ان يعلق راسه فوق رمح او ان ياكله كلب .. »

وانقبض صدر مارى انطوانيت كثيرا لهذه الصورة ، وارادت مرة اخرى أن تغير اتجاه الحديث ، وان تصرف مدام اليزابث عنه فقاطعتها قائلة :

« كان يعاب على أن اشترك فى تمثيل المسرحيات ، وعلى وجه الخصوص مسرحية المسيو بومارشيه .. اهذه رجعية ام تطور ؟ »

فضحك برناف ملء شدقيه ، ثم علت ضحكته وقال :

« حسنا .. حسنا .. ان مسيو بومارشيه رجل ثورى ، انه مشهور عندنا وفى أوربا كلها ، بأنه كاتب كثير من الرسائل .. الرسائل .. »

وارتبك برناف ، فتطوعت مارى انطوانيت بمساعدته قائلة :

« لا ترتبك .. قل الرسائل المتوبلة .. أؤكد أننى أصبحت مع الزمن من قرائها المعجبين ! كانت كلها أكاذيب .. وكانت مسمومة وقارصة ، وأحيانا مميتة ، يستحق كاتبها من أجلها ان يشنق ، ولكنها كانت مكتوبة ببراعة مذهلة »

قال برناف : « انه فنان »

قالت الملكة وقد انفعلت على الرغم منها : « كيف يكون فنانا .. اتتصور ان يكون الفنان مجرما ؟

فعاد برناف يضحك قائلا : « مجرما .. ! انه كان مستعدا



ان يهجو نفسه .. انه يجد فى التمثيل بالناس ، وبالافكار والاشياء لذة لا تعدلها لذة »

قالت الملكة :

« لذة !! وتقول عنه انه فنـان .. انه مجرم بالطبيعـة فلا يجد لذة فى ايلام الناس ، بالتقول عليهم والافتراء على حياتهم الا مجرم .. لا .. لا .. انه مجرم »

فقال بثيون فى جد وصرامة :

« ومع ذلك كنت تمثلين رواياته .. رواية زواج فيجارو بالذات .! »

فاحمر وجهها من هذا التأنيب ، وودت لو استطاعت ان ترد عليه ، ولـكنها كانت قد قررت ان تلعب دور المتوددة المتفاهمة ، الراغبة فى الصلح والتعاون . وقالت :

« زواج فيجارو عمل فنى .. رواية »

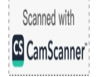
فقال الملك مستاء ، ولـكن استياءه لم يبلغ درجة الغضب كعادته :

« كانت الرواية سخرية بكل مقدسات المجتمع الذى انا ممثله وراعيه »

فقالت الملـكة : « لقد طهرناها من رجس الفاظه وافكاره المدمرة ، فبقى العمل سليما من الناحية الفنية »

فقال الملك : « شىء قبيح .. شىء فظيع .. »

فقالت مدام اليزابث : « انه شىء قبيح أن تقطع رؤوس الناس وتعلق على الرماح ، ثم تضـاء المشـاعل ، ويرقص



الناس حولها ، وينشدون الاناشيد حتى الصباح »

فتدخلت الملكة قائلة : « كانوا غوغاء .. من الرعاع .. »

فقالت مدام اليزابث : « لقد كانوا يهتفون للحرية .. هذه هى الحرية كما فهموها .. كما تعلموها من مارا وامثاله .. الحرية .. ! »

فقاطعتها الملكة قائلة : « شيء فظيع حقا .. ولكن .. »

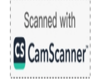
فأصرت مدام اليزابث على أن تستأنف الحديث بسذاجة مربكة ، وقالت : « ما معنى غوغاء ورعاع ؟ .. انهم مواطنون مثل السيدين تماما ، لهم نفس الحقوق . ألم يعلن لهم شعار الثورة انهم أحرار ومتساوون مع غيرهم ؟ »

فقالت الملكة : « لكن الاخاء .. »

فقالت مدام اليزابث مندفعة ومحتدة : « هذا هو الاخاء يا أختى .. الاخاء أن نذبح بعضنا بعضا ، وأن نرقص على ضوء المشاعل فرحا بالرءوس المقطوعة المعلقة فوق الرماح .. هل قامت الثورة لتنزع من الملك والامراء السلطات ، لتجعل مثل هذه المناظر متعة من متع الشعب ؟ »

ولم يطق بثيون أن يسكت على هذا الكلام الذى اعتبره محض تخريف ، ونسى أن مدام اليزابث كانت منه طول اليومين السابقين صديقة متوددة ، فقاطعها بجفاء ، وقال :

« مهلا .. مهلا .. ما هذا الانزعاج الانسانى الذى يفيض رحمة ، وكراهية للعنف والدماء ؟ من المسئول عن هذا ؟ الثورة والحرية والاخاء ، أم النظام الذى جعل من هؤلاء



مخلوقات أقرب الى الحيـــوانات ، بل أدنى منها درجـــة ، فالحيوان من حقه أن ينتزع اللقمة أو العظمة حين يجوع ، لايصده عن ذلك الا الخوف ممن هو أقوى .. أما هؤلاء ، فهناك مجتمع قد أفهمهم بنفـــاقه ان طلب اللقمـــة جارح للـكرامة ، ثم هناك القانون ببوليسه وجيشـــه .. فمـــاذا تطلبين من جياع طال جوعهم ، لا تعطيهم الجماعة التى تقبلهم أعضاء فيها على مضض لتعـذبهم ، ســوى وعود من الآباء والقسوس بأن لهم ملكوت السماء ! ماذا تريدين من جهـــال لم يدخلوا مدرسة ، ولم تضىء حتى ولا ذبالة واهنة من العلم أوكارهم بل جحورهم وأوجارهم ، التى تفضلها مســـاكن الـكلاب ؟.. هل كنت ياسيـــدتى تريدين أن يروا مدافع الباستيل مسلطة عليهم ، فاذا ما انتصروا على حامية السجن واقتحموه ، وقفوا أمام مدير السجن وقد شبكوا أيديهم فوق صدورهم من فرط الادب ، فاذا سقط من حراس السجن قتيل ، رفعوا جثمانه الطاهر فوق أكتافهم ، وهم ينشدون الالحان الجنائزية يستمطرون بها عليه شآبيب الرحمة ؟ ! »

كان كلام بثيون مليئا بالمرارة ، فعلا وجهه تجهم شديد ، وزالت امارات البشر والتودد التى كانت تملأ صفحة وجهه. فانكمشت مدام اليزابث ، وتداخلت فى نفسها كهرة احست بخطر مفاجىء ، وقررت فيما بينها وبين نفسها الا تعود الى الحديث مرة اخرى

وكان العجيب فى الامر ان الملك وهو آخر ما كان ينتظر ان

يسمع منه صوت بعد هـذه الحملة المجلجلة ، هو الذى قطع حبل الصمت الذى تلاها فى هدوئه الخليق دائما بان يسمى برودا ، فقال :

« لاجدال فى أن مؤاخذة هؤلاء على ما بدر منهم فى يوم كيوم ١٤ يولية ، فيه مبالغة ، فذلك اليوم بكل ظروفه ، كان شاذا .. كانت الاشاعات والاراجيف وسوء الظن ، تملأ جو باريس ، كما يحدث دائما فى أعقاب الاضطرابات والقلاقل والمعارك .. ولـكن الذى يقلق أن يكون لهؤلاء صوت مسموع فى مناقشات الدستور »

فاحتد بثيون قائلا : « لا .. لا .. لا .. هـذا كلام غير مقبول .. ان الجمعية الوطنية هى التى تضع الدستور ، لا رعاع باريس »

فقال الملك ببروده المعهود : « أنا أعلم ان الجمعية الوطنية هى التى تضع الدستور ، ولـكن صرخات هؤلاء تصل الى الجمعية الوطنية وتفعل فعلها . لـكم وددت أن تضع دستور بلادنا لجنة من رجال القانون والعلماء ، كما فعلت أمريكا . فالثورة فى الجانب الآخر من الاطلس ، الثورة التى وقفت الى جوارها جيوش فرنسا ، والتى كانت الحرية هدفا لها ، تماما كثورة بلادنا ، لم تترك الدستور فرصة للمزايدات ، وانفعالات الشوارع »

فقال برناف فى ضيق ، وان كان قد بذل جهدا كبيرا فى اخفاء ضيقه :

« ان الجمعية الوطنية قد وكلت وضع الدستور الى لجنة منها . ولكن كان لابد ان يناقش عمل هذه اللجنة فى الجمعية الوطنية ، والا كانت اللجنة هى صاحبة الكلمة الاولى والاخيرة فى دستور سيحكم خمسة وعشرين مليونا من الفرنسيين . ثم ما هو العيب فيما انتهت اليه الجمعية الوطنية . لقد جعلت للملك حق « الفيتو » ، حق الاعتراض على القوانين ، واصبح لها حق اعلان الحرب وابرام الصلح بناء على طلب الملك ، فليس هناك غلو ولا مبالغة »

فقالت الملكة : « الم ينظم دوق دورليان مظاهرات تهتف فى الشوارع بسقوط « الفيتو » ، ولم يكن من بين المتظاهرين من يعرف ما هو « الفيتو » .. لقد كانوا يحسبونه رجلا ! »

فقال برناف : « لست أرى فى هذا مايدعو الى التشاؤم .. ان الحياة بطبيعتها وعاء كبير للجيد والسيىء من النزعات ، وقد يطفو على وجه الاناء أحيانا السيىء من النزعات ، ولكنه لايلبث حتى يرسب .. ان الشر فى الناس كالمرض .. فالناس تمرض أحيانا ، ولكنها لا تلبث حتى تعود اليها الصحة »

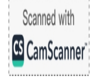
فقالت الملكة مبتسمة : « حبذا هذا التفاؤل »

الفصل العاشر

كان اليوم الثالث من أيام رحلة العودة الى باريس ، أشد أيام الرحلة قيظا ، وكانت الساعات الاخيرة فى تلك الايام ، أشدها هولا

لم يكن يفصل بين « مو » وباريس من الوقت سوى ساعة ونصف ساعة كما قلنا ، فلما لاحت أبواب باريس فى الدقائق الاخيرة من هذه الفترة من الزمن ، لزم الجميع الصمت ، ولم يعد فى وسع الرءوس أن تفكر . كان ترقب المجهول ،وانتظار المصير ، هما وحدهما الشعور الغالب ، وهو شعور يقيد الالسن ، ويعقل القلوب . وكان الطفلان كالعادة دائما ، أكثر ركاب العربة شعورا بقبح الموقف ، وشدة الساعة

ودلفت العربتان الى باب باريس المعروف « بورت سان دنيس » ، ولكن لو اتجهتا اليه فورا لكانت الرحلة الى قصر التويلرى قصيرة غاية القصر ، ولما تمتع جمهور باريس برؤية هذا الصيد الثمين .. الملك ، والملكة ، وأولادهما ، وشقيقة الملك ، وبقية الحاشية فى عربتين فاخرتين .. فكان لابد ان يحدد لهذا الموكب الملكى خط سير آخر ، يتيح لاكبر



عدد من سكان باريس ، رؤيته

والحق انه كان موكبا ملكيا تماما ، ولو ان الملكة كانت فى ثياب وصيفة ، والملك فى ثياب خادم .. ولكن فيما عدا هذا المظهر الخارجى ، وفيما عدا قذارة ملابس الاسرة المالكة الداخلية ، وما علق بها من تراب ، وما كان يفوح منها من عرق .. كان كل شىء ملكيا

لقد اصطفت الجماهير على الجانبين ، كما كانت تفعل ابان مجد الملكية ، وحينما كانت الملكة قريبة الى قلوب الشعب ، وكان الملك فى عنفوان مجده

وقد وطنت الملكة نفسها على أن تواجه فى صبر وثبات ، ما سترجم به من الشتائم ، وما سيستنزل على رأسها من لعنات ، بل لعلها وطنت نفسها على أن تمتد اليها الايدى بالاذى ، فقد كانت باريس فى رأيها ورأى زوجها بؤرة الجرائيم ومصدر الوباء ... ولكن الثورة لم تأذن لجماهير باريس أن يعبروا عن شماتتهم فى الاسرة المالكة على صورة غير انسانية ، فعلقت اعلانات فى كثير من الاماكن متضمنة انذارا بالجلد لكل من يهتف ضد الملك والملكة أو يسىء اليهما أو الى من معهما .. أما الهتاف بحياتهما ، فقد كان جزاؤه الازدراء العام

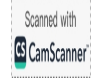
لذلك مرت العربة الملكية بين جموع الشعب فى صمت ، ولكنه كان صمتا مثقلا بالمشاعر المكبوتة ، التى تكاد تقفز من وجوه الناس وعيونهم . الا ان ضبط النفس فى مثل هذه

الواقف ، امر يشق على الشعب كثيرا ، لذلك بحثت الجماهير
عن متنفس لمشاعرها ، فوجدته فى السيد « درويه » ناظر
محطة « سان مينو » الذى غير تاريخها وتاريخ فرنسا كله ،
والذى على يديه تم فشل هذه الرحلة ، اذ ما كاد نظر الشعب
يقع على العربة الثانية ، ويرى داخلها السيد درويه ، حتى
تفجرت من قلبه هتافات مدوية ، وتصفيق كالرعد ، وقد
وجد الشعب فى شخص درويه هذا بطلا يحوطه بالحب
والاعجاب ، ويسبغ عليه ما امتلأ قلبه به من حماسة العاطفة
ولم يكن ثمة شىء أكثر ايلاما لمارى انطوانيت فى هذا الموكب
المشحون بعواطف الكراهية والشماتة المغلفتين بالصمت ،
اكثر من الهتاف لدرويه ، لا لانها كانت تنفس عليه استثاره
بهتاف الشعب الذى كان من حقها الذى لا نزاع عليه فى
الماضى ، بل لانه كان يذكرها بالرجل الذى قلب كل خططها ،
وافسد عليها عملا درس واستنفد من الجهد والمال والسهر
الشىء الكثير .. وعجبت كيف يستطيع فرد واحد أن يغير
اتجاه الاحداث على هذه الصورة ، واى فرد ؟ فرد مجهول
لم يكن فى حساب أى ممن اشتركوا فى مؤامرة فرارها ، فقد
كانت هى ، وكان شركاؤها فى تدبير رحلة الفرار ، يحسبون
حساب لافييت ، ومارا ، والجمعية الوطنية ، ومجلس بلدى
باريس وعشرات الرجال والهيئات ذات النفوذ ، ولكن لم
يفكر أحد فى ناظر محطة سان مينو .. المسيو درويه الشاب !
ولم تكن مارى انطوانيت تفكر فى شىء اسمه التاريخ ، ولم

تحاول ان تفهم كيف يصنع ، ولا كيف يكتب ، ولا تلقى اليه بالها فى قليل او كثير .. اما الآن ، فالتاريخ عندها شىء عجيب ، فليس هو بالمكان الارستقراطى الذى يحتله السادة فقط ، ولا أصحاب الالقاب ، ولا ذوو الثياب الزاهية المطرزة بالذهب والفضة .. انه مكان مفتوح لكل فرد مهما صغر ، حسبه انه يريد ويصمم على ما يريد ، ويمضى الى غايته لايلوى على شىء

ويعود الهتاف لدرويه ، فتذكر وجوانبها تكاد تنفجر غيظا، كيف انها فى صدر نهار رحلة الفرار ، كانت قد اطمانت الى المستقبل ، وادركت انها نجت من الخطر ، وكيف ان زوجها أخرج من الصناديق التى شحنت طعاما فاخرا ؛ فأكل واكل معه أعضاء الرحلة ، فطورا شهيا .. وكيف انه بعد أن اكل وشبع اخرج خريطة فرنسا وبسطها فوق ساقيه ، واخذ يتأمل عليها خط سير العربة ، فعرف لاول مرة ، مدنا وقرى وكفورا فى مملكته الواسعة ، لم يقع نظره عليها من قبل ، بل لم يسمع باسمها أبدا . وكيف ان روح المرح والسعادة سادت الجميع ، فأخذوا يتندرون على الاسماء المستعارة لكل منهم ، فهى « مدام روشيه » الوصيفة ، وزوجها الخادم « دوران » ، وكالعادة كان الصغيران أكثر استجابة للروح السائدة ، فهما ككل الاطفال ، « ترمومتر » المشاعر فى الجماعة التى يعيشون فيها

وقد كانت طبائع الامور تبشر بانها ستستمر رخاء ، لان



احدا لم يكن يحسب حسابا للمسيو درويه .. ولكنهم هم المخطئون ، فعند « شالون سيرمارن » وصلت عربتهم الفاخرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وكان أهل المدينة قد فرغوا من اعمالهم ، وذهبوا الى محطة العربات ، كعادة اهل الريف ، ليقضوا وقت الفراغ فى أحاديث الترويح عن النفس ، وليسمعوا الاشاعات ، وليسألوا عن أخبار باريس من القادمين منها . وجاءت عربة الملك والملكة ، ووقفت ، فأثار منظرها الفاخر وضخامتها غير المألوفة اهتمام أهل القرية وفضولهم معا ، فتأملوا ركابها ، فأدهشهم ان الركاب الستة بقوا بها ، دون أن يفكر أحدهم حتى الطفلين فى أن يخرجوا منها على عادة المسافرين ، ليريحوا سيقانهم من طول المكث فى العربة . وبدا ان هؤلاء الركاب لايريدون أن يتبادلوا كلمة واحدة مع موظفى المحطة ، ولا مع أهل المدينة ، بل ان سائق العربة ، وسواسها فعلوا نفس الشىء .. وكل ذلك غير مالوف ، بل غير طبيعى .. فبدأ التهامس بأن هؤلاء لابد أن يكونوا من المهاجرين ، وانهم يودون أن يتركوا فرنسا ويصلوا الى حدودها بلا تمهل

ولم تكد العربة تفارق « شالون » حتى ذاعت فى الحال اشاعة لايدرى احد مصدرها بأن الملك والملكة كانا فى تلك العربة الفاخرة ، وسمع درويه هذا كله . فنشطت كل حواسه . ولم يكن درويه مجرد ناظر محطة ، فقد كان ثوريا منتميا الى اليعاقبة زعماء الثورة المتطرفين ، وكان بطبيعة

انتمائه الى هذه الجماعة من الثورة ، متابعا لما تنشره الصحف فى باريس من ان الاسرة المالكة قد تفر ، وان فرارها سيكون نكبة على الثورة وكارثة للبلاد . وكان فوق هذا جنديا اتم الخدمة العسكرية فى سلاح الفرسان ، فكان امتطاؤه صهوة جواد والعدو به ، من أيسر الامور لديه ، واحبها الى نفسه

وفعلا قفز على ظهر حصان سريع ، وطلب الى مساعده ، ان يفعل كل ما فى وسعه ، ليحد من سرعة العربة المشبوهة.
وفعلا حدث هذا ، فالعربة سارت خلف جواد مساعد درويه بطيئة ، بينما كان درويه نفسه ، قد شق لنفسه طريقا قصيرا الى « فارن » ، وهناك أيقظ الشبان الذين يعرف عنهم ميولهم الثورية ، وولاءهم لمبادئهم ، وألقى اليهم بالخبر الذى وصل الى علمه ، ودعاهم الى أن يكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة كل ما تأتى به الظروف من احتمالات . وفرح الشبان فى تلك المدينة الصغيرة ، ان تتيح لهم الظروف القيام بواجب ثورى على هذا القدر من الاهمية ، وصور كل منهم لنفسه المخاطر المحدقة ببلاده ، وبالثورة ، ان نجح الملك والملكة فى الفرار ، وشعروا جميعا بأنهم قد أصبحوا ذوى أهمية وخطر

وما أسرع ما تنتشر الاشاعة ، وما أسرع ما يتحرك الفضول فى صدر كل انسان ، فلما وصلت العربة الملكية الى «فارن» كانت المدينة قد استعدت لاستقبالها لا مرحبة ولا متساهلة. بل كان الشك يملأ فيها النفوس ، وكان التجهم هو المظهر السائد لشبانها

ولـكن عمدة البلدة ، وكان فى الاصل بقالا ، وله من اسمه نصيب ، فقد كان اسمه « صوص » أى « صلصة » .. كان هذا العمدة فى اعماق قلبه ملـكيا ، ولـكنه كان يخفى عقيدته اتقاء للمخاطر . وذهب العمدة الى العربة وطلب من ركابها ان يبرزوا اوراقهم ، فأبرزوها ، وتناولها العمدة ، ومن حوله دورويه ، وشبان البلدة الثائرون

كانت لحظات رهيبة هـذه اللحظات التى مرت منـذ مد السيد « صوص » يده الى الاوراق . حبس الشـبان انفاسهم ، فانهم لم يروا الملك والملـكة من قبل . ولم يروا صورة الملك بالذات الا مطبوعة على أوراق النقد وقطعه المعدنية اما أن يأتى الملك والملكة الى مدينتهم . وألا يكون بينهم وبين العاهل وزوجته حاجز ، فذلك شىء مذهل . وأن يكون لهم حظ القبض عليهما ، واصدار الاوامر لهما ، فهو أمر لايكاد يتصوره عقـل

واطال السيد « صوص » النظر فى الاوراق والشـبان الفلاحون يكادون يلتهمونها بعيونهم التى يلمع فيهـا بريق عجيب ، مع آيات من السذاجة والطيبة لايخفيها غضب ولا قلق

واخيرا رفع السيد « صوص » راسه وقال : « ان الاوراق سليمة ، ولا يمكن حجز ركاب العربة ! »

وصمت الشبان لحظة ، صمتا فيه من خيبة الامل ما لا سبيل الى وصـفه ، ولـكنهم لم يدروا ماذا يقولون ، وماذا يفعلون ، وكيف يحتفظون بهذه الفرصة الذهبية التى اتيحت

لهم وتريد ان تفلت من أيديهم .. ان الخبرة التى يقتضيها هذا الموقف الغريب ، تعوزهم ، ولا نعدو الحق اذا قلنا انها تعوز أهل المدينة بل أهل الناحية ، بل انها تعوز الجميع . فمن منهم لقى من قبل ملكا يفر فى عربة مع زوجته الجميلة ؟ ومن منهم تصدى لعربة ملكية ليوقفها ، ويحقق اوراق ركابها ويصدر لهم الاوامر ؟

الا ان الموقف قد حل ، فان درويه كان ثوريا بحق ، وكان كفئا للموقف ، يستطيع أن يتصرف فى ثقة ، وفى حضور ذهن ، وبحسم . فقد قال على الفور :

« ان ركاب العربة هم الملك والملكة ، فان سمحت لهم بالسفر فانك بهذا ترتكب الخيانة العظمى »

الخيانة العظمى ! رنت الكلمة فى جو المكان ، ووقعت من نفوس الريفيين جميعا موقعا جميلا ، فان هذه الكلمة يسمعونها كثيرا ، ولكنهم حينما كانوا يسمعونها كانوا يعرفون انها من كلمات العاصمة وألفاظها . انها جزء من السياسة الكبيرة التى لا يحق لهم أن يشاركوا فيها . اما أن يصل الامر الى أن تقال فى بلدتهم ، فهذا هو الحظ العظيم . ونظروا الى « درويه » فوجدوه غاضبا أشد الغضب ، واثقا من نفسه كل الثقة ، فبدا لهم عظيما ، جديرا بالحب والاحترام، لا لانه قال الكلام الذى كانوا يودون أن يقولوه فقط ، ولا لانه قاله فى عبارة جلية وآمرة فحسب،بل لانه منهم لا يختلف عنهم ، ومع ذلك فقد خاض فى أمر هام ، يتعلق بالثورة وبالوطن ، وبالملك والملكية . وهذه كلها امور ما كانوا

يتصورون ان تتاح لهم هكذا دفعة واحدة ، وبلا تحضير او سابق تنبه

اذن فقد وضح الموقف ، فهذه العربة لن تتحرك ، وركابها لن يستانفوا رحلتهم . وفى الحال تقدم منهم من قال : «نعم ! انها ستكون خيانة عظمى »

وردد الجميع الكلمة وهم يتلمظون بها . وتردد السيد العمدة ، فاتاح تردده للشبان أن يستمتعوا بالموقف أكثر مما كان مقدرا ، فقد هموا برفع أيديهم فى الهواء ليستعملوها . فهم اذن سلطة أكبر من العمدة .. وهذه متعة أخرى ليست بالقليلة

ولم تكن شجاعة السيد « صوص » لتسمح له بأكثر من التردد الذى ساوره ، فرأى فى الحال أن يقول مكرها لركاب العربة : « لا مفر من أن تقضوا الليلة في فارن »

فانبعث من العربة صوت الملكة ، لايدل على اضطراب ولا جزع ، بل يدل على العكس من ذلك ، على رباطة جأش ، وحضور ذهن ، وبراءة مظهر ، حتى شك درويه نفسه فى انها الملكة ، فقد قالت : « أرجوكم ألا تؤخرونا فاننا فى حاجة ملحة الى الاسراع »

ولكن لم يكن فى وسع العمدة أن يتحمل هذه المسئولية الكبرى فقال فى حزم استمده من حزم درويه : « للأسف .. لا مفر من المبيت هنا الليلة ، وفى الصباح يمكنكم ان تستانفوا المسير»

وذكرت مارى انطوانيت هذا كله ، ولما وصلت فى ذكرياتها

الى هذه العبارة ، ابتسمت ابتسامة ساخرة ، وقالت تحدث نفسها : « نستأنف المسير .. ولكن الى أين ؟ الى باريس مرة اخرى .. الى سجن جديد »

وتمنت لو كانت لها أعصاب زوجها ، فانه حين علم أنه لا مندوحة عن قضاء ليلة فى بيت البقال العمدة ، صعد بخطاه الثقيلة الى الدور العلوى ، ولم يكد يحط بجسمه على اول مقعد رآه ، حتى طلب شيئا من النبيذ وقطعة من الجبن

ولم تستطع أن تسترسل فى ذكرياتها أكثر من ذلك ، فقد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من قصر التويلرى .. عادت الى المكان الذى أرادت أن تفر منه ، فلما رأت الباب الذى كانت تمنى نفسها ألا تطأ عتبته بقدمها الا بعد أن يقضى على الثورة ، وتعود اليها هالة المجد القديم ، اهتز كل جسمها برعدة قاسية ، وكادت هذه الرعدة أن تستحيل الى صرخة عالية ، حينما رأت جموعا من الشعب يهجمون على السواس الذين كانوا يركبون خارج العربة ، فوق مقعدها العالى الى جانب السائق ، ثم ينتزعونهم من مكانهم ، ويطرحونهم ارضا ، ويهمون بذبحهم

تصورت الملكة أنها سترى فى الحال رءوسا يسيل منها الدم ، مرفوعة فوق رماح .. ان الشعب الذى اراد ان يحترم ارادة قادته واوامرهم بالا يمدوا أيديهم الى الاسرة المالكة بأذى ، لم يروا سبيلا لشفاء حقدهم على اعدائهم ، سوى أن يسلطوا سخطهم وغضبهم على هؤلاء الذين صحبوا

الملك والملكة فى فرارهما خارج البلاد ، الا ان الحرس الوطنى اسرع بانقاذ هؤلاء من أيدى الشعب ، ووفروا على الملكة ان ترى منظرا لايروقها

٭

عادت مارى انطوانيت الى قصرها ، وفيما هى تهم بالدخول من الباب ، صك أذنها صياح بعض النسوة يقلن : « لقد أحضر نساء باريس الملك اليها ، فأضاعه رجالها » . فأجابهن الرجال : « لم تكن هديتكن لباريس مما يفخر بها احد »

وكان القصد من هذه العبارة ، ان نساء باريس هن اللائى اجبرن الملك على ترك قصر فرساى فى ٥ أكتوبر من العام السابق على الفرار ، فوضع تحت حراسة لافاييت وجنوده ، ولكنه استطاع ان يغافل هذه الحراسة ، وأن يفر

ولما دخلت الاسرة المالكة الى القصر ، احست بأن القصر استقبل أثناء غيابهم ضيوفا غيرهم .. ولم يكن هؤلاء الضيوف سوى الشعب نفسه ، فان نبأ فرار الملك من القصر ما كاد يذاع ، حتى تدفقت جموع الباريسيين الى قصر التويلرى لتتأكد من صحة الخبر ، فلما ثبتت صحته ، طاف ابناء الشوارع على حجرات الملك والملكة ، وهم يهزءون بالحراس ، ويوزعون الفكاهات هنا وهناك ؛ فمن قائل : « كيف يمكن ان تفلت هذه الجثة الضخمة منكم ولا ترونها ؟ » الى قائل : « لا يعقل ان يفر الملك منكم ، فلا بد انكم تواطأتم

معه » . ودخلت احدى بائعات الفاكهة الى فراش الملكة ، ووضعت فوقه ما معها من الكريز وهى تقول : « لقد جاء الآن دور الامة فى النعيم » ووضعت قبعة الملكة على راس فتاة صغيرة ، فخلعتها هذه باباء والقتها على الارض ، وداستها بقدمها بكل ازدراء واحتقار

ولما أوى الملكان الى مخدعهما ، كتب الملك بخطه الواضح الثابت : « لم تستغرق الرحلة من مو الى باريس سوى ساعة ونصف ساعة دون توقف »

وكان هذا كل ما رأى التعليق به على هذه العودة الشائنة والحاسمة معا .. وكأنه كان عائدا من رحلة صيد . وهذا ما لاحظه بثيون بالضبط ، فانه لم ير على وجه الملك عند عودته ما يدل على انه عائد من رحلة قهر وذل .. بل من رحلة صيد وقنص .. ! ولله فى خلقه شئون

أما الملكة فقد أحست بحاجتها الشديدة الى ان تسكب ما فى قلبها الى حبيبها ، فكتبت الى فرسن خطابا تطمئنه فيه على نفسها ، وترجو منه الا يكتب لها بعد اليوم ، وتحذره من محاولة العودة الى باريس لان الجميع يعلمون انه كان منظم هذه الرحلة ومدبرها ، ثم تصور حنينها اليه ، وحبها له ، فى عبارات هى آية من آيات الرقة والعذوبة

الفصل الحادى عشر

شهدت أيام العودة الى باريس مفاوضات سياسية ، وابحاثا فلسفية . ولم تكن المفاوضات السياسية مجرد تسلية وازجاء فراغ ، ونسيانا لما يجرى خارج العربة . فان الملكة كانت تحس ان الخطر الذى يهددها أكبر من ان تواصل معه طيشها ونزقها ، فالامر عندها كان أمر حياة أو موت .. ولذلك فرحت أشد الفرح حينما قبل برناف ، أن يكون مستشارها ، ووعدته وعدا جادا أن تأخذ بمشورته ، وأن تعنى باستطلاع رايه ، وأن تعرض عليه ماتمر به من أزمات .. وكان برناف جادا كذلك ، حينما وعدها بأن يبذل لها الرأى ، وان يجنبها العثرات ، وأن يحسن الشهادة عنها عند زعمائه وقادة الثورة

وعادت الملكة الى القصر ، وبدا ان الجو ساده شىء من الصفاء . ولكنه كان صفاء مخوفا ، لانه كان يكشف عما وراءه من زوابع وأعاصير

فما كادت العائلة المالكة تستقر فى قصر التويلرى ، حتى أصبح الملك عنصرا نفيسا عند أعضاء الجمعية الوطنية ، التى كان مفروضا ان تلعب دور العدو ضد الملك . ولكن جميع الفروض فى الحياة السياسية قابلة للذوبان والاختفاء لتحل

محلها حقائق اخرى جديدة لم تكن فى الحسبان . فالحياة السياسية فى فترة الثورات ، أشبه شىء بالماء الذى يغلى فوق مرجل لا تفتر ناره ، وذرات الماء لا تنى ترتفع وتنخفض فى حركة دائبة مستمرة ، وهذه الحركة لا تكف بدورها عن ان تنتج فقاقيع ، تتكون ثم تختفى وتختفى ليتكون سواها .. وهكذا

فالملك حينما أعيد الى القصر ، ووضع هو وزوجته تحت حراسة يقظة لا تفوتها حركة من حركاتهما ، بلغ من قسوتها أن فرضت على الملكة أن يبقى بابها مفتوحا دائما

ولكن هذا كله شىء ، وما طرأ على المراكز السياسية للمعسكرات المختلفة شىء آخر .. فالجمعية الوطنية كانت قد اوشكت أن تفرغ من الدستور ، وكان للفراغ من الدستور معنى يفهمه الجميع ، هو ان انتخابات جديدة ستجرى .. وانتخابات جديدة معناها ان الطبقة الجديدة التى ولدت ستتاح لها فرصة رسمية لتثبت وجودها ، وتحصل نهائيا على حقوقها

فما هى هذه الطبقة الجديدة ؟ وما هى حقوقها ؟

قبيل الثورة ، كانت هناك ثلاث طبقات معترف بوجودها رسميا ، طبقتان ممتازتان ، هما طبقة الاشراف ، وطبقة امراء الكنيسة ، وطبقة مغلوبة على أمرها ، هى الطبقة الثالثة . ولكن هذه الاخيرة ما لبثت حتى اصبحت صاحبة الكفة الراجحة ، فجرت وراءها الطبقتان الاخريان .. فلما

اجريت الانتخابات ، ثم انعقدت الجمعية الوطنية فى ٥ من مايو عام ١٧٨٩ ظهر ان عددا ضخما من أبنـاء الطبقة المتوسطـة كالمحامين والقضاة والتجار والصناع وأصحاب المصانع ، قد احتلوا مكانهم فى برلمان الامة ، وان كلمتهم هى السائدة ، وان حيويتهم مصدر الحركة فى الجمعية .. وما لبث المعسكران الآخران حتى وفقا الى ما يشبه الهدنة مع المعسكر الجديد الناشىء ، فقد أحس الجميع ان خطرا جديدا يهددهم جميعا ان لم يتضامنوا ويقللوا من أسباب الخلاف بينهم . ذلك ان الطبقة الرابعة ، طبقة صغار الزراع ، أطلت برأسها واعلنت عن رأيها واتجاهها فى شوارع باريس ، وفى مظاهراتها . وهـذه الطبقة البكر لم تعرف من قبل دهاليز السياسة ومنحنياتها ولا تحسن الا لغة واحـدة هى الصراحة الجافية ، وأسلوبا واحدا للوصـول الى أهدافهـا هو اسلوب الصراع والقتـال ، واقتحام الحواجز ، والفتك بالخصوم ، والضيق من اللف والدوران

فمثلا كانت الجمعية الوطنية بأسرها ملكية . صحيح ان من أعضائها من كان يتطرف لحساب الملك ، فيريد له سلطة تكاد تكون مطلقة ، لا تنقص الا قليلا عن سلطته قبل الثورة ، اكتفاء بوجود برلمان ، وبوجود حرية راى ممثلة فى الصحافة ، وبتحسن الادارة الحكومية ، والارتفاع بكفايتها . وهناك من كان يعتدل ويأخذ من سلطة الملك بقدر ما يعطى للبرلمان . وهناك من يتطرف لحساب الشعب فيجعل الملك مجرد رمز ،

وراسا شرفيا للدولة . ولكن المتطرفين الى اليمين : والمتطرفين الى اليسار ، والمعتدلين ، كانوا جميعا لايفكرون فى الغاء الملكية ولا القضاء عليها . فلما عاد الملك ، واحسوا بميلاد مبدأ جديد هو الجمهورية ، زادوا تضامنا وازدادوا حول الملك التفافا ، واشتدوا لمبدا الملكية ولاء. ولذا روجت اشاعة خارج فرنسا مؤداها ان الملك لم يحاول الفرار ، بل خطف خطفا ، وذلك بقصد تطهير سمعة الملك فى الخارج

ولكن التيار الجديد اخذ يشق طريقه ، فدعا اليعاقبة وهم الجناح المتطرف فى الثورة ، والذى اتخذ من احد أديرة اليعقوبيين دارا له ، الى اجتماع عام فى ميدان « شان دى مارس » وطالبوا فيه بوجوب نزول الملك عن عرشه ، فأسرع لافاييت وهو زعيم من زعماء الطبقة المتوسطة ، الى مكان الاجتماع بحرسه الوطنى ، ففرقه برصاص البنادق ، فسقط جرحى وقتلى ، وسقطت معهم المكانة الشعبية للجنرال لافاييت ، فلم تقم له قائمة ، حتى فر آخر الامر الى الخارج

وكان يمكن أن يضعف هذا المعسكر الجديد ، لولا ان القانون الابدى الذى يلخص فى ان المعسكر الذى انتهى دوره وانقضت رسالته يزول عهده بأن يعمل ضد نفسه اكثر مما يعمل ضده خصومه ، هذا المبدا انطبق على العرش الفرنسى. فان شقيق الملك الكونت بروفانس استطاع ان يفر خارج فرنسا ، وهناك عمل ما فى وسعه ليقضى على حياة اخيه ؛

وعلى كل امل للتاج الفرنسى فى النجاة . ذلك لانه كان يضمر منذ اليوم الاول لارتقاء لويس السادس عشر العرش ، الامل فى ان يخلفه ، وقد مر بنا كيف كان يرى نفسه احق بهذا العرش من اخيه السمين ، البليد ، الفاتر الهمة . ولم تكن هناك حاجة الى كبير جهد لتحطيم لويس ، واسلام عنقه وعنق زوجه الى المقصلة . اذ كان حسب الكونت بروفانس ان يرغى ويزبد وهو آمن خارج حدود فرنسا ، وان يدعو الى مقاومة الثورة بالحديد والنار ، وأن يؤلب ملوك أوروبا ضدها ، وان يعمل على جمع هؤلاء الملوك فى حلف مقدس ، ليقضوا على الوباء الفرنسى ، وحصره حتى لا ينتشر طاعونه فى جميع دول اوروبا . حسبه ان يفعل ذلك وهو بعيد عن الخطر ، لترتفع كلمة أعداء العرش الفرنسى ، وأن يزداد التيار الجمهورى قوة ، فيقضى على لويس وعلى مارى انطوانيت ، فيفتح بذلك لنفسه الطريق الى العرش ، بعد ان تفقد الثورة أسباب قوتها مع الزمن

فكان على مارى انطوانيت والحالة هذه ، ان تحارب فى الداخل وفى الخارج . كان عليها أن تواجه خطر التيار الجمهورى الوليد ، وخطر مؤامرات ودسائس شقيق زوجها الكونت بروفانس وزميله الشقيق الاصغر الكونت دارتوا

ولو كان ميرابو حيا لاعانها ، ولكن ميرابو كان قد مات فى مارس عام ١٧٩١ قبل رحلة فرارها المخفقة ، ولكنه عندما كان حيا لم تقدره حق قدره ، فقد كانت تراه رجلا ذا

وجهين ، ومهرجا لا مبدأ له ، وزير نساء لا يؤمن بالحب بقدر ما يؤمن بلذة الجسد ، فلما قابلته بعد الحاح ، فى ركن من قصر التريانو ، فى ليلة مظلمة ، كادت تصرخ من فرط دمامته وقبح البثور التى تخلفت من الجدرى فىوجهه ، ولكن الادب والحياء منعاها ، أما هو فقد خلبته الملكة بجمالها وعذوبة صوتها ، وبريق ذكائها ، ولكنها لم تلتفت اليه حتى قضى ، فخرجت باريس ممثلة فى ثلاثمائة ألف من أبنائها تشيع جثمانه

كان ميرابو هو ابن الثورة ولسانها الذى يدير رءوس الزعماء والشعب معا ، فأنى لها بعد وفاته صديق يساويه قوة وقدرة وشجاعة !

لم يكن لديها سوى برناف الذى ساقته الظروف اليها فى تلك العربة المشئومة

ولم تتردد مارى انطوانيت فى أن تكتب اليه خطابا تقول فيه انها لم تكف منذ عادت عن التفكير فى ذكائه الوقاد ، وانها تبينت انها ستكسب كثيرا من تبادل الرسائل معه ، وان له ان يثق بكتمانها للسر ، وبقدرتها على عدم البوح لاحد بما سيدور بينهما ، فانها تعلى قدر المصلحة العامة ، وتراها جديرة بكل تضحية

وبعد هذه المقاومة البارعة ، مضت مارى انطوانيت الى الهدف بلا التواء فقالت : « الامور لايمكن أن تترك هكذا حيث هى ، فلا بد من شىء يعمل ، ولكن ما هو هذا الشىء ؟ انى

لا ادرى .. فاليك أتوجه بالخطاب رجاء ان اتبين هذا الشيء .. واحسب ان مناقشتنا قد كشفت لك عن اننى كنت اعمل مدفوعة بايمان سليم ، وأستمر أعمل مدفوعة بهذا الايمان ذاته .. وهذه هى المزية الوحيدة الباقية لى ، وهى مزية ليس فى مقدور أحد أن يحرمني منها »

« وانى لاعتقد ان الله وهبك نوايا طيبة ، وقد كانت نوايانا نحن طيبة كذلك مهما تقول الناس علينا .. دعنى اذن أعمل معك ويدى فى يدك .. واذا تبينت سبيلا الى تبادل الآراء معا ، فانى سأجيب بصراحة الى أقصى ما تطيقه قدرتى .. ولن اتردد فى بذل أية تضحية تقتضيها المصلحة العامة »

ولست أظن ان أحدا يجادل فى ان هذا الخطاب وثيقة انسانية ذات قدر كبير ، وهى تفتح بابا لتساؤل كثير .. فهل كانت مارى انطوانيت مخلصة فيما قالت ، أم كانت تلعب دورا سياسيا ؟ ان الالتواء والمداورة لم تكن أبدا ضمن عيوبها الكثيرة ، بل كانت على العكس نزقة ، طائشة ، سريعة الغضب ، لا تخفى رغباتها ولا تكتمها ، ولم تكن تدارى خصومها ، فهل علمها السلطان الزائل ، وعلمها الموت الذى كان يدنو نحوها بخطى متصلة ، وعلمتها الاحداث المتلاحقة ، والوحدة وانعدام الصديق ، فنا جديدا لم تتقنه من قبل ولم تفكر فيه ، وهو فن السياسة وكسب الاصدقاء ، والعبث بحسن نوايا الابرياء ؟

ان برناف على بساطته ، وعلى حداثة عهده بباريس لم تدر

رأسه فى الحال ، عبارات الخطاب الساحرة ، بل انه خاف عواقبه ، ورأى ان التمهل والتدبر خليقان بهذا الموقف الجديد الشائك ، فعرض الخطاب على أصدقائه ، الذين ادهشهم الخطاب واعجبهم ، فقد تملق كبرياءهم الامل فى كسب الملكة لفكرتهم الدستورية ، وفى ظل السرور بهذه النتيجة ، قرروا ان يجروا مع الملكة مفاوضات سرية ، ونفذوا قرارهم ، وفى المرحلة الاولى من مراحل هذه المفاوضات ، اقترحوا على الملكة امرين : ان تطلب الى شقيقى الملك ان يعودا الى فرنسا ، وان تطلب الى شقيقها ليوبولد امبراطور النمسا ان يعترف بالدستور الفرنسى ، اى دستور الثورة ، واعلنت الملكة انها ستنفذ ما طلبوه ، وكل ما سيطلب منها فى المستقبل ، على شريطة الا يكون فيما تنصح به مساس بشرفها ، ولا بوفائها لمن اسدوا اليها يدا ، او وقفوا معها فى محنتها

وتحقيقا لهذه المعاهدة غير المكتوبة ، طلبت الملكة الى برناف ان يكتب لها مسودة الخطاب المقترح ارساله الى اخيها الامبراطور ، ولما قدمت لها هذه المسودة ، كتبتها بخطها ووقعتها وارسلتها الى شقيقها عن طريق السيد « مرسى » سفير النمسا فى باريس ، وفى اليوم التالى كتبت مارى انطوانيت نفسها خطابا الى السفير ذاته قالت فيه :

« فى يوم ٢٩ كتبت لك خطابا ، ولاشك عندى فى انك تبينت انه لم يكتب بأسلوبى المعتاد ، فلقد رايت ان من

الحكمة ان اسلم برغبات زعماء الحزب هنا ، الذين كتبوا مسودة الخطاب لى ، وبالامس ٣٠ كتبت بروح اخرى للامبراطور ، وان هذا الاحتيال لخليق بأن اعده مهانة لى ، لولا ان عندى من الاسباب ما يجعلنى أؤمل فى ان يتبين اخى اننى فى وضعى الحالى لا خيار لى فى تنفيذ ما يطلب الى ، وانه ليكونن من الظلم ان ننكر على زعماء الثورة ، وان كانوا شديدى الاستمساك بآرائهم ، انهم صريحون الى أقصى حد ، وانهم رجال ذوو ارادة ، وان لديهم رغبة صادقة فى اعادة النظام باعادة السلطة الملكية

ومع ذلك فان وجهات نظرهم ـ أيا كانت نواياهم ـ متطرفة الى الحد الذى يستحيل معه علينا قبولها »

وأضافت الملكة انه من الامور الحيوية أن يثق الامبراطور بأن خطاب ٢٩ من اغسطس ، لم تكن فيه كلمة واحدة تعبر عن حقيقة آرائها أو عن وجهات نظرها فى الامور

ولسنا نريد أن نتخذ هنا موقف الواعظ ، وان نشجب هذا الموقف ذا الوجهين الذى وقفته مارى انطوانيت من اشخاص اخلصوا لها واحسنوا الظن بها ، ووقفوا الى جانب الملكية وهى تلفظ انفاسها ، وتنكس اعلامها ، حتى دفعوا فيما بعد ثمن هذا الاخلاص ، رءوسهم على نطع الجلاد

ولكن الذى يستحق منا التفاتا وعناية اكبر هو التامل فى اثر هذا اللقاء القصير الذى لم يدم بين ممثلى الثورة ، وممثلى الملكية ، اكثر من ثلاثة ايام فى تلك العربة

فان الملكة التى لم تكن تفكر ابدا فى ان تسمع لواحد من هؤلاء الزعماء ، حتى ولا من وراء حجاب ، او عن طريق الواسطة ، لم تكد الظروف تفرض عليها أن يحشروا معها فى مكان ضيق ، حتى تبينت فيهم ما كانت تنكره عليهم من صفات ، بل حتى قبلت أن تتخذ منهم مستشارين واخدانا ، وان تفاوضهم ، وتعقد معهم المعاهدات وتنفذ برأيهم الخطط

ولقد مر بنا انها رفضت أن تقابل ميرابو الا مرة واحدة ، وفى غفلة عن أعين الرقباء ، كما رفضت أن تصغى الى نصائحه ، رغم ان ميرابو كان من طائفة الاشراف ، فقد كان يحمل لقب « كونت » ، لا لشىء الا لانه انتسب الى الثورة ، وتزعمها ، وأتاحت له بلاغته النارية ، وشجاعته التى لم تكن تحفل بالقواعد ، ولا بما تعارف الناس عليه من مبادىء ، ان يكون لسان الثورة وخطيبها ، فخسرت مارى انطوانيت بذلك صديقا يظن كثير من المؤرخين انه كان قادرا على أن يجنب ملكية فرنسا ما تردت فيه آخر الامر

فلما فرض عليها أن ترى من زعماء الثورة من هم دون ميرابو بمراحل ، شجاعة وفصاحة ومرونة وأثرا فى الناس ، قالت عنهم ما قالت فى خطابها ، فأقرت بأنهم صرحاء للغاية ، وذوو ارادة ، ومؤمنون بعقائدهم ، ومخلصون فى رغبتهم فى اعادة النظام ، واعادة الملكية على أسس دستورية

فتباعد الناس بعضهم عن بعض ، هو الذى يبذر بذور الفرقة بينهم ، ويؤدى الى الكوارث ، والنظام الذى يقف

بعيدا عما حوله وعمن حوله ، يرى نفسه ، حينما يبلغ آخر العمر مطالبا بأن يقاتل يمينا ويسارا ، ثم يتألب الاعداء عليه من كل جانب ، فلا يصيبه منهم جميعا سوى الركل والطعن والمهانة، فلكل نظام من الحكم ، حكمته ومبرراته ، وهو حينما يستنفد مبررات وجوده ، لابد أن ينتهى ، فلا ينفع للابقاء عليه صنوف العلاج ، ولكنه حينما يستبقى صلاته بالمجتمع الذى ولد فيه ، وبالبيئة التى تحيط به وينفعل بها ، يتطور تطورا مستمرا لاينتهى ، فيقبل الجديد : يتمثله ، ويضيفه الى نفسه ، فلا يبلى أبدا ، لانه يكون كالجديد تماما ؛ أو يكون هو والجديد شيئا واحدا ، وقد لايكون هذا ممكنا دائما بل انه يكاد يكون مستحيلا فى أغلب الاحوال ، اذ لا تكاد توضع فلسفة فى اناء كما توضع الافكار فى حكومة ما ، حتى تتجمد فى ذلك الاناء وتأخذ شكله فلا تقوى على تجاوز نطاقه ، الا اذا حطمت الوعاء الذى وضعت فيه ، أو تناثرت خارجه على غير صورتها الاصيلة ، أو تحطم كلاهما

فمارى انطوانيت حين رأت الثوار كانت مخلصة فى تأثرها بهم ، ولكن لقاء ساعات لا يكفى ليغير نظاما كاملا ، ومارى انطوانيت لم تكن امراة ، ولم تكن ملكة ، بل كانت نظاما ، فقد عاشت هى وزوجها وأولادها ، وعاشت أمها وآباؤها ، واجيال من اسرتها ، تفكر بعقل خاص ، وتنظر الى الامور نظرة خاصة ، وقد ارتسمت للاشياء وللاشخاص وللمبادىء صورة فى عقلها وقلبها ، كان مستحيلا عليها ان تستبدل بها

صورة أخرى مهما جاهدت

ويلذ لبعض المؤرخين ان يتســـــاءلوا ، هل كانت مارى انطوانيت فى مفاوضتها مع برناف وزملائه من زعماء الثورة ، مناورة ، تداور لـكى تبحث عن فترة زمن تتنفس خلالها ، فى انتظار ما يأتى به المستقبل من أسباب النجاة والتغلب على الاعداء ؟ أم كانت مخاصـــة فى تعاونها معهم ، بينما لم تكن صادقة فيما كتبته الى ممثلى العهد القديم ، أو مع سـفير أخيها للسيد « مرسى » ، أو حتى مع حبيبها « فرســـن » ؟

والحق ان النظر فى موقف مارى انطوانيت على هذا الضوء خطأ صراح ، فهى لم تكن تملك نفسها • كانت الاحداث قد انتزعتها من جذورها ، ولـكنها لم تكن قادرة على أن تجد تربة أخرى تستقر عليها ، وتستأنف فوق سطحهـا حيـاة جديدة ، ولذلك فقد كانت تتـكلم بلغتين ، دون أن تعى ، وتتجه اتجاهين دون أن تدرى ، وتتـأثر بفكرتين دون ان تقصد ، كانت كالريشة فى مهب الريح ، تعـلو وتنخفض ، تروح وتجىء ، تؤمل وتيأس ، تقدم وتحجم ، ثم هى لا تملك من أمر نفسها شيئا .. فالحياة من حولها تغيرت والمعايير التى الفتها وارتاحت لها سنين طويلة ، ومرنت على اسـتعمالها والافادة منها ، قد زالت كلها فجأة ، دون أن تجـد معايير اخرى تثق بها وتطمئن اليها

لقد عرفت الثورة فوجدتها شيئا مخيفا ، كغول هـائل انطلق من عقاله فجأة واقتحم عليها خلوتها الجميـــلة ، فى

قصورها الانيقة ، وحطم هذه الاسوار المزخرفة الغالية التى كانت تحجبها عن الشعب وعن النـــاس ، بآلامهم وفقرهم واحزانهم ، وانتزعها من أحلامها الهادئة ، وسلبها رياشـــها واثاثها وثيابها .. فلم تملك الا أن تخاف هذا الغول ، وكأشد واعمق ما يكون الخوف ، ولم تملك الا ان تكرهه .. فلمـــا اجتمعت بهؤلاء الثوار ، ودار بينهـــا وبينهم الحـــديث الذى سمعنا طرفا أو شذرات منه ، بدأت تفكر ، ولعلها كانت المرة الاولى التى فكرت فيها ، لا لتقمع شر هذا الغول ، وتستعدى القوة عليه ، بل لتهادنه ولتكسب ثقتـــه ، ولتعيش معه اذا امكن ، متمتعة بأكبر قسط من نفوذها وسلطتها وســـعادتها القديمة

ومثل هذا التحول ، يحتاج الى فترة طويلة من الزمن ،والى شىء غير قليل من الهدوء والاستقرار ، لينضج ويؤتى أكله ، ولـــكن الاحداث كانت قد انطلقت من عقالها ، فاستحال عليها ان تمنح هذه الملـــكة الصغيرة فرصة لتراجع نفسها ، وتعيد النظر فى أحكامها ، وتفكر بعقل جديد

ولسنا نريد أن نزعم أن مارى انطوانيت ـ لو أن الامور سارت فى غير المتجه الذى سارت فيه ـ كانت تتحـــــول الى مخلوقة جديدة ، ذات عقلية تؤمن بالشعب وبحقوقه ، ولكن الذى نؤكده ان تغيرا أصاب نفسها ، وان نزاعا داخليا شديدا نشب فى عقلها وقلبها .. فقد كانت حيويتها الدافقة مددا لها يعينها على البحث عن الجديد ، والتطلع اليه ، والفرح به ،

بل ان سمات حياتها الاساسية ، هى السأم ، وسرعة نفاد الصبر ، والرغبة فى الجديد كل يوم ، بل كل لحظة

ولننظر مثلا الى خطاب لها الى حبيبها اليكس فرسن ، لنطل من نافذته على نفس مارى انطوانيت ، ولنشهد لونا من هذا الصراع .. قالت فى هذا الخطاب :

« انك ستجد كل نفسى فى هذا الخطاب ، وقد اكون مخطئة ، ولكن هذا ما بدا لى انه السبيل الوحيد للابقاء على سير الامور (دون حدوث مضاعفات جديدة) ولقد بذلت اقصى ما وسعنى من جهد ، فى الاستماع الى ما يريد أن يقوله اشخاص من الجانبين ، ولقد خلصت الى رأيى بعد أن أنعمت النظر فى آرائهم ، ولست واثقة من ان ما نصحت به سيستمع اليه ، وأنت تعلم الشخص الذى على أن أعمل معه (اى زوجى) ففى الوقت الذى يعتقد فيه الانسان انه قبل السير فى اتجاه معين ، تكفى كلمة واحدة أو حجة تافهة ، لتغيير رايه وهدفه ، بلا انذار

« لهذا فان آلافا من الاشياء ، وددت لو أنها عملت ، استحال تنفيذها »

« وآخر الامر وأيا كانت الامور ، استمر فى منحى صداقتك وحبك ،فانى فى حاجة اليهما ، وآنى لارجو أن تؤمن بأنه بالغة مابلغت الكوارث التى سألقاها .. وأيا ما كان استسلامى للظروف التى حولى ، فانى لن أوافق مهما كانت العاقبة على اتيان عمل لا يليق بى ، ولا يوائمنى »

« ان الاضطراب هو أول ما يكشف للانسان عن حقيقته »

هذه نفس حائرة ، لا تدرى ماذا تفعل ، انها تعتذر عن امور ترتكبها ، وتخشى أن يحكم عليها بأنها تخلت عن وقارها ، أو ان شجاعتها خانتها ، أو انها خانت مبادئها .. وهى فى هذا الاضطراب تكشف عن هذه الحقيقة الانسانية العظيمة الخالدة :

« ان الاضطراب هو الذى يكشف للانسان عن نفسه » ، فالانسان يبقى مخدوعا فى صفاته ، يحسب نفسه شجاعا ، حتى اذا دهمه خطر بذاته ، عرف الى أى حد هو جبان ، ويحسب الانسان نفسه جزوعا هلوعا ، لايقوى على مواجهة خطر ، فاذا نزلت بساحته المصائب رأى الناس حوله تفرق وتذهب نفوسهم شعاعا ، وهو صامد ثابت لايدرى من أين جاءه هذا الثبات ، وكيف اعتصم بالصبر والايمان ، ويحسب الانسان انه قليل الصبر فاذا بالمحن والمصاعب تثبت له انه اعظم صبرا ممن كانوا يباهون بصبرهم ، وهكذا .. وهكذا

فمارى انطوانيت عرفت نفسها على حقيقتها لاول مرة ، عندما رأت المسئوليات تقع على عاتقها هى ، فرأت نفسها اكثر ثباتا من زوجها ، وأشد تصميما وأقوى عزما .. ورأته هو لايحفل بالمخاطر وكانه يعيش فى كوكب آخر ، وكان أخلق بانسان فى مثل هذه الدرجة من عدم المبالاة وقلة الاكتراث، الا تزعزعه المخاطر ، فيتذبذب ويضرب ، ويبرم ما نقضه ، وينقض ما ابرمه ، ولكنه على العكس كان متطيرا ، لايثبت على راى ، وكانت وهى الملول ، الحساسة ، السريعة التغير فى

وقت الرخاء ، اقل تذبذبا ، واثبت رايا فى وقت الشدة

فماذا هى ؟ وما هو كنهها وحقيقتها ؟ انها تود ان تعرف

لقد قالت فى خطاب آخر لها الى فرسن :

« فى بعض الاحيان اعجز عن فهم نفسى ، واسائلها المرة بعد المرة ، هل انا حقا التى تتكلم ، وبعد ، ماذا على ان افعل ؟.. ان الامور التى اقدمنا عليها كان لامفر منها ، واؤكد لك ان موقفنا كان يسوء عما هو الآن ، لو لم أبادر الى السير فى السبيل الذى سلكناه ، وعلى كل حال فاننا سنكسب وقتا ، والوقت هو ما نحن فى اشد الحاجة اليه .. وانك لتستطيع ان تتصور فرحتى حينما يأتى اليوم الذى استطيع ان اكون فيه « نفسى » وان اكشف لهؤلاء الاوغاد انهم لم يستطيعوا ان يستغفلونى »

نعم ، ماذا تكون ؟ أهى المراة التى بدأت تتأمل مبادىء الثورة ، فتفهمها بعض الفهم ؟ أم هى المغلوبة على أمرها ، التى قبلت ان تتعامل مع ممثلى الثورة وهى تكرههم ؟ ام هى المراة التى رات فى انصار الملكية أوغادا يكرهونها ويكرهون زوجها ، ويحفرون تحت اقدامها قبرا لها ، وتحت عرشها هوة واسعة لا قرار لها . ان زعماء الثورة ، وان كانوا اجلافا متطرفين فى رأيها ، الا أنهم صرحاء مؤمنون ، وذوو ارادة ، بينما ممثلو الملكية مذبذبون ، ويلتمسون اسباب الكسب لانفسهم ، ولا يحفلون بعرشها ولا بها

فالى ايهم تتجه ؟ وعلى ايهم تعتمد ؟ وفى ايهم تثق ؟ وايهم تحب ..؟

الفصل الثانى عشر

عادت العربة الى باريس ، فكانت عودتها نهاية مرحلة فى حياة الملك والملكة ، وفى حياة فرنسا والثورة ، وبداية مرحلة فى حياة هؤلاء جميعا

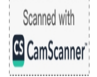
فهذه العربة فى الواقع لم تكن فى الثورة الفرنسية مجرد أداة نقل استعملتها الاسرة المالكة ، وانما كانت عنصرا من عناصر تاريخ الثورة

كان التفكير فى اعدادها ، صورة من صور التفكير القديم الذى يواجه حياة جديدة ونظاما جديدا ، واسلوبا فى التفكير والتنفيذ غير مألوف

وكان خروج تلك العربة من باريس تحمل الملك والملكة والاسرة المالكة ، هو آخر الانفاس التى ترددت فى صدر نظام شاخ ، وأوشك أن يوسد رأسه تراب المقبرة

كان اختراق العربة الريف الفرنسى بمعاونة قواد النظام القديم حتى الوصول الى الحدود الفرنسية ، تصويرا صادقا لعقلية وسياسة وقدرة النظام القديم

وكان القبض على العربة وكشف شخصيات من فيها ، وتردد عمدة البلدة فى تحمل مسئولية اطلاق سراحهم ، وافساح السبل امامهم ، واصرار درويه على القبض عليهم ،



وابقائهم حتى الصباح .. وكان تخلى القائدين شـــوازيل وواييه عن الملك والملكة فى آخر دقيقة ، وعودة العربة الى باريس ، اعلانا عن انحسار موجة الملـكية فى فرنسا وانطواء صفحتها ، وانتهاء عهدها ، وفى الوقت نفســه اعلانا عن ان النظام الجديد سيشق طريقه ، وسيثبت قدمه ، ويبقى

ولما كنا قد صاحبنا ركاب العربة منذ خرجوا من باريس ، حتى عادوا اليها ، ولم تكن مصاحبتنا لهم لمجرد تسجيـل خطاهم ، وانما لتعقب ما يدور فى نفوسهم ، وللتـأمل فيما يجرى على السنتهم ، فقد بات من الواجب علينا ان نعرف مصيرهم ، وما انتهى اليه أمرهم منـــذ عادت العربة الى باريس . والحق انهم جديرون بهذا ، فهم حفنة من النـاس تفاوتت أقدارهم ، وتباينت فى الحياة أدوارهم ، وقد اجتمعوا على غير موعد ، ثم تفرقوا ، ومع مضى الايام ، ومع سرعة تلاحق الحوادث وضخامتها ، فقد بقى هـذا الاجتماع ذا اثر فى الايام التى بقيت لهم فى الدنيا ، حتى فرغوا منها ، وفرغت منهم

وقد راينا كيف كان لاجتماع العربة أثر سياسى فى العلاقة بين الملـكة وبرناف ، وكيف أن هذا الاثر كان طابعا بارزا فى سياسة الملـكة ، وسياسة زعماء الثورة ، عقب عودة العربة الى باريس

لقد صدر الدستور فى سبتمبر عام ١٧٩١ ، ووقف الملك فى الجمعية الوطنية يقسم اليمين ولاء لهذا الدســـتور ، وقد

اقتنعت الملكة بفضل علاقتها ببرناف وزملائه ، بوجوب موافقة الملك على الدستور ، وأن يقسم يمين الولاء له

ولكنها كانت مضطرة أن تدافع عن هذا التصرف ، فأرسلت الى السفير « مرسى » تقول :

« أما فيما يتعلق بالموافقة على الدستور ، فانه من المستحيل على اى انسان عاقل ، الا يتبين أننا مهما فعلنا ، فاننا لا نملك الحرية فيما نفعل وفيما ندع ، ولكن من الحيوى الا نعطى الزبانية الذين حولنا ، مبررا للشك فينا ، ومهما تطورت الامور فان القوى الاجنبية هى وحدها الكفيلة بانقاذنا : لقد فقدنا الجيش ، ولم يعد معنا مال ، ولا توجد فى هذه المملكة قوة قادرة على كبح جماح الشعب المسلح ، حتى زعماء الثورة انفسهم ، لم يعد يستمع اليهم حينما يتحدثون عن النظام ، هذا هو الوضع التعس الذى الفينا انفسنا فيه ، اضف الى ذلك انه ليس ثمة صديق واحد لنا ، فالدنيا كلها تخوننا ، البعض عن كراهية ، والبعض عن ضعف أو طمع »

وختمت خطابها بقولها :

« وازاء العجز الذى منينا به ، فليس هناك ما يبرر لومنا لانفسنا »

ولم يكن فى الامكان تلخيص حالة مارى انطوانيت وزوجها ، بعد عودة العربة الى باريس ، بأوجز ولا أصدق من هذه العبارة :

الجميع خانوها ، فخصوم الملكية لم يكن ينتظر منهم سوى

سرعة القضاء عليها ، ولكن اصدقاء العرش والتاج ، كانت خيانتهم آخر ما ينتظر ، وان كانت اول ما وقع ، اما شقيقا الملك فقد عرفنا امرهما ، اما شقيق الملكة الامبراطور ليوبولد ، فقد عقد عزمه على الا يضحى بمليم واحد ، ولا بجندى واحد ، فى سبيل انقاذ اخته ، لانه كان مشغولا فى تقسيم جديد لبولندا مع بروسيا وروسيا

اما ملك بروسيا فريدريك وليام الثانى ، فبينما هو يتظاهر بالاهتمام بعقد مؤتمر حربى لانقاذ الاسرة المالكة الفرنسية ، اذا به يمول زعماء الثورة المتطرفين ، اليعاقبة ، وكان سفيره يتناول الغداء والعشاء مع « بثيون » صديقنا الذى عرفناه فى العربة ، والذى ارتفع قدره بعد ذلك فانتخب رئيسا للمؤتمر الوطنى الذى تكون بعد حل الجمعية التشريعية التى انتخبت بعد الموافقة على دستور عام ١٧٩١

وكانت الدول قد اختارت « دوق برنزويك » ليقود جيوشها التى عبثت فيما بعد للزحف على فرنسا ، وانقاذ العرش والعائلة المالكة ، فلم يلبث الدوق ان دخل فى مفاوضات ومحادثات مع دانتون قطب الثورة ، وديموريه قائد جيوشها ، على اساس اختيار الدوق ملكا لفرنسا ، بعد القضاء على لويس السادس عشر وزوجته الشابة مارى انطوانيت

عالم من الخيانات المتداخلة ، تغطيها جميعا مظاهر شفافة رقيقة من ادعاء المثالية ، والايمان بالمبادىء

ولـكن الثورة ، التيار الدافق ، الناجم من تراكم اخطـاء السنين المتعاقبة ، ومن حبس قوى التقدم الطبيعية فى شعب فرنسا ، ومن أفكار المفكرين ، وفلسفة المتفلسفين ، وخيالات الحالمين ، لاكثر من نصف قرن سابق على الثـــورة ... هذه الثورة لم تحفل بنداءات نهـــازى الفرص ، وتجار المبادىء ، والباحثين عن سبيل للسلطان ، والخائفين على ارواحهم ، فاستمرت تزحف .. تتخبط وتتلوى ، ترتفع وتنخفض ، تعلو وتسف ، تتقدم وتنتكس ، ولـكنها فى نهاية الامر تسير ولا تقف

فماذا أصاب أصحابنا فى هـــذا التيار الذى كانت امواجه تطم وتعلو .. كان كل شىء يؤدى الى القضاء على الملكية

كانت الجمعية التشريعية التى انتخبت بعد التصديق على الدستور ، قد احتوت على أغلبية من الجيرونديين ، وهم حزب عرف باسم اقليم الجيروند فى جنوبى فرنسا ؛ حيث موطن زعماء الحزب ، وكان الجيرونديون فى اعماق قلوبهم جمهوريين، وقد أدرك هؤلاء ان أفضل وسيلة للتخلص من المـلـكية هو اعلان الحرب على النمسا ، التى جاءت منها الملـكة ، وفى فترة الحرب ستقع من الملوك أخطاء فى حق فرنســا ، يمكن معها اثارة الشعب ضد هذا الملك الذى أقسم يمين الولاء للثورة منذ قليل

وكانت الثورة فى واقع الامر ، تعانى فى الداخـــل نكسة كبرى ، كانت الاحزاب قد فرقت وحدة البـــلاد ، وكانت

المجاعة تعصف بالشعب ، وكالعادة ، حينما تتأزم الامور فى الداخل ، يكون خير متنفس لصرف غضب الشعب وسخطه ، فتح ميدان فى الخارج ، تعبأ له القوى وتتجه اليه الانظار

وكان الظروف خارج فرنسا قد اتفقت مع الظروف داخلها، فقد مات ليوبولد ، امبراطور النمسا ، وشـقيق مارى انطوانيت ، وكان زاهدا فى اعلان الحرب ، وحل محله على العرش ابنه وكان شابا فى الرابعة والعشرين ، احس بأن اول واجباته هو انقاذ الملـكية فى فرنسا ، فلم يحفل بتوسـلات عمته اليه ، واعتبر انها توسلات صادرة عن ضعف وخوف ، ولا صلة لها بمصلحة قضية الملـكية .. وبعد أسبوعين من وفاة ليوبولد ، أطلقت بضع رصاصات على الملك جوسـتاف ملك السويد وأكبر ملوك أوروبا سنا ، فخلفه على العرش صبى فى الرابعة عشرة من عمره

لقد رتب القدر كل شىء ، واضطر لويس السادس عشر ان يمضى قرار اعلان الحرب ، والدموع فى عينيه .. ولـكن ماذا تجدى الدموع ازاء قوى التاريخ الغالبة ؟

قامت الحرب وفى أعقابها ولدت الاشاعات بأن الملـكة تخون الامة والثورة ، وفى ٢٠ يونية عام ١٧٩٢ ، أراد اليعاقبة أن يعطوا للملكة درسا ، فانتهزوا فرصـة ذكرى حلف اليمين الذى قطعه أعضاء الطبقة الثالثة منذ ثلاث سنوات ، الا ينفض اجتماعهم حتى يضعوا دستورا للبـلاد ، وقرروا أن يقوموا بمظاهرة ، فاجتمع فى ساحة الجمعية الوطنية خمسة آلاف من

جنود الحرس الوطنى ، حيث استعرضهم اعضاء مجلس بلدى باريس ، وعلى راسهم العمدة « بثيون » صديقنا الذى عرفناه فى العربة

ولم يكد يصل هذا الاستعراض الى غايتـه ، حتى كانت الجماهير قد احتشدت وتكاثر عددها ، لمشـاهدته ، وبعـد انفضاضه ، ذهب جنود الحرس ، مع من تجمع معهم من الجمهور وقصدوا الى قصر التويلرى فاقتحموه ودخلوا على الملك ، الذى تقبل اهاناتهم بصدر رحب ، ولبس قبعة الثورة على راسه ، أما الملـكة فقد كانت أقل صبرا ، واحمى غضبا ، فان الجماهير التى اقتحمت عليها حجرتها لم تجد منها لقـاء طيبا كما لقيت من الملك ، فما كان منها عندما وضـع احـد الافراد القبعة المثلثة الالوان على رأس ابنها ولى العهد ، الذى التصق بها وهو يرتعد وجلا ، الا أن انتزعت القبعة من فوق راسه ورمتها على الارض ، وهى تقول : « ان هذا الامر جاوز كل صبر واحتمال .. » ولم ينقذها من ايدى الشعب الا أن « بثيون » قد خف الى القصر ، وصرف الجمـاهير ، وهو يقول لها : « لا يجدر بنا أن نفعل ما يسىء الى حقيقة نوايانا »

ادركت مارى انطوانيت بعد تلك الحادثة ، انها سائرة فى طريق النهاية ، وانها ليست سـوى أيام ، حتى تبلغ هى وزوجها وأولادها المصير ، ومع ذلك فقد رفضت مشروعا جديدا للفرار عرضه عليها لافاييت ، ومشروعا آخر عرضته احـدى الاميرات ، يهـدف الى تدبير فرار الملـكة وحدها ،

باعتبارها اكثر الجميع تعرضا للخطر ، وقد بررت رفضها فى خطاب ارسلته الى الاميرة قالت فيه : « انها لايمكن ان تترك هؤلاء الاعزاء الذين يجب عليها ان تقاسمهم المصائب ، والذين اظهروا ــ مهما قال الناس ــ من الشجاعة مايستحق التقدير ، وان اعداءها حرموها من كل شىء الا من قلبها الذى سيبقى معترفا بجميل الاميرة » ، وختمت خطابها بقولها : « ان الكارثة الوحيدة التى لاسبيل الى احتمالها ، هى الا تصدقى ما قلته لك »

ولم يطل الامر ، فان آخر ما طلبته الملكة من أعوانها والاسرة المالكة فى الخارج ، هو الذى وقع ، كانت قد طلبت من فرسن ، الا توجه الدول الى الشعب الفرنسى تهديدا والا تكتب فى انذاراتها مايدل على أن شغل ملوك أوروبا الشاغل هو شخص الملك والاسرة المالكة ، ولكن فرسن كان يتلقى من حبيبته كل يوم خطابا يفيض بعبارات الاستنجاد واللهفة ، فلم يستطع الا أن يكتب مسودة انذار يوجهه دوق برنزويك قائد عام الجيوش الملكية ، يهدد فيه أهل باريس لو مدوا ايديهم الى شعرة من جسم الملك ، بالويل والثبور ، فزاد ذلك من حماسة الشعب ، ولم يدخل الى قلوب أبنائه الخوف ، وتلاصقت صفوف الامة أمام الخطر ، وأصبح اتهام الملك بالخيانة أقرب الى الاستساغة والقبول . وقد كان ... فقد خطب فرينو ، زعيم الجيروند فى الثالث من يونية عام ١٧٩٢ متهما الملك بالتواطؤ مع أعداء فرنسا . ومنذ ذلك الانذار

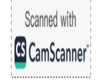
وتلك الخطبة ، وسكان التويلرى (القصر الملكى) فى انتظار هجوم

وفى ليلة العاشر من أغسطس ، كانت الملكة ومدام اليزابث شقيقة الملك ، تطلان من نافذة القصر ، ترقبـان قـدوم المهاجمين ، فقد كانت النذر كلها تشير الى أن فى الجو شيئا ، وكانت الليلة حارة ، لا تلطف قيظها نسمة واحدة ، وكانت الشوارع خالية من المارة يسودها سكون موحش ، فالنـاس كانت فى أندية الثورة تتناقش ، وتتآمر ، وتدبر مصير الملك ، وكانت حدائق قصر التويلرى تمتد أمام أعين المراتين ، باعثة فى قلبيهما أقسى المشاعر ، فقـد كانتا أشبه شىء بفريسـة لا حول لها ولا قوة ، ومع ذلك فقد كان فى الحدائق اكثر من الفى جندى ، مع ضباطهم من النبلاء

وفى الساعة الواحدة الا ربعا ، سمع من بعيد صوت بوق يدعو الجنود الى حمل السلاح فى ضاحية بعيدة ، وتلا النفير الاول ثان ، وثالث ، فلم يعد هناك شك فى ان هجوما قد أخذ طريقه الى القصر ، وبعد قليل سمع دق الطبول

وكان من بين الحرس تسعمائة جندى سويسرى أوفيـاء للعرش ، أكفاء ، شجعان . وجاء للنجدة ١٥٠ من النبـلاء الشيوخ من بين ألفين منهم أرسلت اليهم الدعوة للمسارعة الى الاغاثة ، ووزع اثنا عشر مدفعا على مداخل القصر

لقد اصبح قصر التويلرى قلعة .. قلعة النظام القـديم الاخيرة .. فهل ستعرف القلعة كيف تدافع عن النظام الذى



تمثله ؟ كان الحرس السويسرى مستعدا للقتال ، أما الحرس الوطنى فلم يكن واثقا من نفسه ، وكان افراده يتساءلون : نحارب ام لا ؟ نوجه رصاصنا الى صدور ابناء الشعب ، ام لا ؟

كان الموقف فى حاجة الى صوت قوى ، ينفث فى المترددين من الجنود العزم والارادة ، كان فى حاجة الى اشارة من ذراع صلبة ، تبعث الثقة فى الجنود ، ولكن اين هذا الصوت القوى ؟ واين هذه الاشارة الصادرة عن ثقة وايمان ؟

ذهبت الملكة الى زوجها ، وطلبت اليه أن يستعرض جنوده للمرة الاخيرة ، وان يوجه اليهم خطابا حازما .. فأطاع الملك ، وياليته ما أطاع . هبط درجات السلم وكأنه يتحسس طريقه ، لضعف بصره وثقل خطاه ، وفى صوت ضعيف سأل الجنود : « اننا سنحارب بشجاعة .. ألستم معى ؟ ان قضيتى قضية كل مواطن شريف » فما كان من الحرس الوطنى الا أن هتف : يحيا الشعب بدلا من يحيا الملك !

ورات الملكة ذلك فكادت تنفجر غيظا ، ولم تكن فى الواقع لتحتمل بعد سهر ليلة مضنية ، مليئة بالترقب والقلق ، أقل شىء .. فقالت مخاطبة احدى وصيفاتها :

« لقد انتهى كل شىء »

وكان هذا صحيحا ، فقد انتهى كل شىء

ولسنا نريد أن نطيل فى سرد باقى التفاصيل حتى ختام القصة ، ولكن قبل أن نترك قصر التويلرى ، يجب أن نذكر

شيئا لا يجب ان ننسى ، فقد كان بين الجموع التى وقفت خارج القصر ، لتشهد المعركة ، ضابط شاب تخيل نفسه فى مكان قائد الحرس المدافع عن القصر ، ولعله راى بعين خياله ، نفسه ، وهو يطلق على جموع الشعب قذائف المدافع الاثنى عشر ، ليبددها ، كما فعل بعد ذلك بسنين فى باريس ، بامر من حكومة الادارة

لم يكن هذا الضابط الشاب سوى .. نابليون بونابرت

ولكن لويس بدلا من ذلك ، أمر جنوده آلا يطلقوا قذيفة الا بعد ان يقذف ضدهم .. فمهد للهزيمة التى كانت آتية لاريب فيها

وبعد قليل لاحت طلائع الزحف .. زحف العهد الجديد .. الوف من أبناء الشعب .. أبناء الشوارع .. من باريس وضواحيها ، يزحفون .. وأمام هذا اقترح رويدر النائب العام على الملك ، أن يلجأ الى الجمعية الوطنية ، ويضع نفسه تحت حمايتها ، ورفضت الملكة الاقتراح ، ورأت أن تقاتل بحزم وثقة بالنجاح

ولكن الملك ، على عادته ، فكر وكأنه ينظر الى الفضاء ، دون أن يبدو عليه أن راسه يزن شيئا ، او انه يواجه مشكلا ، ثم قرر أن يضع نفسه تحت حماية الجمعية الوطنية

وكان مقر الجمعية الوطنية فى الناحية المقابلة لقصر الملك ، ولم يكن هذا التقابل مجرد صدفة ، بل كان تصويرا للواقع ، فقد كان الملك والجمعية الوطنية كفتى ميزان الامور

فلما انتقل الملك من قصره الى مقر تلك الجمعية ، اصبح واضحا ان الشعب لم يعد فى حماية لويس السادس عشر ، بل ان لويس هو الذى أصبح فى حماية الشعب

وذهب الملك الى مقر الجمعية الوطنية ، بينما كان الحرس السويسرى مستبسلا فى الدفاع عن الملك

ان الملك قد تخلى عن قضيته ، وكان حراسه ملكيين اكثر منه !

وطلب الثوار الذين اقتحموا القصر ، وغلبوا المدافعين عنه عزل الملك ، ورأى الجيروند ان القانون لايسمح بذلك ، وانه لابد من اتخاذ اجراءات قانونية ، وتناقش الزعماء فى أى مكان تحل الاسرة المالكة ، فاستقر الرأى على اسكانهم فى قصر اللوكسمبرج ، ثم نقلت بعد ذلك الى « التامبل » وهو حصن عتيق منيع ، حل بأحد أبراجه لويس وماري انطوانيت وسائر الاسرة

وبينما كان هذا يحدث داخل فرنسا ، كانت الحرب على حدودها مع أعدائها ، تسير لمصلحة هؤلاء الاعداء ، أول الامر ، وانعكس هذا على الامور فى باريس ، ففقدت الجمعية الوطنية نفوذها ، وانتقل النفوذ فى هذا الوقت الخطر الى « كومين باريس » ، وهو لجنة ثورية ، كان يرؤسها « دانتون » زعيم الثورة

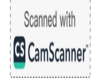
ولما وصلت الانباء بسقوط « فردان » آخر القلاع قبل باريس ، أمر دانتون بالقبض على كل المشتبه فيهم ، فقبض

على نحو اربعة آلاف بين قسيس ، ونبيـــل ، وفارس ، واودعوا السجون ، فلما وافت انباء الهزائم ، شمر الجلادون ايديهم ، فاعدموا من هؤلاء الف شخص فى ثلاثة ايام بلياليها ، وقد كان من بين من لقى حتفه فى هذه الايام الاميرة لامبال صديقة الملكة وكاتمة سرها ، وقد رفع احدهم راسها على حربة طويلة ، الى نوافذ سجن « التامبل » ، واصر الجمهور على ان يدخلوا الحصن ويعرضوا راس الاميرة لامبـال على الملكة ، لتقبل شفتيها الباردتين ، وحال الحرس دون ذلك ، وسمع الملك بالشجار تحت النافذة فسال عنه ، فلما اجابه الضابط ، اعترته قشعريرة رغم بروده المعهود ، واغمى على الملكة ، وتقول ابنتها ان هذه كانت المرة الوحيدة التى خانتها فيها شجاعتها

وارســـل كومون باريس الى بقيـــة المدن الــكبيرة لتحذو حذوه ، حتى لا يتجه الفرنسى المخلص الى العـدو ويخلف وراءه انذالا يقتلون نساءه وأولاده ، فقامت المذابح فى فرساى وريمس وليون واورليان ، وقد عرفت هذه المذابح فيما بعد « بمذابح سبتمبر »

ولــكن هــل توالى انسحاب جيوش الثورة امام جيوش أوروبا ، الغنية المدججة بالسلاح والعتاد ، المدربة على فنون الحرب ؟

فى « فالمى » تغير مجرى التاريخ ، فقد ثبتت جيوش الثورة بقيادة « دى مورييه » ثباتا لم يكن متوقعا ، فدب الخلاف



بين دول أوروبا ، فانسحبت الجيوش القوية ، امام جيش من الثوار ، لم يكن له من زاد سوى ايمانه ببلده وثورته .. وقد كان الشاعر الالمانى « جوته » حاضرا هذه الموقعة فقال : « في هذا اليوم .. وفى هذا المكان ولد عصر جديد فى تاريخ العالم »

وفى ٢١ سبتمبر عام ١٧٩٢ اجتمع المؤتمر الوطنى واعلن ان الملكية انتهت فى فرنسا ، وان الجمهورية قامت فيها

وفى ديسمبر من نفس العام دارت المناقشات فى المؤتمر الوطنى حول جواز محاكمة الملك ، الذى كان الوزراء فى ظل الدستور يحجبون شخصه عن المسئولية ، وانتهت المناقشات القانونية ، الى اعلان اتهام الملك فى ١١ من ديسمبر ، وقد تضمن الاعلان تهمة الحنث فى اليمين التى اقسمها للدستور ، واتصاله بالاعداء ، ودعوتهم الى غزو البلاد

وفى ٧ يناير عام ١٧٩٣ سئل أعضاء المؤتمر عن العقوبة التى يرونها جزاء وفاقا لجرائم الملك فأفتى ٣٨٧ من ٦٩٤ بأن العقاب المناسب هو الاعدام ، وافتى الباقون بعقوبات شتى ، كالسجن والنفى ، والاعدام مع ايقاف التنفيذ

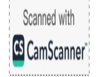
وكان الملك فى غرفته ينتظر الحكم حين دخل عليه وزيره ماليشرب الذى دافع عنه أمام المؤتمر ، والدموع تملأ عينيه ، فألفاه جالسا فى الظلام وقد اعتمد بمرفقيه على منضدة أمامه ، واخفى وجهه بين يديه .. وعلم الملك بالحكم فطلب ان يمهل ثلاثة ايام يستعد خلالها للقاء ربه ، وان يسمح لزوجته واولادها بمبارحة فرنسا ، وان يسمح له برؤية

اسرته قبل الموت ، وأن يباركه قسيس يختـاره لنفسـه ، فرفض الطلبان الاولان ، وسمح له بالاخيرين

□

لم يطل الامر بالملكة ، فقد تهيأت تماما لمثل مصير زوجها ، فلما ودعته فى الليلة السابقة رأت منه ثباتا عجيبا ، فلم تدمع عيناه ، ولم يبد عليه حتى ولا جزع المسافر المفارق لاهله وداره ، ولا يعلم أحد ما دار بينهما ، فقد وقف مندوبو « مجلس باريس » يراقبون هذا اللقاء من خلال نافذة زجاجية ، وكل ما قيل عما دار فى هذا اللقاء على السنة المؤرخين ، كان ضربا من الحدس والتخمين

وفى الساعة العاشرة مساء قام الملك ايذانا بانتهاء الزيارة ، فقامت الملكة وأولادها دون أن تناقش فى ذلك الامر او تعارض فيه ، وقضت الليلة ساهرة حتى اذا ما أشرق الفجر ، سمعت صوت أقدام تصعد ، ثم صوت أقدام تهبط ، وصوت عربة تقترب من باب السجن ، وصوت عربة تبتعد عن الباب ، ثم دوى طبول يتزايد .. وأخيرا لف الكون حولها صمت عميق رهيب ، علمت معه انها صارت أرملة لويس السادس عشر ، الذى سمى آخر الامر « لويس كابيه »



الفصل الثالث عشر

وأصبحت مارى انطوانيت وحيدة وحدة مطبقة ، فقد نقلت بعد قليل الى سجن آخر ، هو سجن « الكونسيرجى »

وكانت الثورة قد أعدت حصن « التامبل » لنزول الاسرة المالكة ، فبنت حوله بيوتا للحرس ، وقطعت الاشجار التى كانت فى الحديقة المحيطة به ، وفى الداخل هيأت المكان الذى اختير للملك والملكة ومن معهما ، فخصصت للملك أربع حجرات ، وخصصت للملكة ولمدام اليزابث أربع حجرات أخرى ، ولم تبخل الثورة على ضيوفها الذين أنزلتهم « التامبل » بالطعام ولا بالثياب ، ولا بوسائل التسلية ، فقد كان يقدم لهم مثلا فى وجبة الغداء ثلاثة انواع من الحساء ، وصنفان من الخضر ، وصنفان من المشويات ، وأربعة الوان من الحلوى ، مع الشمبانيا ، ولذلك فقد بلغت تكاليف المطبخ الملكى فى أقل من ثلاثة أشهر خمسة وثلاثين ألفا من الجنيهات

وأجيب الملك الى طلبه ، فأحضر له ما لا يقل عن ٢٥٧ مجلدا ، كان معظمها من الكتب الكلاسيكية اللاتينية

ولقد كان البرنامج اليومى مسليا حقا ، ففى الصباح يقرأ الملك فى كتبه ، وتقضى الملكة وقتها مع الاولاد تشرف على تعليمهم حينا ، وتشاركهم العابهم حينا ، فاذا حانت فترة ما بعد الغداء ، أخذت الملكة تجاذب زوجها أطراف الحديث ، ان لم يلعبا معا النرد أو الشطرنج ، ويخرج الملك بعد ذلك مع

ابنه الى الحديقة ، ليتريضا ، وكان ولى العهد يطير طائرة ورقية ، فيعينه أبوه على ذلك ، أو يمتحنه بأسئلة ، منها مساحة الحديقة بالامتار المربعة ، فاذا ذهب الاولاد الى العشاء ، لعب الزوجان الورق ، أو جلست الملكة الى آلة « الكلافسان » وغنت بعض الالحان

وكان الملك وأخته مدام اليزابث ، فى هدوء نفسى ، لايجدان فى السجن من الضيق ، ما كانت تجده الملكة ، فقد كان كلاهما شديد الايمان بالدين ، وكانا يصليان ويطيلان الصلاة ، ومن هنا لم يزد السجن عندهما عن خلوة للتأمل والتعبد والقراءة ، وكانت مدام اليزابث مهيأة أصلا لان تكون راهبة ، أما مارى انطوانيت فكانت رغبتها فى الحياة شديدة ، فثقلت عليها الوحدة ، ولم يخف انشغالها بالمستقبل

ولكنها قبل ان تنقل الى « الكونسيرجى » قضت وقتا حافلا بالمجازفات المثيرة ، فان ارادة الحياة فى مارى انطوانيت لم تكن لتنضب ، حتى ولا بفعل هذه الكوارث التى كانت كفيلة ان تحطم عزيمة امرأة رقيقة ، لم تعرف الا اللون الضاحك الزاهى من الدنيا

وكان اول ما طلبته بعد اعدام زوجها أن يرخص لها بثوب حداد ، ووافق « مجلس باريس » على ذلك ، ولم تكن قد طلبت منذ اودعت السجن شيئا ، فقد تحاشت ان يصدر عنها ما يدل على انها قبلت التعاون مع سلطات الثورة ، واعترفت بشرعيتها

ولم تر سلطات الثورة من ناحيتها ، بعد اعدام الملك ، ضرورة لاستمرار التضييق على الملكة فى السجن ، فخففت تلك القيود كثيرا ، وأصبح فى مقدور مارى انطوانيت ان تطلع على الصحف ، ولكن شيئا لم يكن فى حسبانها لاح فى الافق ، كطاقة واسعة يمكن للامل ان يدخل منها ، وقد تمثل هذا الامل الجديد فى شخص قائد من القواد ، كان قد فر الى الخارج مع زوجته ، ولكنه تسلل عائدا الى فرنسا ، مواجها الخطر ، مجازفا بحياته ، ليحاول أن ينقذها وأولادها من السجن .. وبدت الفكرة مستحيلة ، ولكن ما أقرب ما تتحول المستحيلات الى ممكنات ، مع الارادة والمثابرة ، ومواتاة الظروف

كانت مارى انطوانيت قد اصبحت مجرد امراة ، اختفت منها الملكة ، وذابت شخصية الدوقة النمساوية ، فلم يعد باقيا منها الا الارملة التى شاب شعرها ، وكبرت بفعل المآسى المتراكمة .. ولكن عجبا وأى عجب ! ان الارملة المجردة من السلطان ، المكروهة من الملايين ، التى انتهى بها الحال الى أن تكون مجرد سجينة ، تفرح حتى لتخفيف القيود عنها ، تستطيع ان تخلب الالباب ، وتكسب الانصار ، وأى أنصار ؟

كان « فولان » جيرونديا متطرفا ، وكان على رأس الذين هاجموا قصر التويلرى فى العاشر من اغسطس عام ١٧٩٢ ، ومنح وساما لما أظهره من شجاعة ، وحسن بلائه فى تلك الموقعة .. فولان هذا هو الذى وقع عليه اختيار مجلس

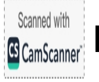
بلدى باريس ، ليكون كبير المراقبين فى سجن « التامبل » ، وجاء الى مهمته الجديدة وهو يضمر أشد الـكراهية لمـارى انطوانيت

ولـكن انظر ماذا حدث ..

حينما اتصل بها ، وتعود رؤيتها كل يوم ، تغير قلبه شيئا فشيئا ، فباتت فى رأيه ، مخلوقة ذكية ، ومحدثة لا تتكلف فى حديثها ، سريعة نشطة ضاحكة ، كأنها لم تفقد شيئا ، حتى ولا كيس نقودها .. وانتقل الجيروندى المتطرف من النقيض الى النقيض .. انتقل من مرتبة العدو الى مرتبـة الصديق .. وهذا الصديق هو الذى تبرع بالاتصال بالقائد « جارجيز » وحمل اليه من الملـكة خطابا ، ونظر «جارجيز» الى الخطاب فألفاه بخط الملـكة الذى يعرفه ، ولـكن فى عالم الحـروب والثورات ، والخيـانات والمؤامرات ، والمجازفات والمخاطرات ، يوجد الآلاف ممن يحسنون تقليد الخطوط ، فهل يثق فى « فولان » هذا ؟

قد يكون « فولان » أداة للبوليس ، فيسـلم عنقـه الى الجيلوتين ، ولا يخدم الملـكة ، لا .. بل ليطلب المستحيل .. وطلب أن يرى الملـكة داخل السجن !

وكان الصعود الى القمر أهون فى ذلك الحين من دخـول سجن التامبل ، فهذا السجن قد أحكمت الحراسة على أبوابه ، وبنيت الى جواره قلعة خاصة ، وقسمت ممراته اقسـاما بحواجز وقف على كل منها حرس



ولكن حيلة الانسان ذى العزم والارادة لا تفرغ ، وقد وجدت الحيلة وسيلتها فى شخص الرجل الذى يوقد مصابيح السجن وكانت قد وضعت بكثرة خارجه وداخله لتبدد الظلام الذى قد يعين على هروب المساجين ، فقد استطاع « فولان » ان يضحك على الرجل ، وان يوهمه بأن احد أصدقائه يرغب لمجرد التسلية فى أن يشاهد السجن من الداخل وانه سيستعير منه لهذا الغرض والفضول ثيابه فترة يقضيها هو فى الراحة ، واحتساء النبيذ . وقبل الرجل ، ودخل « جارجيز » الى السجن ، وقابل الملكة

وظهر صديق آخر هو « ليبتر » احد اعضاء مجلس باريس .. وقد وعد هذا الصديق أن يعد جوازات السفر اللازمة لاتمام المجازفة ، لا عن ايمان ، ولا عن عطف على الملكة ، بل لقاء مال .. وسارت المحاولة الى غايتها فى نجاح عجيب .. ثلاث عربات خفيفة صغيرة هذه المرة ، أعدت لتحمل احداها الملكة وولى العهد وجارجيز والثانية تحمل مدام اليزابث وليبتر ، والثالثة تحمل الاميرة الصغيرة ،وفولان

وكان الترتيب قد انتهى الى ان ترتدى الملكة ومدام اليزابث ثياب رجال ، ثياب أعضاء الكومون .. ولكن ما العمل مع الطفلين ؟ لا شيء يمكن أن يعترض الارادة ، فموقد المشاعل او المصابيح كان لحسن الحظ يصحب أولاده معه وهو يدور على مصابيحه ليوقدها ، فلتعد اذن لولى العهد ولاخته ثيابا قذرة تشبه ملابس أولاد موقد المصابيح

وما أن أصبح كل شيء معدا ، وعلى ما يرام ، حتى خانت الشجاعة السيد ليبتر فى اللحظة الاخيرة ، فهو لم يكن مؤمنا بالعمل الذى سيشترك فى الاقدام عليه ، وانما كان مقامرا من أجل المال

لقد كان يخاف من نظرات احدى سجينات التامبل ، مدام « توسوان » فانها لم تكن فى رأيه ولا فى راى الملكة سجينة، بل كانت فى تقديرهما مدسوسة عليهم لحساب الكومون « مجلس بلدى باريس » وقد رأى أن يتنصل مما وعد به فأعلن انه لا يستطيع أن يقدم سوى جواز سفر واحد للملكة ... للملكة وحدها !

اى اغراء ! وأية محنة وتجربة !

تفر الملكة وحدها ، انه لامر جميل ، يكاد يكون خيالا لا تطوله الايدى ، أن تنجو من هذه الحياة المهينة ، وأن تحطم عن يديها الاغلال الثقيلة ، وان تتنفس فى جو طليق

ولكن مارى انطوانيت أم ، فهى لم تعد ملكة ، ولم تعد دوقة ، وانما هى انسانة فقط ، وأية أم يمكن ان تتخلى عن أولادها لتنجو بنفسها ؟

قيل لها انها بنجاتها هي يمكن أن تدبر لاولادها مصيرا احسن .. يمكن ان توجه سياسة الملوك الذين لايفكرون الا فى الاسلاب والغنائم ، وفى ضم المساحات الجديدة والولايات الغنية ، توجيها صائبا ، ينقذ فرنسا من الثورة ، وينقذ ابنها وعرش ابنها

ولكن كان هذا الجدل عبثا لا طائل تحته ، فقد رفضت مارى انطوانيت مجرد الاستماع اليه ، وقالت فى خطاب بليغ أرسلته الى السيد جارجيز :

« لقد حلمنا حلما بديعا .. هذا كل ما فى الامر .. على اننا جنينا فى الوقت نفسه ربحا عظيما ، اذ اكتشفنا دليلا جديدا على اخلاصك الذى لا تشوبه شائبة . ان ثقتى بك لا نهاية لها ، وانك لتجدنى ، مهما كانت الامور ، على خلق ، ومليئة بالشجاعة ، ولكن مصلحة ابنى هى مرشدى الوحيد ، ومهما بلغت السعادة التي سأحصل عليها بخروجى من هنا ، فانه ليس فى وسعى ان انفصل عنه : ولم يبق الا أن أعلن لك عن عظيم تقديرى لولائك الذى عبرت عنه بما قلته لى أمس ، وثق اننى مدركة تماما انك لا تفكر الا فى مصالحى على أحسن وجوهها ، وان الفرصة التى ندعها تفلت ، قد لا تعود أبدا ، ولكن لن يبقى لى ما أتمتع به من سرور اذا أنا تخليت عن أولادى ، ولذا فانى لا تخالجنى ذرة من أسف على ترك هذا المشروع »

وبفشل هذا المشروع ، أو بالعدول عنه ، ان شئنا الدقة ، خيل الى مارى انطوانيت والى الجميع ، انها دخلت فى مرحلة الوحدة المطلقة .. ولكن أكان هذا صحيحا ؟ على العكس ، فان مارى انطوانيت تأبى الا أن تكون فى كل مرحلة من مراحل حياتها ، حتى بعد ان تجردت من كل شىء ، محورا لمحاولة ، واية محاولة ؟ محاولة لايفكر فيها أشخاص احبوا

الخطر ، وطابت لهم منازلته أو على الاقل مغازلته . اشخاص يعبئون كل قواهم ، وأبرع صفاتهم ، ويستعينون بما خفى من مواهبهم .. وان الانسان ليعجب ، كيف لا يدب اليأس الى قلوب هؤلاء المجازفين المخاطرين ، وقد احتشدت ضدهم قوى حكومة لا تهزل ولا تلهو ، شديدة على أعدائها ، تطيح اوامرها بالرءوس مئات اثر مئـات ، ولا تنى محاكمها عن اصدار أحكام الاعدام بالليــل والنهار ، وصحافة تصرخ صرخات مدوية طالبة المزيد من العنف والمزيد من القسوة ، لتطهير البلاد من أعدائها ومن أنصار النظام القديم

ورغم ذلك كله ، بل ومن أجل ذلك كله ، كان هناك من يعتقد ان من واجبه ان ينقذ مارى انطوانيت ، الرمز الباقى للملكية الفرنسية ، والعضو الحى من أعضاء النظام القديم ، والرأس الوحيد المدبر فى عالم تهاوى كـله ، وفقـد الارادة والثقة ، والرغبة فى العمل والقتال

وقد رأينا المحاولة السابقة ، ورأينا كيف استطاعت ان تقتحم أبواب السجن ، وأن تخدع الحراس الســاهرين ، وتستغفل الادارة اليقظة

ولـكن تلك المحاولة اتخذت من صغار الموظفين من موقد المصابيح ، من السجان أو المشرفة على السجن ، وسـائل وادوات ، فهل يقنع النظام القديم بهذا ؟ ابدا .. فقد كان فى باريس رجل مطلوب راسه ، ومعروضة مكافأة كبرى لمن يرشد عنه ، والغريب ، ان هذا الرجل لم يكن سياسيا ، ولم

يكن جنديا ، وانما كان من طائفة تعرف الحرص ، ولا تحب التعرض كثيرا للخطر .. تلك هى طائفة رجال المال ، وكان الرجل هو البارون « باتز » المالى الذى كانت تتعامل معه مارى انطوانيت أيام مجدها ، وكان يقيم فى باريس ، وكلاب الصيد تبحث عنه ، وتتعقب كل خطوة من خطواته .. ولكنه كان يتحرك فى هدوء وثقة ، لانه كعادة أبناء طائفته ، لايحسن التعامل مع الصغار والفقراء .. انه لايتعامل الا مع الاقوياء وذوى النفوذ

وقد لحظ باتز بعينه النفاذة ، ان الثورة الفرنسية تتعرض لاكبر ما يدخره الزمان للثورات من مخاطر .. اعنى الفساد

انه الفساد ، والتكالب على المال ، والتنافس على السلطان ، والقتال من أجل المناصب ، هو الذى يقتلع المبادىء ، ويطفىء نورها ، هو الذى يوقع الفتنة بين الاخوة ، ويفرق صفوف المقاتلين ، ويبعث على حب الراحة ، والفرار من تكاليف الجهاد

وقد استطاعت الثورة أن تقضى على الملك ، وجيوشه ، وعلى النبلاء والاشراف وأمراء الكنيسة .. استطاعت أن تهز كتفيها غير مكترثة لتهديدات دوق برنزويك ولخطابات الامبراطور ليوبولد وابنه فرانسوا من بعده ؛ ولمشروعات ملك بروسيا وقيصر روسيا التهديدية .. فكل ذلك كان اشبه شىء ببعوضة صغيرة ، تطن بعيدا عن أذن الاسد

اما الذى هز الثورة وكاد يقتلعها من جذورها فهوالفساد؛

فقد ابى سوء حظ الثورة الفرنسية الا أن يكون انهيار النظام القديم ، وفتح أبواب الحياة والاعمال والمناصب للجميع ، فرصة للوصوليين والباحثين عن المغانم ، والمتجرين بالمبادىء، فطفوا على السطح .. واستطاع الكثيرون منهم أن يصلوا الى مناصب ذات شأن !

وكم كان خطر هؤلاء على الثورة عظيما .. ودورهم بشعا ! فقد كانت عليهم مسوح الثورة ، وعلى ألسنتهم شعاراتها، وعلى وجوههم سمات الثوار ، وكان منهم من اشترك قبل الثورة فى عمل ثورى ، وكان منهم من أتيح له أن يثبت ولاءه للثورة فى موقف من المواقف .. هؤلاء جرى فى أيديهم مال كثير هو مال الدولة .. هؤلاء اجتمع فى أيديهم نفوذ كبير كان المفروض أن يستغل لحساب الثورة ومن أجل مبادئها ، ولكنهم افادوا من المال ، وأفادوا من النفوذ .. تغيرت مساكنهم ، وتغيرت ملابسهم ، وامتلأت جيوب بعضهم حتى فاضت ، واتخمت بيوت بعضهم حتى ناءت بما حملت من رياش وأثاث .

وفى هذه المعركة كان روبسبير ازهد زعماء الثورة وخاتم هؤلاء الزعماء ، يضرب بشدة ، مستعينا بالجيلوتين ، ولكن الفساد كان قد استشرى وغلب ، فلم يعد يصلح فى مقاتلته والقضاء عليه نصل المقصلة ، ولا نطع الجلاد

وهكذا عرف باتزكيف يشق طريقه فى هذا الجو الموبوء

وتعاقد أول ما تعاقد مع أعضاء الكومون - مجلس بلدى باريس - قمة النفوذ ، ونذكر منهم ميشونيه ثم كورتى قائد باريس العسكرى .. اعنى انه جمع بين حماية المدنيين والعسكريين ، بينما كانت السلطات تبحث عنه جاهدة .. وكانت لجنة الامن العام ، تقذف فى حقه حمما ، وتصفه بأنه « باتز الملوث » .. ولكن ماذا يهم باتز من شتائم لجنة الامن العام ، اذا كان تحت أصابعه زعماء ذوو خطر . والدليل على ذلك ان باتز اجترأ بفضل هذه الحماية ، على أمور لا تخطر على بال ، منها انه استطاع بعد أن تنكر باسم « فورجيه » أن يكون أحد حراس سجن التامبل نفسه ، وان يرتدى ثياب الحراس القذرة ، وان يحمل بندقية كأى واحد منهم ، حتى ان من كان يراه فى هذه الثياب لا يصدق ان داخلها «مليونير» مرفه ، تكفى اشارة من يده ليجرى نحوه عشرات من الخدم يسألونه ماذا يطلب ، ثم يحضرون اليه ما يطلبه على صحاف وموائد من ذهب وفضة

وكانت وسيلة باتز ذهبا وفضة أيضا .. مليونا من الجنيهات دفعة واحدة ! سال لها لعاب ميشونيه وكورتى !

وتستطيع ان تترك لخيالك العنان بعد ذلك : فالام يصل الخيال ؟ مهما تصورت فلا أحسب انك تتصور ان حراس التامبل استطاعوا بقدرة هذا القادر « باتز » أن يتحولوا الى ملكيين يؤمنون بالملكية ويهزءون بثورة فرنسا وبمبادئها .. وكان على رأس هؤلاء الحراس باتز نفسه ! !

وحينما اعتقد « باتز » أن الفرصة قد نضجت لانفاذ عزمه

الاخير ، رتب الامور فى صورتها الاخيرة ، وفى ذات ليلة ، بعد ان ساد الظلام ، تقدم كورتى ـ القائد العسكرى ـ على راس فصيلة من جنوده ، ومن بينهم « باتز » ووزع الجنود بحيث اصبحت ممرات الطرق فى السجن ، فى ايدى أنصار باتز

وفى نفس الوقت كان ميشونيه الذى قبض نصيبه من المليون جنيه المخصص للرشوة اللازمة لهذه العملية ، حتى اتخم ، كان هو صاحب النوبة فى حراسة السجن ، وكان قد زود الملكة ومدام اليزابث ، والاميرة الصغيرة بملابس رسمية ، وفى منتصف الليل كان هؤلاء الثلاثة قد ارتدوا قبعات عسكرية ، وحملوا فوق أكتافهم بنادق ، واستعدوا للخروج مع صفوف جنود الحرس الاخيرين الذين ارتشوا هم كذلك ، على ان يكون بينهم ولى العهد

ولكن بقدر ما كان فى المرحلة الاخيرة من حياة مارى انطوانيت ، من لمحات خاطفة من الامل ، بقدر ماكان فيها من مفاجآت مميتة من سوء الحظ ، ففى اللحظة الاخيرة ، اقبل « سيمون » عضو مجلس باريس ، وكان من غلاة الجيرونديين ، نما اليه نبأ المؤامرة ، فأفضى بما وصل الى علمه الى اعضاء المجلس ، فلم يصدقوا ما افضى به اليهم ، ولكنهم لم يجدوا بأسا من ان يقصد الى سجن التامبل ليرى بنفسه ان كان للخبر نصيب من الصحة ، وعلى باب السجن راى الجنرال « كورتى » ، فقال له على الفور انه اطمأن اذ رآه ، وفى الحال صعد الى المواطن « ميشونيه » الذى كانت المفاجاة قد

صعقته ، ومع ذلك استطاع ان يجمع شتات نفسه ، وان يغير الزى الذى كان قد تنكر فيه ، ليشارك فى عملية الفرار .. اما « باتز » المليونير فقد حار فى أمره ، أيطلق على سيمون رصاصة ويتخلص منه ، أم يستسلم للقدر ؟ وبعد تدبر سريع تبين ان الرصاصة ستقضى حقا على سيمون ، ولكنها ستجمع كل من فى السجن ممن لم يشترك فى المؤامرة فينكشف امرها ، فآثر ان يأخذ مكانه بين صفوف جنود الحرس الزائفين الذين جمعهم الجنرال كورتى واخرجهم من السجن

وانتهت هذه المحاولة ، كما انتهت اثنتان من قبلها ، ولكن هذه الاخيرة جرت المصاب الاكبر الذى انتهت معه مارى انطوانيت فاستحالت حطاما .. ففى أول يولية عام ١٧٩٣ حضر الى السجن فى منتصف الساعة العاشرة مساء ، خمسة من أعضاء « الكومين » وانهوا الى الملكة النبأ الذى كان أفجع ما سمعته أذناها منذ حالفها الحظ العاثر ، فقد ابلغت ان ابنها سيؤخذ منها ليودع ويوضع تحت وصاية من يحسن تعليمه « سيمون » عضو المجلس الذى قضى على المؤامرة .. ولسنا فى حاجة الى ان نراجع شيئا مما كتبه التاريخ فى شان هذه المقابلة .. فان تعلق مارى انطوانيت بابنها ، كان اكبر عواطفها ، كانت تحبه أكثر مما تحب اخته التى تكبره ، وكانت حيويته وثرثرته وشدة ميله للحركة هى تسليتها الوحيدة

هل تضرعت مارى انطوانيت لاعضاء المجلس ليتركوا لها

ولدها ؟ هل بكت وانتحبت وصرخت ؟ .. لا احد يعرف ، ولكن الثابت ان الولد أوقظ من نومه ، وخرج فى هذه الليلة لكيلا تتصل به أمه بعد ذلك .. ولكنها كانت تراه .. تراه من بعيد فقد أودع فى منزل لا يبعد عن القلعة التى سجنت فيها كثيرا .. وكان يلعب فى ساحة السجن ، ومن نافذة الدور الثالث من برج القلعة ، كان فى وسع مارى انطوانيت ان تراه فى هذه الساحة ، ومنذ ذلك اليوم كانت تقضى الساعات الطويلة على أمل أن يظهر فى هذه الساحة وأن تسمع صوته الصغير يأتى اليها من بعيد ، وهو ينشد أناشيد الثورة التى علمها له مدرسه « سيمون » ، ولم تكن تملك الا أن تفسل بدموعها قضبان نافذة السجن الحديدية

وألف الولد الحياة الجديدة وأحبها ، شأن كل صغير ينتقل الى مجتمع جديد ، أما أمه فقد فقدت آخر صلاتها بالدنيا ، ولم تكن تكترث لشىء ولا لشخص

فلما جاء الامر بالانتقال الى سجن « الكونسيرجى » ليحقق معها ثم تحاكم ، جمعت أشياءها ، وقبلت أن تفتش ثيابها ، وحجرتها ، بلا اكتراث ، وسارت فى خطى ثابتة ، بعد ان ودعت ابنتها وشقيقة زوجها ، زميلتيها فى رحلة العربة ، وفى آخر درجات السجن ، اصطدم راسها بأعلى باب الخروج فسألها احد الحراس : هل أصاب راسها سوء ؟ فقالت فى غير اكتراث :

« لا .. لم يعد هناك شىء يستطيع أن يصيبنى بسوء »

الفصل الرابع عشر

فى « الكونسيرجى » السجن المظلم الرطب ، لم تكن سوى شبح ينتظر خاتمته بغير قلق ولا خوف ، وقد وصلت اليه فى الساعة الثالثة من الصباح ، وكانت مدام ريشار زوجة محافظ السجن قد أخطرت بأن الملكة ستنزل فى ضيافتها ، فأسقط فى يد السيدة التى مر عليها نبلاء وقساوسة ، بل أمراء ودوقات ، ومواطنون عاديون ، فلم يكن لها عهد حتى تلك الساعة بالملوك والملكات ، وكانت قد ولدت ونشأت فى ظل النظام القديم ، فعرفت ان اسم الملكة من المقدسات ، لذلك اندفعت الى مخازنها تبحث عن أفخر ما لديها لتقدمه الى الضيفة الجديدة ، فلم تجد سوى سرير حديدى وضعت عليه حشيتين ووسادتين ومسندين وغطاء رقيقا ، بعد أن اختارت أحسن « زنزانة » فى السجن ، كانت تستعمل فى الماضى لعقد جلسات فيها ، ودخلت الملكة الزنزانة الجديدة ، ومن خلفها كلبها الذى كان المخلوق الوحيد الذى سمح له بمصاحبتها

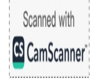
وأسرعت خادمة لتعين الملكة على خلع ثوبها الاسود ، ثوب الحداد ، ولكن الملكة اعتذرت عن قبول المساعدة ، قائلة انها ألفت أن تخلع ثيابها بنفسها .. وخرج الجنود والضباط ومعهم مشاعلهم التى أضاءت لهم الطريق من التامبل الى الكونسيرجى ، وتضاءل صوت عجلات العربة التى حملتها فى آخر رحلاتها فى الحياة ، شيئا فشيئا ثم تلاشى ليسود سكون الليل العميق

ولكن هل تنتهى حيـــــاة مارى انطوانيت فى سجن « الكونسيرجى » أعتى السجون والذى لم يدخل فيه انسان، ثم خرج حيا ، والذى سمى لذلك « بغرفة انتظار الموت » دون ان تحدث محاولة أخيرة لانقاذها ؟ لو حدث ذلك لكان مخالفة لطبيعة الامور

وقد حدثت المحاولة الاخيرة ، ولكن هـذه المحاولة عجلت بنهاية مارى انطوانيت المرتقبة .. فقد كان فرسن يهذى هذيان المجنون منذ علم ان مارى انطوانيت نقلت الى سجن الكونسيرجى ، اذ أحس أن البقية الباقية من حياتها أصبحت تعد على الاصابع فالكونسيرجى هو الطريق الى الابدية ، فانطلق هنا وهناك ، يطرق أبواب الملوك والامراء ، ويقابل وزراء الخارجية وأمراء الحرب ، وينتظر طويلا ليتفرغوا له ، ويستمعوا الى توســـــلاته وتضرعاته المشفوعة بالشروح السياسية .. ولكنه لم يجد الا أذنا صماء ، ولم يظفر الا بمقابلات مهذبة ، تفيض أدبا ، وتفيض فى الوقت نفسه برودة وتعاليا

فلم تعد مارى انطوانيت شيئا بعد أن عزلت عن العرش وأعدم زوجها ، وذاب نفوذها ، لتهم الملوك ، حتى ولا ابن اخيها امبراطور النمسا .. فقد كان شعار الجميع انه لادخل للعواطف فى السياسة ، ولم يجد فرسن فى هـــــذه الحيرة المطبقة ، سوى « مرسى » السفير السابق لماريا تريزا والدة مارى ، والذى كان لها طوال حياته ابان تبوئها العرش الناصح والمرشد والصديق ، والذى كان يحبها ويتمنى لها الخير ، على الرغم من انها لم تكن تصغى لنصحه

ولكن « مرسى » كان قد أسن وشاخ ، وصعب عليه أن



يتابع هذه الحرارة المتدفقة من قلب فرسن الشاب ، فهل يستسلم الحب ويذعن لواقع الامور ؟ .. انه ليكونن اذن شيئا آخر غير الحب ! .. ان فرسن لم يدع سبيلا لتحريك همة « مرسى » الا سلكه ، حتى انتقلت عدوى الحماسة والانفعال اليه ، فكتب السفير خطابا الى أحد أمراء النمسا ، الذى ارسل بدوره خطابا الى الامبراطور الذى أودعه بدوره فى «الارشيف» ليعلوه تراب النسيان

فلم يبق الا سبيل الرشوة .. فتدفقت الاموال على بعض زعماء باريس .. ويقول بعض المؤرخين انها وصلت الى جيب « هيبر » الذى لم يكن يكف عن الصياح والسباب يوجهه الى « البغى » اى مارى انطوانيت .. بل الى جيب دانتون

ولكن ليس ثمة دليل على ذلك الا ان حملات « هيبر » ضد مارى انطوانيت توقفت فجأة فى صحيفة « الاب دوشين » فلم يعد يطالب برأسها .. وعادت الآمال تتحرك فى صدر أصدقاء مارى ، لولا هذه المحاولة الاخيرة

ففى ذات ليلة سمعت صوت المفاتيح تصطك بسلسلة الحارس ، ثم سمعت صوت مفتاح الزنزانة يدور فى قفلها ، والمزلاج يرفع ، والباب يفتح ، لترى نفسها وجها لوجه أمام السيد « ميشونيه » الذى عرفناه بطلا من أبطال المحاولة السابقة ، والذى استطاع بمهارته ان ينقذ عنقه .. ووظيفته معا .. فأصبح المشرف العام على السجون ، ولم يكن « ميشونيه » وحده هذه الليلة ، بل كان معه رجل .. ونظرت مارى انطوانيت الى رفيق « ميشونيه » ولم تصدق عيناها .. انه النبيل « زوجفيل » .. ولم يكن مجرد نبيل .. لقد راته فى البلاط مئات المرات .. فى الحفلات والسهرات ..

فأى شيطان قذف به فى هذه الساعة أو قل اى ملاك ؟ وكيف استطاع الدخول الى « ممر الموت » ، ولاى سبب ؟

وشحب وجه مارى حتى حاكى الموتى ، من الخوف ، ثم عاد فامتلأ بالدم لفرط الانفعال .. ودارت الخواطر فى رأسها بسرعة دورة الدم نفسها ، أيكون مجيئه مجرد فضول ؟ أم هو مظهر من مظاهر العطف ، أم تحية وداع من النظام القديم، أم تكون هذه الزيارة ، طليعة محاولة جديدة ؟

لقد شبعت مارى انطوانيت من المحاولات ، فأخلدت آخر الامر الى اليأس ، وعاشت فى وحدتها الاخيرة المظلمة ، لايعزيها انها استطاعت فى هذا الجحيم ان تلحظ الاثر الباقى لسحر شخصيتها ، بعد أن ابيض شعرها ، وتجعد وجهها ، واحمرت عيناها من فرط البكاء ، وهزل بدنها من الاسهال العنيف

فلقد أحبتها مدام ريشار حتى انها لم تكن تدخر وسيلة من وسائلها الضعيفة للترفيه عنها ، وتخفيف متاعب حياتها ، فان أمر للسجينة بدجاجة ، اختارت لها دجاجة سمينة ، وان اشترت لها فاكهة ، أخبرت بائعة الفاكهة المجاورة للسجن بأنها لمارى انطوانيت ، وكانت بائعة الفاكهة ، وهى من صميم الشعب ، قد نسيت لمارى انها كانت ملكة ، ونسيت كل ما قيل ضدها ، وذكرت شيئا واحدا ، انها أم ، وانها تعانى الآن الوحشة والعزلة .. حتى الجنود ذوو اللحى المسترسلة ، والوجوه الخشنة ، تلطفوا معها ما وسعهم التلطف

وكانت تقضى سائر نهارها فى المطالعة .. المطالعة التى كثيرا ما أوصتها أمها بالمداومة عليها .. ولم تكن تطلب من الكتب ما ينطوى على مغامرات عاطفية ، ولا على قصص خيالية ، ولا على ادب من اى نوع ، بل طلبت قصص المغامرات الحقيقية ، مغامرات المستكشفين والرحالة ، ولعلها وجدت

فيما احتوته هذه الكتب من حركة ما يعوضها عن سكونها وجمودها ، ومن حقائق الكشف ما يصرف ذهنها عن التامل فى نفسها ، وفى الواقع الذى انتهت اليه

لكل هذا ، كانت زيارة « زوجفيل » اشبه شىء بهزة حركت ميتا فى أكفانه ، وبنور ساطع اندفق فى مقبرة معتمة

ولكنها لم تستطع ان توجه للزائر كلمة واحدة ، بل انها لم تستطع ان تطيل النظر اليه .. فقد خافت ان يكون ميشونيه جاهلا شخصيته ، ولكن كيف يكون ذلك وهو الذى رافقه وفتح له الباب .. باب الزنزانة

لقد تعطل ذهنها عن العمل ، فجاهدت جهادا عنيفا لتستطيع ان تتبادل مع ميشونيه بعض العبارات ، وقد تعودت أن تسأله كل يوم عن أخبار ابنها وابنتها ، وكان يتعطف عليها بهذه الانباء ، منذ تلك المؤامرة المخفقة التى قبض عن دوره فيها مالا غير قليل .. وخرج ميشونيه بدعوى أنه سيجرى تفتيشا على بقية الزنزانات ثم يعود

وخرج ، واغلق الباب ، واعيد المزلاج ، ومارى ذاهلة .. وبعد قليل عادت المفاتيح تحدث صوتها المعهود ، ورفع المزلاج ، وفتح الباب .. وفى هذه المرة صدرت عن زوجفيل حركة فهمت منها انه رمى شيئا وراء الموقد .. وخرج مع ميشونيه فاندفعت تبحث وراء الموقد .. فماذا وجدت ؟ وجدت زهرة قرنفل فقط ! !

وانهارت مارى انطوانيت ، فقد أدركت انها زيارة عطف ومودة ، وتشجيع ! ولكن لم التسرع ؟ ان فى داخل الزهرة ورقة صغيرة .. انها تساوى آلاف الامتار من الورق ومجلدات من الكتب .. انها الامل كله .. ففى هذه الورقة وعد من زوجفيل انه عائد فى يوم الجمعة التالى ، ووعد بأنه

لن ينساها أبدا ، وسيواصل السعى ، ليظهر لها حماسته فى خدمتها ، وانه مستعد أن يزودها بثلثمائة أو اربعمائة قطعة من العملة المعروفة فى ذلك الوقت بـ « لوى »

الا تنتهى الآمال بما يصحبهـا من عذاب القلق والتوتر ، والترقب والخوف ؟ ولـكن ما أجمل الآمال بالرغم من كل ذلك .. ما أجمل الآمال حتي لو عذبت واشاعت القلق فى النفس الهادئة .. ولم تصدق ماوسوس لها به خيالها من انه قد يكون من نصيبها يوما ان تعود الى الحياة الطليقة ، وان ترى ابنها يكبر فى عنايتها وتحت عينها ، وفى دفء حبها ، وان تستأنف الحياة بعد تجارب تجعل منها حكيمة ومدبرة وعاقلة !

يا لهذه الاحلام الجميلة ، لاسيما اذا كانت فى هـذا القبر الرطب ، ومع ظلمة اليأس الذى تثلج معه قلبها ، وخمـدت عواطفها !

وما أقوى الحياة !

لقد دبت القوة فى الهيكل البالى ، وعادت الارادة الى الميت الذى كان ينتظر جثمانه ساعة الدفن .. وفى الحال فتشت مارى انطوانيت على وسـيلة تكتب بها ، فلم تجد الا ابرة وقطعة صغيرة من الورق ، فقد سحبت منها جميع وسائل الـكتابة ، وبسن الابرة كتبت خطابا .. واتصلت فى الحـال بالحارس « جليبر » ووعدته بمكافأة سخية ، أن هو سـلم الخطاب للضيف عند مجيئه للمرة الثانية ، وبذلك انتقلت عدوى القلق منها الى الحارس الطيب الذى أحبها وكان يود أن يخدمها . فقد حار ، كيف يواجه هذه المشكلة التى لا عهد له بمثلها ، فان هو أبلغ السلطات فقد وشى بالمرأة التعسة التى كان يأسى لآلامها ، وان هو نفذ ما طلبتـه فقد يفقـد

وظيفته ، ثم رقبتــه ، ولم ير بدا من أن يشرك معـه مدام ريشار ، التى وقعت فى نفس الحيرة .. ورأت بدورها ان تعرض الامر على السيد « ميشونيه » وكانت تلحظ فى مقابلاته للملـكة عند تفتيشه لزنزانتها توددا وتلطفـا .. وصـعق ميشونيه ، لان أمره كشف للمرة الثانية ، فلم ير مندوحة عن أن يبلغ رؤساءه ، فان وقوف اثنين على الخبر لايضمن أبدا كتمانه .. ولـكنه قبل أن يبلغ السلطات ، أتلف الخطاب الذى كتبته مارى انطوانيت بسن الابرة ، بأن أضاف اليه بسن ابرة أخرى جملا وحروفا ، جعلت قراءة هذا المستند التاريخى عسيرة على موظفى السلطات فى تلك الايام .. وعلى المؤرخين حتى اليوم

وادعى ميشونيه ان النبيل الذى صحبه لزيارة السجن ، لم يكن سوى شخص عابر ، لايعرف اسمه ولا وظيفته ، قابله فى احدى السهرات ، وأبدى الرغبة فى أن يزور معه السجن ، عن فضول ورغبة فى المعرفة ، فوافقه مطمئنا الى ان هـذه الزيارة لن تحقق أى شر ، لانها ستتم بمصاحبته وتحت اشرافه

وأجرى تحقيق ، كانت الغاية منه ، اسدال ستار على هذه الفضيحة . وأنـكرت مارى انطوانيت كل شىء ، وانتهى الامر فى هذه المأساة ، بتجريد مارى حتى من خاتمها الذى اعطته لها أمها « ماريا تريزا » قبل مبارحة النمسا ، وعلبة صغيرة كانت بها خصلات من شعر أولادها ، والساعة الصغيرة التى كانت تعلقها على الحائط فتؤنس دقاتها وحشة السجن

ولم يبق اذن بعد كل هذه المحاولات .. بعد هذه الآمال التى تورق وتونق وتذبل والتى تشرق وتغرب ، وتضىء وتنطفىء ، مع آلامها ومخاوفها .. لم تبق الا الخاتمة

الفصل الخامس عشر

مهد للخاتمة تحقيق أجراه معها النائب العام للثورة « فوكيه تنفيل » كانت فيه حاضرة الذهن ، رابطة الجأش ، حريصة لا يستدرجها الغضب الى ما يقيم الدليل ضدها .. ثم جاءت المحاكمة ، فحافظت فيها على ثباتها ، وقوة أعصابها

واخيرا .. وبعد كل هذا العناء جاء حكم الاعدام ، كمنقذ ومخلص !

وفى الساعة السابعة صباحا طرق الباب ، وكان الطارق الخادمة « روزالى » التى أحسنت خدمة مارى انطوانيت منذ اللحظة الاولى .. دخلت روزالى ، وكانت مارى مستيقظة منذ الساعة الخامسة تكتب خطاب الوداع الاخير .. ولم تستطع روزالى أن تتبين فى ظلام الزنزانة أحدا ، فان الشمعتين اللتين كانتا تضيئانها وصلتا الى نهايتهما تقريبا ، فكان ضوءهما ضعيفا وكأنما يرمز الى الذبالة الباقية من حياة السجينة ، التى كانت مرتدية ثوبها الاسود ومتمددة على الفراش صامتة لا حراك بها ، بعد أن أنهك الاسهال المتكرر قواها .. وفى حنان عظيم ، امتلأ به قلب هذه الفتاة الريفية البسيطة ، اقتربت من السجينة وقالت لها :

« سيدتى ، انك لم تتناولى شيئا فى العشاء الليلة الماضية ، ولم تأكلى تقريبا طوال نهار أمس ، الا أحضر لك شيئا هذا الصباح ؟ »

فأجابت مارى : « لا أريد شيئا ، لان كل شىء بالنسبة الى قد انتهى »

ولم تيأس روزالى ، فعادت تلح عليها لتتناول قليلا من الحساء أعدته خصيصا لها

وقبلت مارى اكراما لروزالى هذا الرجاء ، وتجرعت بالفعل ثلاثا أو اربع ملاعق

ان الانسان لينحنى أمام هذه العاطفة التى جمعت اثنتين جد متناقضتين ، وجد متباعدتين ، خادمة وملكة . كان من المفروض أن تجد الاولى فى الشماتة بالثانية راحة وسرورا .. ولكن ليس هذا هو الاصل فى طبيعة الانسان . فى لحظات الشدة تسقط الحواجز ، وتزول الفوارق ، ويبقى الانسان المجرد ، الانسان الذى يتعذب مهما كان مركزه وماضيه وجرائمه ، والانسان الذى يشفق ويأسى ويود أن يعين ويخفف النوائب ، مهما كانت بساطته وقلة حيلته .. وفى هذه اللحظات ايضا ، ترتفع قيمة الكلمة الصغيرة ، والاشارة الخفيفة ، حتى لتساوى الذهب النضار .. لا بل حتى لايعادلها شىء فى الوجود مهما بلغت قيمته

ولما فرغت السجينة من تجرع ماتجرعته من الحساء ، جاءت خادمة لتعينها على لبس ثيابها ، فقد حرم على مارى انطوانيت ان تذهب الى المقصلة وهى فى ثوب الحداد حتى لايكون فى هذا ما يعد تحديا لمشاعر الشعب

ولما كانت مارى قد قررت أن تذهب الى المقصلة فى ثياب



نظيفة ، وكانت ملابسـها الداخلية قد تلوثت بالدم لقسوة الاسهال الذى كانت تعانى منه ، فقد كان لابد أن تخلع كل ملابسها ، وكان فى الحجرة حارس أمر الا يرفع عينيـه عن السجينة حتى تخرج الى العربة التى ستحملها الى المقصلة.. وقد ابى أن يخرج ، فلم يكن أمام مارى انطوانيت الا أن تنزوى فى احد أركان الحجرة ، وأن تنحنى حتى لا تبدو عارية لعين رجل ، فى اللحظات السابقة على الخلاص من هـذا العالم ، وبينما وقفت الخادمة بينها وبين الحـارس ، جمعت مارى انطوانيت ثيابها القذرة ، وكورتها ، وألقت بها خلف الموقد ، ووضعت عليها الثوب النظيف الذى أعد لها ، وكأنما تلبس ثوب زفاف ، فقد ارتدت هذا الثوب فى عناية ، فهى ستواجه به الناس ، مئات الالوف من الناس ، بعد عام قضته بعيدا عن الاعين ، ثم انها كانت تحس بأنها مقدمة على خطوة استشعرت لها القداسة .. انها ذاهبة الى أكثر خطواتها جدا .. انها ذاهبة الى الموت !

وبنفس الروح ، روح الوقار والاهتمام ، وضعت مارى حول رقبتها قطعة من الموسلين ، ثم لبست أحسن احذيتها وغطت شعر راسها الذى رجلته وسرحته ، بقبعة أو قلنسوة ذات جناحين

وفى الساعة الثامنة طرق الباب ، ولم يكن الطارق بعد هو الجلاد .. انه قسيـس جاء لتعترف له .. ولـكنه كان قسيسا من اتباع الثورة الذين اقسموا لها يمين الولاء ، فلم

تحفل به ، ولم تلق بالا اليه .. وفى العاشرة جاء سمسون الجلاد ، شاب ضخم الجثة ، وبدأ مهمته بأن جز شعر رأسها دون مقاومة منها ، ودون حتى الشعور بالامتعاض ، ولم يبد أيضا على وجهها شيء من الامتعاض حينما قيد يديها من الخلف بحبل ، كانت نهايته فى يد سمسون نفسه

وفى الساعة الحادية عشرة ، فتح باب السجن ، ونزلت مارى انطوانيت سلالم السجن فى خطى ثابتة ، ولما خرجت للناس كان الناس كالعهد بهم دائما ، اذا ما تركوا لانفسهم ولم تتحرك فى أعماقهم غرائز الحيوان القديم : يكرهون القسوة ، ويمقتون التمثيل بالضعفاء ، ولهذا كان مرأى مارى انطوانيت مقيدة ، ومن خلفها حبل فى يد رجل ضخم ، باعثا على الاشفاق والاحتجاج الصامت

وهمت السجينة بركوب العربة ، فمد جلادها يده اليها ليعينها ، فتقبلت المعونة فى صمت ، وركبت العربة ، التى اشتهرت باسم « التمبريل » .. وسارت قدما نحو ميدان الثورة الذى عرف فيما بعد بميدان الكونكورد

الالوف يمينا ويسارا متراصون متزاحمون ، والجنود راكبو الخيول والمشاة ، رافعو السلاح شاكوه .. والعربة تخترق الشوارع .. فكيف استقبلت مارى انطوانيت عدوة الشعب ، من الشعب ؟ هل صرخ الناس فى وجهها ؟ هل هتفوا ضدها ؟ هل رجموها بالطوب أو السباب ؟ هل تهكموا عليها ، وهى مهينة مقيدة بحبل ؟

كلا .. ان الناس دائما كما قلت مالم يثرهم مثير او يحرضهم محرض ، طيبون ، يحترمون مصـائب غيرهم ومتـاعبهم ، ويستنكرون أن يعبث احد فى جرح مفتوح

وبهذا مر الموكب فى صمت عميـق ، لم يقطعه الا لفترة قصيرة جدا ، صياح رجل ركب حصانا ، وجرى خلفهـا ، وهتف ضدها ، ثم انتهى كل شىء .. وعند زاوية كنيسـة « سان بروش » اجتمع النسوة وصرخن صرخات السخرية ، ولم يتكرر ذلك من رجال ولا من نساء

وفى ميدان الثورة ، اجتمع الالوف منذ الصباح ينتظرون وصول الملـكة الى نهاية مطافها فى هـذه الدنيا ، وفى وسط الميدان كانت الجيلوتين منتصبة ، يلمع نصلها الحاد ، لمعـانا رهيبا مخيفا

ووصلت العربة ومن حولها الفرســـان ، ونزلت مارى انطوانيت ، وفى قدميها أغلى حذاء عندها ، وعليهـا ثوبها المسدل فوق قامتها التى زادت على المحن رشاقة ، وقفزت على درجات السلم .. سلم المقصلة ، بهذه الاقدام السريعة ، الخفيفة

والآن لم يبق شىء الا أن تنحنى على ركبتيها ، وبحركة من سمسون الجلاد اتقنها على مر الايام ... وانحنت ، ثم وضعت عنقها على نصف الدائرة السـفلى للجيلوتين ، واعد العنق لبستقبل سـلاح المقصلة .. ولمع النصل وهو يهوى ، ثم سمعت طرقة كئيبة .. رهيبة ، هى صوت ارتطام الراس

بقاع السلة المعدة لاستقبال الرءوس الطائرة

ويرفع سمسون الراس ، ليوضع بعد ذلك بين ساقى الجثة ، التى القيت فوق عربة يد ، لتنقل هذه الاشلاء كلها.. الى المقبرة

كانت هذه خاتمة مارى انطوانيت

أما شقيقة زوجها مدام اليزابث ، فقد بقيت بعدها سبعة أشهر ، لم تدر خلالها ان مارى قد سبقتها الى الابدية .. وبقيت على هذا الجهل حتى سيقت هى الاخرى الى المقصلة فى نفس العربة التى حملت الملكة ، وفى التاسع من شهر مايو عام ١٧٩٤ ، وكان رفيق مدام اليزابث فى هذه الرحلة القصيرة ، رحلة النهاية ، هى مدام سيزونان شقيقة الوزير « مالرب » الذى دافع عن الملك لويس .. وفيما هما تخرجان من باب السجن ، طلبت مدام اليزابث من زوجة محافظ السجن مدام ريشار أن تبلغ الملكة تحياتها ..! فأجابتها رفيقة الرحلة : « ياسيدتى ان اختك الملكة قد خضعت لنفس القدر الذى ستخضعين له الآن »

وقبل أن تلقى مدام اليزابث حتفها ، نزعت منها ابنة اخيها التى عاشت حتى الى ما بعد عهد عمها لويس الثامن عشر ، الدوق بروفانس ، الذى عمل كل ما فى وسعه ليقضى على أمها وابيها ليصل هو الى العرش .. اما ولى العهد فقد اختفى فى طيات التاريخ ، كما يختفى الولد الصغير عن انظار أهله فى زحام طريق حافل بالحركة ، او فى موكب تتدافع

فيه جموع الناس .. هل قتله عمه الدوق بروفانس ـ الملك لويس الثامن عشر فيما بعد ـ ؟ هل قتله بعض الثوار ؟.. هذا ما لايعلمه احد يقينا

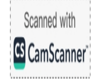
اما بثيون ، الذى ارتفع نجمه حتى أصبح زعيما من زعماء الثورة ذوى النفوذ والخطر ، فقد اجتاحته موجة الارهاب التى نظمها ونفخ فى نارها « مارا » ضد الجيرونديين وزعمائهم، فسقط عنقه على مقصلة الجيلوتين ، تماما كما سقط عنق برناف وعنق مدام توريز الوصيفة

فهذه العربة التى عرفنا هنا قصتها تستحق بغير شك اسم عربة الموت ، فقد قضت على الملكية ، وقضت على الثورة ، وقضت على الذين ركبوها ، الا واحدة هى ابنة الملك ، ولعل شحوب دورها ، وانطواءها على نفسها ، وبعدها عن الناس ، كانت العوامل التى أتاحت لها أن تعيش ... وقد كان ذلك فى عهد الثورة عملا ضخما ، ونصيبا كبيرا

□

لكن من حقك ان تسأل ماذا أصاب اليكس فرسن ، صاحب الدور الاكبر فى صنع العربة واعدادها ، وفى تهيئة الرحلة ، ورسم خطتها ، وتدبير كل ما اتصل بها ، وتعبئة كل من ساهم فيها واشرف عليها

لقد نجا فرسن من الموت ، فقد كان خارج الحدود ، ليكابد لسنوات طويلة آلاما ، ويتجرع غصصا ، منذ نقلت مارى انطوانيت الى الكونسيرجى ، لتسلم عنقها الجميل بعد ذلك



الى نصل المقصلة الحاد

وكان فرسن رجلا عنيفا ، فزادت ضراوته على الايام ، واصبح متجهما ، شرسا ، سريع الغضب ، ولكنه كان يعيش فكان لابد له أن يخضع لما تقتضيه الحياة ، كان لابد له ان يروح ويغدو ، لابد له أن يأكل ويعيش ويخاطب الناس ، فماذا يفعل ؟

كان يكتب لاخته الوحيدة من بين أفراد أسرته ، والناس جميعا ، التى يسكب فى خطاباته اليها ، صرخات قلبه الذى كان يتمزق ، قال لها فى أحد خطاباته :

« لقد انتهت تلك التى أحببتها باعتزاز لا حد له ، والتى من أجلها كنت أبذل حياتى رخيصة آلاف المرات .. فيارب لماذا سحقتنى ؟ وماذا جنيت لاستحق نقمتك ؟ لقد استحلت عدما .. بلغ ألمى قمته ، فكيف سأبقى حيا ، وكيف اصبر على آلامى الهائلة ، والتى لايوجد ما يلطفها ، فهى لاتبرح مخيلتى ، وانا لا أنفك أبكيها .. ياعزيزتى كم وددت أن أموت معها فى ذلك اليوم .. العشرين من يونية .. »

لقد بحث عن كل ما يمكن أن يعزيه فى حرقة آلامه ، فأرسل الى سماسرة التحف ، ومحلات العاديات والاشياء القديمة ليشتروا له كل أثر لمارى انطوانيت .. فقد كان جمع هذه الاشياء تسليته الكبرى ، الا انه وجد سلوى أعظم ، فقد راى لاول مرة ابنة مارى انطوانيت فى بلاط النمسا عام ١٧٩٦ بعد مصرع أمها بثلاث سنوات ، فخانته شجاعته ، فاهتزت

ركبتاه وسالت دموعه مدرارا

الا ان العزاء الاكبر تحقق لفرسن ، فقد كان يرجو وهو يصرخ من فرط الالم ، ان يلقى حتفه يوم ٢٠ يونية ، أى يوم قبض على العربة التى أعدها للرحلة الفاشلة ، وفى يوم ٢٠ يونية عام ١٨١٠ لقى حتفه بصورة أقرب ما تكون من الصورة التى لقيت بها مارى انطوانيت مصرعها

فمع الايام ، كان مركز فرسن قد كبر حتى أصبح فيلد مارشال فى جيش السويد ، ولكنه كان قد استحال لشدة كراهيته للثورة الفرنسية ، مثلا قبيحا من أمثلة الرجعية ، لا فى بلاده وحدها ، بل فى كل أوروبا ، فكان عدوا لكل تقدم ، ولكل ما يتصل بالشعب ، وبأبناء الشوارع

وكانت قد راجت اشاعة فى استوكهولم عاصمة السويد مؤداها أن الفيلد مارشال فرسن ، يتهيأ للوثوب على عرش بلاده ليقودها الى حرب ضد فرنسا ، انتقاما من البلدة التى قتلت مارى انطوانيت ، وانه لهذا الغرض قد دس السم لاحد الامراء ليتخلص من منافسته له ، ولم يكن الشعب مصدر الاشاعة ، انما كانت دوائر الامراء الذين كانوا يخافون فرسن ويخشون أطماعه

وتناقلت الالسن الاشاعة ، وصدقها الناس ، وفى يوم تشييع جنازة الامير الذى زعمت الاشاعة انه مات قتيلا بيد فرسن ، نصح اصدقاء فرسن له بالا يشترك فيها ، فلم يحفل بتحذيراتهم ، وخرج ليكون بين المشيعين ،

فلم تكد عربته تغادر قصره ، حتى احاطت به جماعة ثائرة من الشعب انتزعته من العربة وألقت به فى الطريق وما زالت به حتى لفظ انفاسه

لقد عرفنا خاتمة حياة جميع من كانوا فى العربة .. ولكن فاتنا ان نذكر مخلوقا منهم ، أشرنا اليه عرضا ، وهو لهذا يستحق منا تكفيرا عن الخطأ واعتذارا ، وليس أبلغ فى التكفير عن هذا الخطأ ، ولا فى التعبير عن الاسف ، من أن نذكره فى ختام هذه الصفحات

كان مع مارى انطوانيت دائما .. صحبها فى رحلتها ، وفى تنقلاتها من فرساى الى التويلرى الى اللوكسمبرج ، الى التامبل ، الى الكونسيرجى .. فلم يتخلف عنها الا وهى تساق الى المقصلة .. انه كلبها الوفى ، الذى ذهب يتجول فى أنحاء السجن بعد أن فارقته لتفارق الدنيا ، يشم كل اثر ، ويتطلع الى كل انسان ، يبدو الاسى فى نظراته ويفيض من نباحه .. فلما عرف انه أصبح وحيدا ، قبع فى ركن بعيد ، وغامت عيناه بحزن عميق فالتقطه محافظ السجن ، واصطفاه ، فعاش يذكر سيدته فى دعة وهدوء ...





وكلاء مجلات دار الهلال

لبنـــان و الاقليم الشمالى :	وكالة دار الهلال ــ شارع فرنسا صندوق البريد ٣١٥٧ ــ بيروت
العـــراق :	السيد محمود حلمى ــ المكتبة العصرية ــ ببغداد
اللاذقيــة :	السيد نخلة سكاف
جـــدة :	السيد هاشم بن على نحاس ــ ص . ب ٤٩٣
البحـــرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد ــ ص . ب ــ ٢١
البـــرازيل :	Dr. Michel H. Tomé, Paeto Do Colegio No. 3 3° Andar — Sala 9 SAO PAULO — BRASIL
غـــانا :	Mr Joseph Hassan, The Cine Travel Co., P.O. Box 1883, ACCRA, GHANA
نيجـــريا :	Mr Mohammed Said Mansour, P.O. Box 652, LAGOS, NIGERIA
سيراليـــون :	Messrs, Allie Mustapha & Sons, P.O. Box 410, Freetown Sierra Leone
سنغـــافورة :	Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit, Almaktab Attijari Asshargi, P.O. Box 2205, SINGAPORE

هذا الكتاب

كانت الثورة الفرنسية حدثا عالميا ضخما ، وكانت ثورة دموية ، اهرقت فيها الدماء غزيرة متدفقة ، وقد قضت على عهد الملكية والاقطاع ، ولكنها كذلك اراقت دماء الالوف من الابرياء

ولقد تناول هذه الثورة كثير من المؤرخين والادباء والروائيين ، غير أن الكتاب الذى نقدمه هذا الشهر يتناولها من زوايا لم يسبق لكتاب أن تناولها ، فهو يحدثنا عن الحالة النفسية التى كان عليها أفراد الاسرة الملكية جميعا ، كما يحدثنا عن حالة الثوار النفسية ، وكان اروع ما فى الكتاب ذلك الحوار البديع الذى دار بين الملكة مارى انطوانيت وبين بعض الثوار حول الحرية والنظام والفوضى والاخاء والمساواة انه حوار رائع يكشف لنا عن مختلف وجهات النظر ، وعن بواعث تلك الثورة التى اتت على الاخضر واليابس

وفى هذا الكتاب توضيح لبعض ما غمض من دوافع هذه الثورة وبواعثها ، فاماط المؤلف اللثام عنها واوضحها باسلوبه الشائق البديع وصور الحياة فى تلك الحقبة الرهيبة تصويرا دقيقا بديعا